التاريخ:2024/11/26

مستخرج من محضر المجلس العلمي للكلية

وافق المجلس العلمي للكلية وصادق في جلسته المنعقدة بتاريخ: 2024/06/20 على المطبوعة البيداغوجية للدكتورة: نورة جبلي، بعنوان:

- **محاضرات في مصادر اللغة والأدب والنقد .**

موجهة إلى طلبة السنة الأولى ليسانس، (تكوين قاعدي)، سداسي ثاني، قسم اللغة العربية وآدابها، مرفقة بإشهاد يثبت مفردات المادة، واستيفاء المدة القانونية03 (ثلاث) سنوات متتالية، وذلك بناء على التقارير الإيجابية للخبراء.

رئيس المجلس العلمي للكلية:

الاستاذ الدكتور شكيل عبد الحميد
رئيس المجلس العلمي للكلية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة باجي مختار-عنابة - Badji Mokhtar-Annaba University
كلية الآداب و اللغات Faculty of Letters, and Langages
قسم اللغة العربية وآدابها .

مطبوعة بيداغوجية في مقياس المصادر. مقدمة لطلبة السنة الأولى ليسانس تكوين قاعدي مشترك

عنوانها :

محاضرات في مصادر اللغة والأدب والنقد .

إعداد: د/ نورة جبلي

السنة الجامعية : 2024 / 2023

مقدمة :

سار العقل العربي بخطى سريعة لا يتوقف عن الإبداع حتى في أحلك الظروف التي مرّت بها الأمة العربية . وكانت نتيجة ذلك تراثا ثقافيا واسعا بدأ يتضخم بعد توسيع دائرة الفتح الإسلامي وانتشار حركة الترجمة . وأخذ منحى تصاعديا في خط سيره ونموّه . لا يعرف الكلل أو الرجوع إلى الوراء . غير أن دارس هذا التراث في عصرنا يجد صعوبة في الإلمام به نظرا لاتساعه وتشعبه وتعدد مصادره . وخاصة طلبتنا في قسم اللغة العربية وآدابها . حيث برمجت لهم مصادر لغوية وأدبية ونقدية قديمة وأخرى حديثة ومعاصرة ، في عامهم الأول من دخولهم الجامعة ، وهم لا يزالون قليلي الزاد ، ضعاف التجربة ، محدودي الاطلاع . فرأيت أن أضع لهم مطبوعة أحصر لهم فيها أهم المصادر التي تفتح لهم آفاق الطريق ، وتعينهم على المضي إلى الأمام دون تعثر . يعود احتكاكي بهذه المادة إلى سنوات خلت ، حيث كلفت بتدريسها لمدة ثلاث سنوات (1995 ـ 1997) . غير أن ما كنت أقدمه للطلبة في ذلك الوقت كان يغلب عليه الجانب التطبيقي ، حيث أحضر لهم المصدر وأقدمه لهم ليفحصوه الواحد تلو الآخر ، ثم نقرأ مع بعضنا مقدمته وخاتمته وبعض الأجزاء من بعض الفصول ونتناقش فيها : فيخرج الطلبة من الحصة وفي نفوسهم شيئ من المصادر. بعد ذلك انشغلت بتدريس مواد أخرى وتركت هذه المادة ، ثم عدت إليها من جديد في عام 2015 ، ولم أتوقف عن تدريسها إلى يومنا هذا . نظرا للمتعة الكبيرة التي أجدها وأنا أقف أمام الطلبة أحدثهم عن تراث أمتنا العريقة وأفتخر به . وأبثّ فيهم روح الافتخار والتباهي بهذا التراث العظيم .

وأسأل الله أن أكون مخلصة في تقديم ما أراه الأفضل لطلبتنا ، وأن يعينني على خدمة لغة القرآن إنه سميع مجيب .

المحاضرة رقم 01 : مفهوم المصدر والفرق بينه وبين المرجع .

1- تعريف المصدر لغة:

المصدر: من الجذر الثلاثي : (ص د ر) ، والصدر مفرد الصدور : " وصدر كل شيء أوله - والمصدور الذي يشتكي صدره . و الصدر بفتح الدال الاسم من قولك: صدر عن الماء و عن البلاد من باب نصر و دخل "[1] قال تعالى :" لا نسقي حتى يصدر الرعاء " . و صدر كتابه تصديرا جعل له صدرا . و صدره أيضا في المجلس فتصدر[2] . و هكذا نلاحظ أن معظم اشتقاقات الجذر (ص د ر) تدل على مقدمات الأشياء و المراتب العليا .

جامعة باجي مختار - عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

2- تعريف المرجع لغة:

المرجع : من الجذر الثلاثي (ر ج ع) وهو فعل لازم من باب جلس . أما المتعدي (رجعه) غيره فمن باب قطع . وهذيل تعديه بالهمزة فتقول (أرجعه) . "وعلى شيء يردد فهو رجيع لأن معناه مرجوع أي مردود والمراجعة) المعاودة (..) واسترجع منه الشيء أي أخذ منه ما كان دفعه إليه، واسترجع عند المصيبة أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون (.). وترجيع الصوت ترديده إلى الحلق كقراءة أصحاب الألحان"[3] . نستنتج من اشتقاقات الجذر (رجع) أنها تدل على المعاودة والترديد.

3 - المفهوم الاصطلاحي للمصدر:

أ. المصدر والمرجع بمعنى واحد:

يساوي بعض الباحثين بين المصدر والمرجع من حيث المفهوم والوظيفة فيرى أن المصدر: "هو كل ما يتعلق بالبحث من دراسات ووثائق قديمة أو حديثة، مخطوطة أو مطبوعة، فالمصادر على هذا هي كل ما يرجع إليه البحث، والمراجع هي كذلك أيضا"[4]. فهذا التعريف لا يعرف بين المصدر والمرجع لكون كل واحد منهما مصدر المعرفة، فكلاهما يكمل الآخر. فقد تعددت الأسماء والمسمى واحد هو الكتاب في رأيهم.

ب. المصدر نوع من الكتب والمرجع نوع آخر:

ويفرق بعض الباحثين بي المصدر والمرجع، فيرى أن المصادر هي الكتب القديمة المتعلقة بالموضوع المراد البحث فيه، وما عدا ذلك يعد مراجع[5] ويفهم من هذا أن المصدر هو ذلك الكتاب الذي يحمل مادة قديمة على موضوع معين، ثم

---

[1] محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ضبط وتخريج و تعليق: مصطفى ديب، البغا، دار الهدى، عين مليلة : الجزائر، ط 4 ، 1990 ، ص 233 ، مادة (صدر).

[2] المرجع نفسه، ص 158، مادة (رجع).

[3] المرجع نفسه، ص 158، مادة (رجع).

[4] محمد عبد المنعم خفاجي، البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980 , ص76.

[5] محمد الدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، دار الأوزاعي، بيروت، ط1 ,1984 , ص 117.

تأتي بعده كتب أخرى تدور دراستها حول تلك المادة ، هذه الكتب هي مراجع فرعية أخذت مادتها من مصادر متعدّدة و"أخرجتها في ثوب آخر جديد"[6] إما بتعليق أو شرح أو نقد أو مقارنة أو مناقشة أو قبول. وإطراء أو رفض وتقديم البديل

ج. تضيف الكتب حسب طبيعة الموضوع المدروس:

وذلك أننا في حياتنا الأكاديمية الجامعية نصنف الكتب إلى مصادر و مراجع حسب قربها من الموضوع المراد دراسته وصلتها به. فإن كان لا بد من وجودها ولا ينجز الموضوع إلا بها فهي مصادر ، خاصة إذا كانت هي المدونة التي يشتغل عليها الباحث. وأما إن كانت كتباً مساعدة فقط تعالج جانبا من الموضوع وتبحث في بعض جزئياته الدقيقة فهي مراجع.

4 - أهمية مقياس المصادر:

تعود أهمية هذا المقياس إلى دوره في الكشف عن تراثنا العربي اللغوي والأدبي والنقدي. الثري نوعا

فلا يوجد تراث في العالم أغنى ولا أضخم من تراثنا العربي وهذه شهادة العلماء الأجانب ورأيهم فيه وخاصة المستشرقين الذين خبروا هذا التراث عن قرب وعلى مدى عقود من الزمن.

وما أحوج هذا الجيل من أبنائنا الطلبة والطالبات إلى معرفة تراثهم والاعتزاز به، ولا يتوقف الأمر عند حد المعرفة والاعتزاز به، بل يتجاوزهما إلى توظيف تلك المدونات اللغوية وعيون الأدب والمصادر النقدية في إنجاز بحوثهم التي نأمل أن تسهم في تكوينهم بما تقر به أعيننا . فالبحث العميق هو ما تنوعت مصادره وتعددت مراجعه . والاكثار من المصادر والمراجع ليس غاية في حد ذاته وليس مطيّة للتباهي وإنما هو الهدف منه تقديم الأدلة و"البراهين على ما اشتمل البحث من آراء"[7] فقائمة المصادر والمراجع هي عماد البحث والركيزة الأساسية التي يقوم عليها تصور أي بحث لأن الباحث يستمد منها المادة والمنهج ويأخذ منها في عصارة عقول العلماء . ومنها يصوغ فرضيات بحثه ويتوقع نتائجه . وهي الدليل على ثراء بحثه أو فقره . فإذا أضيف إليها جهد الباحث وحرصه ومواظبته على تعهد بحثه يوميا بالرعاية والاهتمام، استطاع الباحث. أن ينشئ مما تفرق منها عملاً جبّارًا يكون هو أيضا مرجعا للدراسات والأبحاث التي تأتي بعده.

وبحث بلا مصادر ولا مراجع ينقلب إلى "مادة إنشائية محضة لا قيمة لها من جانب البحث. وإن كانت لها قيمة من حيث كونها إنشاء و إبداعاً"[8] .

---

[6] أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا أو رسالة، مطبعة (النهضة المصرية) القاهرة ، 1966، ط5، ص45

[7] فخر الدين محمد يوسف عامر، منهج البحث الأدبي عند ابن خلكان، الدار العربية للكتاب، الدار العربي للكتاب طرابلس، ط1، 1991، ص266.

[8] عيد محمد الطيب، نحو بحث منهجي في أصول اللغة، مطبعة الأمانة، القاهرة، 1982، ص.51.

المحاضرة رقم 02: بيبليوغرافيا المصنفات اللغوية.

1- جمع اللغة وتأليف المعاجم:

قامت حركة التأليف في المعاجم العربية على أساس المادة التي جمعها اللغويون في البادية في القرن الثاني الهجري. لقد خرج عدد كبير من اللغويين إلى البادية، وأخذ كل منهم يجمع اللغة من أبناء القبائل العربية. وبذلك تم إنجاز أول عمل لغوي ميداني في الجزيرة العربية. ولاحظ كثير من البدو اهتمام اللغويين بتلقي اللغة عنهم، فهاجروا إلى جنوب العراق حيث ازدهرت علوم اللغة في البصرة والكوفة، وأخذوا يبيعون المادة اللغوية التي عندهم لكل من ينشدها من اللغويين. ولم تكن عملية جمع اللغة محاولة شاملة لتسجيل كل الألفاظ التي عرفتها القبائل العربية، بل كان اللغويون يصدرون في اختيارهم القبائل واختيارهم للرواة عن مبدأ أساسي، وهو تسجيل اللغة الفصحى والابتعاد من الصيغ والألفاظ غير الفصحى. وبهذا المعيار ركز اللغويون عملهم على لغة تلك القبائل التي تقترب كل الاقتراب من العربية الفصحى، ورفضوا لهجات القبائل البعيدة عن الفصحى، وعلى هذا الأساس صنفت لهجات القبائل المختلفة. وظل هذا الأساس سائداً في عملية جمع اللغة في القرن الثاني الهجري، وبذلك حفظت انا كتب اللغة الاستخدام اللغوي عند مجموعة من القبائل العربية الشمالية.

لقد اهتم اللغويون بقبائل قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض بطون قبيلة كنانة وبعض بطون طيء. وتجنبوا أخذ اللغة عن الحضر أي من العرب المستقرين وعن القبائل العربية التي عاشت بالقرب من جماعات لغوية غير عربية، فلم يؤخذ من قبيلة لخم ولا من قبيلة جذام، ولمجاورتهم أهل مصر والقبط، وبالمثل تجنب اللغويون أخذ اللغة عن قضاعة وغسان واياد، لمجاورتهم أهل الشام.

وأعرض جامعو اللغة عن قبائل تغلب الاختلاط هذه القبائل بالجماعات اللغوية غير العربية في الشام والعراق ومصر. أما قبائل العرب في اليمن وشرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز فقد خرجت أيضا عن اهتمام اللغويين. وقد فسروا عدم أخذ اللغة عن أهل اليمن أن لغتهم تغيرت لمخالطتهم للهند والحبشة. ورفضوا أخذ اللغة عن قبائل شرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز باعتبار أن لغتهم اختلطت بلغة غير العرب.

والواقع أن اللغويين لم يهتموا في القرن الثاني الهجري بالتنوع اللغوي في الجزيرة العربية . وقصروا اهتمامهم على تقرير فصاحة لغة القبيلة أو عدم فصاحتها . فشغلتهم قضية الفصاحة عن باقي القضايا الكثيرة التي يمكن طرحها في العمل اللغوي الميداني و فسر اللغويون الاختلاف الذي لاحظوه في لهجات بعض القبائل التي رفضوها بأنه ثمرة الاختلاط بأبناء الجماعات اللغوية غير العربية في مصر والشام والعراق وبأبناء الجماعات اللغوية الهندية والحبشية الذين اختلط بهم نفر من العرب، ولكن جامعي اللغة في القرن الثاني الهجري لم يهتموا بالعربية الجنوبية التي كانت دون شك منتشرة في مناطق من الجنوب العربي آنذاك، بل عدوا ما وجدوه عند قبائل اليمن من ظواهر لغوية مخالفة ضرباً من الاختلاط الذي أصاب اللغة وجعلها غير نقية وغير سليمة . وبذلك لم يكن العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني الهجري محاولة لتسجيل جوانب الحياة اللغوية عند أبناء اللغة العربية أو محاولة لبحث جوانب التنوع اللغوي في الجزيرة العربية، بل كان محاولة للبحث عن الصيغ الفصيحة والكلمات النصيحة عند القبائل العربية التي يقترب استخدامها للغة من المستوى اللغوي المنشود.

وقد أثمرت حركة جمع اللغة مجموعة من الكتب والرسائل اللغوية. لقد جمع اللغويون ما عرفته القبائل الفصيحة من ألفاظ، وصنفوها في مجموعات دلالية. وألفوا في هذا مجموعة كبيرة من الكتب. ألف الأصمعي (ت ٢١٦هـ) في خلق الانسان و الابل والخيل و الوحش» و «النبات و الشجرة وألف أبو زيد الانصاري في اللبن و المطر» و «النبات» و «الشجر». وظلت الرسائل هي الشكل الوحيد الذي اتخذته دراسة الألفاظ العربية من الناحية الدلالية وقتاً طويلا إلى أن برزت إلى الدوائر العلمية حركة تأليف المعاجم. وقد كان لما ألفه الأصمعي وأبو زيد الانصاري ومن عاصرهما من اللغويين أكبر الأثر في المعاجم العربية وفي نظرية اللغة عند العرب بشكل عام.

لقد أخذ مؤلفو المعاجم المادة التي دونها علماء القرن الثاني واحتفلوا بكل ما سجله الاصمعي وأبو زيد ومعاصروهما كل الاحتفال. ولذا تتكرر أسماء هؤلاء اللغويين في المعاجم العربية الكثيرة التي ظهرت في القرون التالية.

يعد نشاط العلماء العرب في عصر الحضارة الاسلامية لتأليف المعاجم من أبرز مظاهر جهدهم العلمي. وهم بهذا أهم من ألف المعاجم قبل العصر الحديث على الاطلاق. لقد بدأت حركة تأليف المعاجم العربية موازية لتدوين الرسائل اللغوية في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة.

وفي هذه الفترة أيضا ألف كتاب سيبويه . وبذلك عرف النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة جمع اللغة وتدوين الرسائل اللغوية وبداية العمل المعجمي وبداية التأليف النحوي. وإذا كان القرن الرابع الهجري قد عرف مجموعة كبيرة من أعلام النحاة فإن نفس الفترة الزمنية أخرجت لنا عدداً كبيرا من المعاجم اللغوية التي تمثل اتجاهات مختلفة في التأليف المعجمي . وكانت حركة تأليف الموسوعات النحوية موازية لتأليف المعاجم الموسوعية مثل لسان العرب . كما كانت حركة تأليف الحواشي والشروح النحوية مصحوبة بتأليف حواش على المعاجم وشروح لها . وكان عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣) بكتابيه وخزانة الأدب ، و و شرح شواهد مغني اللبيب ، ظاهرة موازية لتأليف مرتضى الزبيدي (ت ١١٤٥ هـ) لتاج العروس شرحا للقاموس المحيط . وإذا كانت كتب النحو تختلف اختلافا بسيطا في تبويبها الداخلي وترتيبها للموضوعات فإن المعاجم العربية تقسم من ناحية ترتيبها للألفاظ الواردة فيها إلى مدارس مختلفة .لكل منها منهجها الخاص.

2- معاجم الترتيب الصوتي :

بعد "كتاب العين" أقدم المعاجم العربية على الاطلاق ورائد أقدم مدرسة في التأليف المعجمي . يختلف و كتاب العين، عن الجهود الأخرى المبكرة في التأليف اللغوي أنه أول محاولة الحصر ألفاظ اللغة العربية على نحو شامل وفي إطار نظام منهجي واضح . يتفق الباحثون على أن خطة ، كتاب العين : من عمل الخليل ابن أحمد ، ولكن مدى اسهامه واسهام تلميذه الليث بن المظفر في تنفيذ المعجم ظل موضع خلاف بين الباحثين . فمنهم من ينسب العمل كله للخليل . ومنهم من بذكر نسبته للخليل وينسبه لليث بن المظفر . وأغلب الظن أن جهد الخليل في كتاب العين هو المقدمة المنهجية ، وهي أهم ما في الكتاب مع محاولة تطبيقها في الأبواب الأولى . أما الليث فهو راوية ما أعده الخليل ومؤلف باقي الكتاب.

يقوم منهج الخليل في ترتيب ألفاظ اللغة العربية على مجموعة أسس عامة :

١ - ترتب الكلمات باعتبار حروفها الأصول فقط ، ومعنى هذا أن الخليل بني معجمه على أساس التمييز بين الحروف الاصول والحروف الزوائد في الكلمة الواحدة ، وهو أساس صرفي لم يكن من الممكن تصوره قبل اتضاح ملامح البحث في بنية الكلمة العربية . من هذا الجانب يختلف كتاب العين عن الرسائل الكثيرة التي ألفت في القرن الثاني الهجري والتي صنفت فيها الألفاظ تصنيفا موضوعيا . وقد ظل المبدأ الذي وضعه الخليل في كتاب العين ، باعتبار الحروف الاصول دون الحروف الزوائد في ترتيب الكلمات أساساً متعارفا عليه في كل المعاجم العربية العامة حتى العصر الحديث . لم تخرج عنه الا قلة من المعاجم الخاصة وبعض المعاجم التعليمية الحديثة .

٢- ترتب الكلمات المندرجة في مادة لغوية واحدة ترتيباً داخليا على أساس الأبنية ، الثنائي، الثلاثي (الصحيح والمعتل واللفيف) الرباعي، الخماسي . والثنائي مثل : قد .. لم ، هل ، والثلاثي مثل : ضرب ، خرج والرباعي مثل : دحرج ، قرطس ، والخماسي مثل : اقشعر . وقد اتبع هذا الأساس في الترتيب الداخلي لعدد من المعاجم العربية التالية التي التزمت بمنهج الخليل ، وهي (البارع ، للقالي (ت ٣٥٦ هـ) و تهذيب اللغة ، للأزهري (ت ٣٧٠ هـ) ، والمحيط ، وللصاحب بن عباد . ت ٣٨٥) و (الحكم والمحيط الاعظم ، لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)

توضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة ، وبذلك ترد الكلمة وقد جردت من حروفها الزوائد في أول موضع ممكن . فالحروف ك ت ب يمكن أن تتخذ الترتيبات التالية : كتب، كبت، تكب، تبك ، بكت بتك ، وتعد كل هذه المواد مجموعة واحدة.

ولا شك أن هذه الفروض الرياضية لا تجد لها في اللغة شواهد على كل صيغة من الصيغ السابقة . وقد أطلق الخليل على الصيغ الموجودة فعلا مصطلح والمستعمل ، وعلى الصيغ غير الموجودة والممكنة نظرياً المهمل .. وبغض النظر عن نسبة المستعمل والمهمل من كل مجموعة من الحروف فإن هذه المجموعة تناقش كوحدة واحدة . وتأتي المجموعة كاملة وفق أحد حروفها ، قد يكون الأول أو الثاني أو الأخير، يتحدد ذلك بجدول المخارج ، فكلما كان الحرف سابقا في جدول المخارج جاء بمجموعته كاملة إلى مكانه . وبذلك تأتي أي كلمة بها حرف العين في القسم الخاص بالعين وهو أول أقسام كتاب العين . وبالمثل لا تأتي كلمة بكت تحت الباء لأن الباء تأتي متأخرة في ترتيب المخارج ولكنها تأتي تحت الكاف لان الكاف أسبق من الباء والتاء في الترتيب المخرجي.

رتب الخليل الحروف العربية وفق المخارج ، وبدأ بأصوات الحلق ثم ذكر باقي الحروف منتهياً بالحروف الشفوية ، وختم ترتيبه بأصوات العلة والهمزة . لم يبدأ الخليل بالهمزة أو بالألف لما لاحظه من تغير صوتي يؤدى بها ، ولكنه بدأ معجمه بكتاب العين باعتبارها الصوت الحلقي الأول الذي لا يتغير في الأبنية الصرفية ، وقد سمى المعجم باسم أول قسم فيه وكتاب العين. .

وقد احتفظت مجموعة من المعاجم العربية العامة بمنهج الخليل وطبقته الجوانب المذكورة من اختلافا يسيرا . وهذه المعاجم هي : البارع للقالي (ت ٣٥٦ هـ) و تهذيب اللغة للأزهري (ت (٣٧٠) و المحيط للصاحب بن عباد ت ٣٨٥ هـ) و المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (ت) (٤٥٨ هـ) . وقد ألفت هذه المعاجم في القرنين الرابع والخامس للهجرة في مناطق متباعدة من العالم الاسلامي ، فقد ألف القالي معجمه و البارع ، في الأندلس، وألف ابن سيده معجمه : المحكم والمحيط الأعظم ، في الأندلس أيضا، ولكن، تهذيب اللغة ، للأزهري و المحيط للصاحب بن عباد معجمان مشرقيان ألفا في خراسان والري.

وقد اعتمدت كل هذه المعاجم على المادة اللغوية المتاحة في وكتاب العين وفي الكتب اللغوية الأخرى، وتختلف قيمتها باختلاف مصادرها ومدى اعتمادها عليها . فقد اعتمد ابن سيده في المحكم على مجموعة مصادر منها الكتب اللغوية والنحوية وكتب التفسير والحديث . وبهذا اختلف المحكم من هذا الجانب عن المعاجم المشابهة. ولكن أهم معاجم الترتيب الصوتي التي وصلت إلينا هو ، تهذيب اللغة ، للأزهري . فقد وصل إلينا هذا المعجم كاملا . بينما لم يصل إلينا من المعاجم التي التزمت بمنهج الخليل إلا قطع منها . ولكن أهم سمة تميز تهذيب اللغة للأزهري عن المعاجم المماثلة أن الأزهري جمع مادة جديدة عن البدو الذين عاش بينهم فترة من الزمن. وقد ذكر الأزهري في مقدمته أنه وقع أسيراً أثناء ثورة القرامطة. وعاش بين مجموعة من العرب أكثرهم من هوازن وبعضهم من تميم وأسد، ولا يكاد يقع في منطقتهم لحن أو خطأ فاحش فبقيت في إسارهم دهراً طويلا ... واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ونوادر كثيرة . أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب وبهذا يعتبر الأزهري اللغوي الوحيد الذي اهتم في القرن الرابع الهجري بالعمل اللغوي الميداني . وكانت حركة جمع اللغة قد توقفت منذ أكثر من قرن.

3-معاجم الترتيب الهجائي:

تنتظم المعاجم العربية ذات الترتيب الهجائي في مجموعتين . فالمجموعة الأولى بدأت بكتاب الحروف ، أو: كتاب الجيم : للشيباني (ت ٢٠٦هـ) . وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الأول من حروفها الأصول . أما المجموعة الثانية فبدأت و بديوان الأدب : للفاراني (ت ٣٥٠ هـ) و «الصحاح للجوهري ت ٥٣٩٣)، وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الأخير من حروفها الأصول . لقد أفادت معاجم الترتيب الهجائي من منهج الخليل بن أحمد. فكل هذه المعاجم حذت حذوه في ذكر الكلمات باعتبار حروفها الأصول ، وقد ظل هذا المبدأ سائداً في كل المعاجم العربية العامة قبل العصر الحديث ، التزمت به معاجم الترتيب الصوتي كما التزمت به معاجم الترتيب الهجائي.

ولكن معاجم الترتيب الهجائي اتخذت ترتيب الحروف المتعارف عليه عند جمهور المثقفين أساسا لها ، ، ويرجع هذا الترتيب إلى نصر بن عاصم الذي طوره عن النظام السامي الشمالي المعروف باسم الأبجدية . كان ترتيب الحروف عند الأجريتين والفينيقيين والعبريين والآراميين يتخذ النظام التالي : أ ب ج د هـ وز ح ط ي ك ل ك ل م ن س ح ف . ص ق ر ش ت . . وعندما استخدم هذا الترتيب الأبجدي عند العرب وضعوا الحروف العربية التي لم ترد فيه في آخر الترتيب وهي ث خ ذ ض ظ غ.

ولكن نصر بن عاصم (ت (٨٩) أعاد ترتيب الحروف على أساس شكلي فوضع إلى جانب الباء التاء والثاء ، ووضع إلى جانب الجيم الحاء والحاء وهكذا...

وبذلك ظهر الترتيب الهجائي للحروف العربية وهو الترتيب الذي قامت عليه معاجم الترتيب الهجائي[9]

يعد : كتاب الجيم ، أو كتاب الحروف : للشيباني (ت ٢٠٦هـ) أقدم المعاجم ذات الترتيب الهجائي. لقد رتب الشيباني الكلمات وفق الحروف الأول من حروفها الأصول . ولم يرتب الشيباني الكلمات الواردة في إطار الجذر الواحد ترتيبا

[9]ينظر: عدنان الخطيب ، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، القاهرة ، 1967 . ص 22-24 .

داخليا على نحو ما فعل الخليل. وقد ألف الزمخشري معجمه و أساس البلاغة ، على هذا النسق . وفكتاب الجيم ، و أساس البلاغة ، متفقان من هذا الجانب .

ولكن معاجم الترتيب الهجائي التي ألفت في القرن الرابع الهجري احتفظت بفكرة الترتيب الداخلي وفق الأبنية . والمعاجم المقصودة هي : (جمهرة اللغة) لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) و (معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) وه المجمل ، لابن فارس أيضا . تتفق هذه المعاجم في اتخاذها للترتيب الهجائي أساس الترتيب العام للجذور ، ثم في مراعاتها للأبنية باعتبارها أساس الترتيب الداخلي . ولكن ثمة خلافا بين هذه المعاجم ..

فجمهرة اللغة لابن دريد وهو أقربها زمنا إلى عصر الخليل بن أحمد احتفظ بنظام ذكر الكلمة ومقلوباتها في أقرب موضع ممكن . أي أن ابن دريد أفاد من الخليل من عدة جوانب ، ولكنه عدل ترتيب الحروف

أما و معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ، فقد رتب الجذور وفق نظام الدائرة ، فعندما تأتي الكلمات التي تبدأ بالباء تنتظم الجذور فيها على النحو التالي : ب ب ، ب ت ، ب ث ويكون آخر هذه الحروف ب أ . وعندما تأتي الكلمات التي تبدأ بالثاء تنتظم فيها الجذور على النحو التالي : ث ث ، ث ج ، ث ح .... ويكون آخر هذه الجذور ث أ ، ث ت . أي أن ابن فارس يبدأ من الحرف نفسه ، ثم يأتي الحرف مع الحرف الذي يليه في الترتيب الهجائي ، إلى أن . تنتهي حروف الترتيب الهجائي ، ثم تأتي الحروف الأخرى السابقة على ذلك الحرف في الترتيب الهجائي.

أما معاجم الترتيب الهجائي التي رتبت الجذور فيها وفق الحرف الأخير فقد بدأت بديوان الأدب للفارابي (ت ٥٣٥٠) و «الصحاح للجوهري (ت ٣٩٣هـ). أقام الفارابي معجمه على أساس تقسيم الكلمات العربية وفق أبنيتها ، ويقوم الترتيب الداخلي في كل قسم من أقسام ديوان الأدب على أساس الترتيب الهجائي . أي أن ديوان الأدب معجم للأبنية مرتب داخليا على أساس الترتيب الهجائي للحروف.[10] أما الصحاح للجوهري فهو معجم عام اتبع نظام الباب والفصل ، والمقصود بهذا أن الكلمات ترتب بمراعاة حروفها الأصول وفق الحرف الاخير. ثم ترتب الجذور المتفقة في الحرف الأخير وفق الحرف الأول. وقد ظل هذا النظام سائدا في المعاجم العربية التي ألفت في القرون التالية ، وأهمها هـ العباب . للصاغاني (ت ٥٧٧ هـ) و (لسان العرب ، لابن منظور (ت (٥٧١١) و القاموس المحيط . للفيروزآبادي (ت) (٨١٧ هـ و و تاج العروس ، للزبيدي ت ١٢٠٥ هـ) . والمعاجم الثلاثة الأخيرة هي أكثر المعاجم العربية شهرة ارنا بالنشاء الله بأما رسيلة وانتشارا .

4- المعاجم الموسوعية العامة ومصادرها:

يعدولسان العرب ، الابن منظور (ت) ٧١١ هـ) أول معجم موضوعي ضخم . كان مؤلفو المعاجم قبل ولسان العرب ، يتزعون إلى الاختيار والانتقاء من المادة اللغوية المتاحة لهم في مصادرهم . ومن ثم سميت المعاجم بأسماء تعبر عن هذا الاتجاه الانتقائي، وعبر مؤلفو و جمهرة اللغة ، و و تهذيب اللغة . و ، صحاح اللغة ، في مقدمات معاجهم عن هذا . أما ابن منظور فقد أراد تأليف معجم موسوعي كبير ولكنه لم يلجأ إلى جمع المادة جمعاً مباشرا كما فعل اللغويون في القرن الثاني وكما فعل الأزهري في القرن الرابع ، بل اعتمد على خمسة معاجم اعتمادا كاملا ، فأخذ مادتها وحشدها في كتابه . يقول ابن منظور : ، وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى ، فأقول شافهت أو سمعت أو فعلت أو صنعت أو شددت

[10]- ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب ، القاهرة 1971 ، ص191 وما من بعدها .

أورحلت أونقلت عن العرب العرباء أو حملت ..... فكل هذه الدعاوى لم يترك الأزهري وابن سيده لقائل مقالا ولم يخليا فيه لأحد مجالا .[11] وقد صرح ! ابن منظور بعد ذلك بمصادره التي اعتمد عليها . وهي

1 - تهذيب اللغة للأزهري (380 ت هـ)

2 المحكم لابن سيده (357 ت هـ)

3 حواشي ابن بري (393 ت هـ)

-4الصحاح للجوهري (573ت هـ) على الصحاح

5- النهاية في غريب الحديث لابن الاثير الجزري (606 ت هـ)

أخذ ابن المنظور ما وجده في هذه المعاجم ونقله نقلا . فليس في هذا الكتاب فضل سوى فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ..... ونقل من كل أصل مضمونه . ولم يبدل منه شيئا .....وبذلك اعتمد ابن منظور على مصادر تعود بدورها الى المادة التي جمع أكثره في القرن الثاني الهجري بالإضافة الى نقله المادة الموجودة في معجم متخصص هو النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

ولكن ضخامة حجم السان العرب أتاح اللقاموس المحيط. للفيروزأبادي (ت ٨١٦ هـ) أن ينتشر ويصبح عنوانه بعد ذلك علما على كل معجم عربي حديث.

وتقابل كلمة قاموس التي فسرها الفيروزابادي بأنها البحر الاعظم الى الكلمة اليونانية Oceanos واللاتينية Oceanus وتعني المحيط . وكان الفيروزابادي قد عرف كلمة القاموس بهذا المعنى في البيئة اللغوية الفارسية التي نشأ فيها . اعتمد الفيروزابادي على معجمين موسوعيين هما المحكم لابن سيده . والعباب للصاغاني . ويعتمد كل منهما على معاجم أخرى سبقتهما . فالمحكم يضم ما جاء في كتاب العين وجمهرة اللغة والبارع . أما العباب فيضم مادة معجم مقاييس اللغة والصحاح والمعاجم المؤلفة حول الصحاح . وبذلك يقوم عمل الفيروزابادي على كل هذه الجهود . ولكنه لم ينسخ ما أخذه من مصادره ، بل كان يأخذ خلاصة ما فيها . ويحذف الشواهد . ويضيف إلى هذه المادة معلومات جديدة خاصة بالأعلام وبالنباتات . وبذلك ضم القاموس المحيط مادة لغوية متنوعة . قد شرحت شرحا بسيطا . محذوف الشواهد مطروح الزوائد. .

وبعد تاج العروس للزبيدي (ت (١٢٠٥هـ) أكبر المعاجم العربية على الاطلاق . لقد ألف الزبيدي تاج العروس شرحا للقاموس المحيط . ولكن عمله تجاوز حدود الشرح اللغوي البسيط . فأصبح تاج العروس أضخم المعاجم العربية وأكثرها مادة وشرحا . اعتمد الزبيدي على المعاجم العربية الكثيرة التي اتيحت له منها الصحاح للجوهري وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده ولسان العرب لابن منظور وأساس البلاغة للزمخشري والمجمل لابن فارس

والمعاجم الكثيرة التي ألفت إكمالا لهذه ! تلخيصا لها . المعاجم أو:

---

[11] ابن منظور . لسان العرب ،المقدمة 3/1 .

ولكن الزبيدي لم يكتف بهذه المعاجم - كما فعل كثير ممن سبقوه في التأليف المعجمي - بل اعتمد على المعاجم القرآنية والحديثية ، والكتب اللغوية ، وكتب الطبقات ، وشروح اللغويين على النصوص الأدبية . اعتمد الزبيدي على مجموعة من معاجم ألفاظ القرآن والحديث مثل : كتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي ، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري ، والمفردات للراغب الأصفهاني ، ومشكل القرآن لابن قتيبة ، إلى جانب كتب القراءات ، مثل : الحجة في قراءات الأئمة السبعة لابن خالويه . واعتمد الزبيدي على مجموعة كبيرة من كتب الدراسات اللغوية والتثقيف اللغوي ، مثل : فصيح ثعلب : وإصلاح المنطق لابن السكيت، والخصائص لابن جني ، وسر صناعة الإعراب لابن جني ، والمقصور والممدود للقالي ، والأضداد لأبي الطيب اللغوي ، وتهذيب الأبنية والأفعال لابن القطاع. واعتمد الزبيدي أيضاً على كتب كثيرة في الطبقات والأعلام والتراجم ، مثل : جمهرة الأنساب لابن حزم ، وطبقات الشافعية للسبكي ، والوافي بالوفيات للصفدي الخ ..... واعتمد الزبيدي أيضا على شروح الدواوين والمجموعات الشعرية مثل شرح ديوان الهذليين للسكري وشرح المعلقات السبع لابن الأنباري الخ

ولكن الزبيدي أخذ ما أخذه من هذه المصادر المتنوعة دون تعديل أو تعليق أو اضافة .. وكان شرحه لما جاء في القاموس المحيط نقولاً من هذه - المصادر التي اعتمد عليها . وفي هذا يقول الزبيدي ، عن كل كتاب نقلت ضمونه ، فلم أبدل شيئاً . فيقال فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، بل أديت الأمانة في شرح العبارة بالنص ، وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص . . وإذا كان الزبيدي قد شرح القاموس بالنقل من الكتب فإن مقدمته أيضاً تكاد في بعض فقراتها أن تكون منقولة من مقدمة لسان العرب.

الجديد عند الزبيدي أنه عاد إلى الكتب المبكرة وأخذ عنها أخذاً مباشراً في عصر عزت فيه معرفة التراث العربي القديم . كان معاصرو الزبيدي ومن سبقوه بقرون يعتمدون على الكتب التي نقلت بدورها ما جاء في التراث الأقدم . ولكن الزبيدي عاد إلى هذه الكتب الأقدم ، ونقل بالمباشرة لا بالوسائط عنها . ولذا يعد معجم تاج العروس جامعاً لجهد مؤلفي المعاجم واللغويين والشراح في أكبر موسوعة معجمية باللغة العربية.

هـ - المعاجم الدلالية الخاصة ذات الترتيب الهجائي:

هناك عدد كبير من الكتب رتبت فيها الألفاظ وفق الحروف الأصول . أو حروف الكلمة كاملة ، أو وفق الموضوعات ، أو وفق الأبنية . وقد تناولت المعاجم الدلالية الخاصة مستوى بعينه من مستويات اللغة ، فهناك معاجم لألفاظ القرآن الكريم ، ومعاجم لألفاظ الحديث ، ومعاجم المصطلحات العلمية العربية ، وإلى جانب هذا فهناك معاجم بحثت الألفاظ الدخيلة في العربية من الناحيتين الاستقاقية والدلالية . وهذه المعاجم الدلالية الخاصة تختلف عن المعاجم العامة السابقة في أنها لم تهدف إلى ألفاظ اللغة عموماً أو إلى جمهرة هذه الألفاظ . بل كانت تتناول مجموعة محدودة من الألفاظ وتبحثها من النواحي الدلالية وتصنفها هجائياً.

ومن أهم المعاجم الدلالية المؤلفة لألفاظ القرآن الكريم : و المفردات في غريب القرآن .للراغب الأصفهـــــــاني (ت ٥٠٢ هـ) . يختلف كتاب المفردات عن الجهود السابقة عليه في نفس الموضوع من ناحية الترتيب ، فكتاب و مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ أو ٢١٣ هـ) يضم بعد مقدمة عامة عن قضايا المجاز تفسيراً للألفاظ القرآنية من الجوانب الدلالية والصرفية مستشهداً على ذلك بشواهد من الشعر والأحاديث والأمثال . ولكن مجاز القرآن لم يرتب موضوعاته أو ألفاظه ترتيباً معجمياً ، بل جاء بها وفق السور ، وشرح أبو عبيدة في إطار كل سورة ما

ورد بها من قضايا . وقد ظل هذا النهج سائداً عند كثير من المؤلفين الذين بحثوا القضايا الدلالية لألفاظ القرآن الكريم في إطار تفسيرهم للسور، ولذا لا يعتبر جهدهم معجمياً. نجد هذا أيضاً في كتاب: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) . لقد ذكر ابن قتيبة في أول كتابه أسماء الله الحسنى ثم الألفاظ الشائعة في القرآن الكريم وأخذ يشرح بعد ذلك الكلمات الغريبة مرتبة وفق السور. كان يذكر الآية القرآنية ويشرح ما بها من غريب شرحاً مختصراً دون إفاضة في تفصيلات صرفية أو نحوية أو دلالية . لا يعد مجاز القرآن لأبي عبيدة ولا تفسير غريب القرآن لابن قتيبة من معاجم مفردات القرآن الكريم. فإنهما وإن تضمنا قضايا دلالية كثيرة. إلا أن الكتابين لم يتخذا منهجاً معجمياً في ترتيب الألفاظ التي شرحت فيهما . وبذلك يختلف هذان الكتابان وغيرهما من الكتب عن كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني. وقد رتب الراغب الاصفهاني مفردات القرآن باعتبار حروفها الأصول ترتيباً هجائياً. واتبع بذلك ما جرت عليه المعاجم العربية العامة من ترتيب الكلمات وفق حروفها الأصول .

ويعد كتاب : والنهاية في غريب الحديث ، لأبن الأثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ) ثمرة كتب كثيرة تناولت موضوع غريب الحديث . وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الجهود في مقدمة كتابه . ويرجع الاهتمام بألفاظ الحديث إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة . ولكن هؤلاء لم يرتبوا الألفاظ التي شرحوها ترتيباً معجمياً . بل كانت تشرح وفق الأحاديث. وقد اعتمد ابن الأثير الجزري في معجمه هـ النهاية في غريب الحديث ، على معجمين ألفا هذا الموضوع . ففي القرن الرابع الهجري ألف أبو عبيد الهروي أول معجم الألفاظ الحديث . ثم ألف أبو موسى الأصفهاني معجماً مكملاً لمعجم الهروي . وقام ابن الأثير الجزري بالجمع بين معجمي الهروي والاصفهاني في معجم واحد خاص بألفاظ الحديث وحدها ، وقد رتب ابن الأثير معجمه مثل ترتيب الهروي والأصفهاني ت وفق الحروف الأوائل . ولكن منهج ابن الأثير اختلف عن معجمي الهروي والأصفهاني والمعاجم العربية العامة من ناحية أساسية . فقد وجد أنه من الصعب الالتزام بفكرة ترتيب الكلمات وفق حروفها الأصول وعدم مراعاة باي حروف الكلمة . وإذا كانت المعاجم العربية من كتاب العين إلى تاج العروس قد رتبت الكلمات وفق حروفها الأصول فقط . فإن ابن الأثير كان قد وجد في هذا صعوبة عملية . فرتب الكلمات بمراعاة كل حروفها دون تمييز بين الأصول والزوائد . وفي هذا يقول ابن الأثير: « وجدت في الحديث كلمات كثيرة في أوائلها حروف زائدة . قد بنيت الكلمة عليها حتى صارت كأنها فرأيت أن أثبتها في باب الحرف الذي هو في أولها وإن لم من نفسها يكن أصلياً . ونبهت عند ذكره على زيادته لئلا يراها أحد في غير بابها فيظن أني وضعتها فيه للجهل[12]. ومن هذا الجانب أيضاً يختلف كتاب النهاية في غريب الحديث عن المعاجم العربية العامة .

وأهم المعاجم العربية الخاصة بالألفاظ الدخيلة هو كتاب و المعرب من الكلام الأعجمي و للجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) . وقد حدد الجواليقي موضوع كتابه بالبحث في الألفاظ الدخيلة من اللغات الأجنبية المختلفة. والتي استخدمت في القرآن المجيد وأخبار الرسول والصحابة وفي أشعار العرب وأخبارها . وقد أثبت الجواليقي أن هذه الألفاظ الدخيلة من لغات مختلفة. مثل : الفارسية . والآرامية التي تسمى عنده بالنبطية. ولذا لم يكن ترتيب هذه الألفاظ باعتبار حروفها الأصول أمراً مقبولاً. فإجراء الألفاظ غير العربية وغير السامية على النمط الصرفي للغة العربية نوع من

[12] أبو الحسن الجزري ،النهاية في غريب الحديث 11/1 .

التعسف غير المقبول علمياً . ولذا رتب الجواليقي الألفاظ التي ناقشها في كتابه من الجانبين الدلالي والاشتقاقي ترتيباً معجمياً يراعي كل حروف الكلمة، وبذلك خرج الجواليقي على المبدأ السائد في المعاجم العربية العامة..

وهناك عدد من المعاجم الخاصة بالمصطلحات العلمية، منها التعريفات العلي بن محمد الجرجاني (ت (٨٨١٦) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (المؤلف ١١٥٨ هـ) . ويعد كتاب التهانوي أكبر معجم عربي للمصطلحات العلمية، والتهانوي مؤلف هندي وجد المصطلحات المتداولة في التراث العربي في العلوم المختلفة بحاجة إلى معجم دلالي يوضح معانيها. فإذا كانت المعاجم العربية العامة قد اعتمدت على حركة جمع اللغة والشعر القديم في القرن الثاني الهجري، فإن المصطلحات العلمية لم تنشأ في البادية عند القبائل التي اعتمد عليها اللغويون. لقد كثرت المصطلحات العلمية العربية مع تنوع جوانب المعرفة العربية واتساع الأفق العلمي في القرن الثالث والقرون التالية. ولذا كانت المصطلحات خارج إطار اهتمام المعاجم العربية العامة، وليس مصادفة أن يكون الاهتمام بهذه المصطلحات واضحاً عند عدد من العلماء غير العرب فهؤلاء وجدوا صعوبة في فهم هذه المصطلحات. فأثارت اهتمامهم. وكانت ثمرة هذا الاهتمام معجماً كبيراً. مثل: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي . وفي هذا يقول التهانوي : ، ولم أجد كتاباً حاوياً لاصطلاحات جميع العلوم المتداولة بين الناس وغيرها ، وقد كان يختلج في صدري أوان التحصيل أن ن أؤلف كتاباً وافياً لاصطلاحات جميع العلوم ، كافياً للمتعلم من الرجوع إلى الأساتذة العالمين بها : 155) [13]

قدم التهانوي لكتابه بعرض عام حول العلوم وتصنيفها، أما المصطلحات العلمية فقد جاءت عنده مرتبة ترتيباً معجمياً وفق الحرف الأول من حروفها الأصول . وبهذا نهج التهانوي نهج بعض المعاجم العربية مثل أساس البلاغة للزمخشري.

1 - معاجم الموضوعات :

توجد عدة أنواع من المعاجم الموضوعية في التراث العربي، فهناك معاجم اهتمت بالألفاظ الغريبة، -مثل: الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) . وهناك مجموعة كبيرة من الكتب التعليمية التي كانت تهدف إلى تقريب الألفاظ لمن أراد حصيلة لغوية تعينه على الكتابة العربية الفصيحة، وتصنف هذه الكتب ألفاظها في موضوعات وتذكر الألفاظ الخاصة بكل موضوع بغض النظر عن حروفها الأصول أو الزوائد. وأهم هذه الكتب التعليمية الدلالية ذات التصنيف الموضوعي: كتاب الألفاظ، لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) وكتاب : جواهر الألفاظ و القدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) و (متخير الألفاظ ، الأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) و (الألفاظ الكتابية و لعبد الرحمن الهمذاني (ت ٣٢٧ هـ) و « فقه اللغة : للثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) . وهذه الكتب التعليمية لا تهم بالألفاظ الغريبة بل تهتم بالألفاظ التي ارتضتها الدوائر الثقافية التي كانت تنفر من التقعر كما تنفر من العامية

ولكن أكبر معجم موضوعي باللغة العربية هو ، المخصص ، لابن سيده(ت ٤٥٨ هـ) . تناول ابن سيده - بعد مقدمة عامة في قضايا اللغة - المفردات العربية وصنفها تصنيفاً موضوعياً . فعندما ذكر الألفاظ الخاصة بخلق الانسان أورد ما يتعلق بجسم الانسان وحياته الاجتماعية ، ثم جاءت بعد ذلك الأقسام الخاصة بالأبنية والسلاح والخيل والابل

[13] التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون 1/1

والغنم .... الخ والأنواء ... والماء ... والمشاورة ... والاستبداد .... والغناء والرقص واللعب .... الخ وأفرد ابن سيده قسماً كبيراً في آخر كتابه لمجموعة من القضايا الصرفية شغلت السدس الأخير من كتاب المخصص.

-كتب الأبنية الصرفية:

هناك مجموعات من الكتب في موضوعات صرفية تناولت الكلمات في إطار الوزن الصرفي أو الظاهرة الصرفية. وأهم هذه الكتب مجموعة من الكتب الخاصة بأبنية الأفعال، ومجموعة أخرى خاصة بالمقصور والممدود ، ومجموعة ثالثة خاصة بالمذكر والمؤنث

تناولت كتب الأفعال موضوعاً خاصاً بصيغتي فعل وأفعل. وألف عدد من اللغويين كتبا بعنوان و فعلت وأفعلت ، ، وأهم هؤلاء أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) والزجاج (ت ٣١١ هـ) ، وضمت مجموعة أخرى – من كتب الأبنية - الأفعال في اللغة العربية ، وقد رتبت بمراعاة بنيتها وحروفها الأصول ومن هذه الكتب : كتاب الأفعال ، لابن القوطية (ت ٣٦٧ ٥) وكتاب الأفعال ، ناسر قسطي (ت بعد ٤٠٠ هـ) و«كتاب الأفعال ، لابن القطاع (ت ٥١٥ هـ).

واهتمت الكتب الخاصة بأبنية الأسماء بموضوع المقصور والممدود، ويبدو أن الفراء (ت ٢٠٧ هـ) كان أول من ألف في هذا الموضوع. وفي القرن الرابع الهجري ألف كتابان هامان في هذا الموضوع هما : كتاب القالي (ت ٣٥٦ هـ) وابن ولاد (ت ٣٣٢ هـ)

وهناك مجموعة أخرى من كتب الأبنية الخاصة بالأسماء تناولت موضوع التذكير والتأنيث ، وأهم من ألف كتباً بعنوان المذكر والمؤنث : الفراء (ت ٢٠٧ هـ) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥) - والمفضل بن سلمـــــــة (ت بعد ٢٩٠ هـ) والأنباري (ت ٣٢٨ هـ) والتستري ت بعد ٣٦٠ هـ) وابن جي (ت ٣٩٢ هـ) و ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) . وابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ.)

وقد خصصت كتب التثقيف اللغوي ولحن العامة فصولاً للأبنية الصرفية للأفعال والأسماء ، واهتمت ببيان الأبنية في الفصحى ومدى اختلاف اللهجات العربية عن الفصحى من هذا الجانب.

-كتب التثقيف اللغوي ولحن العامة:

بدأ الاهتمام بتأليف الكتب اللغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عن التأثيرات العامية في الاستخدام اللغوي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . كان اللغويون قد اعتبروا اللهجات صوراً فاسدة من الاستخدام اللغوي ، فسجلوا بعض ظواهر اللهجات لبيان خطئها وأشاروا إلى ما ينبغي أن يقال بدلا منها في الفصحى . ولكن البحث اللغوي الحديث يتناول تراث لحن العامة والتثقيف اللغوي باعتباره من مصادر التاريخ اللغوي.

وهناك مجموعة من الكتب التي ألفت في العراق من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجري وتدخل في هذا الإطار. وأهم هذه الكتب : ما تلحن فيه العامة للكسائي (ت ١٨٩ هـ) . وإصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) . وأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، ودرة الغواص للحريري (ت ٨٥١٦) والتكملة للجواليقي (ت ٥٣٩ هـ) ، وتقويم اللسان لابن الجوزي (ت ٥٧٩ هـ) . ويرجع قسم كبير من المادة المسجلة في كل كتاب من هذه الكتب إلى مؤلف كل كتاب منها ، ولذا يمكن التعرف منها على جوانب الاستخدام اللغوي في جنوب العراق من القرن الثاني حتى القرن السادس الهجري

وقد وصلت إلينا من المغرب والأندلس وصقلية مجموعة كتب في لحن العامة والتثقيف اللغوي . وأقدم هـذه الكتب ولحن العوام ، لأبي بكر الزبيدي (ت (٣٧٩ (هـ) وهو كتاب أندلسي ، ولكن أكبر هذه الكتب هو كتاب و تثقيف اللسان ، لابن مكي الصقلي (ت ٥٠١ هـ) الذي يصور لهجة صقلية العربية آنذاك . وقد وصل من تونس كتاب بعنوان : الجمانة في إزالة الرطانة و منسوباً لابن الامام (ت بعد (٨٢٧ هـ).

وأما مصروالشام فلا نعرف عنهما كتباً في لحن العامة والتثقيف اللغوي إلا من القرنين التاسع والعاشر للهجرة . فكتب ابن الحنبلي (ت ٩٧١ هـ) قد تكون المصدر الوحيد للتعرف على لهجة الشام في العصر الإسلامي وما تزال أكثر هذه الكتب مخطوطة . والأثر المصري الوحيد الذي وصل إلينا في لحن العامة هو كتاب دفع الأصر عن كلام أهل مصر اليوسف المغربي (ت ١٠١٩ هـ) . وقد حاول ابن الحنبلي والمغربي أن يبحثا جوانب من لهجة الشام ومصر بهدف إثبات عروبتها والدفاع عنها، وبذلك تختلف هذه الكتب عن مجموعة كتب لحن العامة المؤلفة في العراق والأندلس [14]

-كتب الموضوعات الصوتية:

اهم اللغويون العرب بتأليف الكتب والرسائل في القلب والإبدال من جانب، وفي الضاد والظاء من الجانب الآخر. ويرجع التركيز على كلا الموضوعين إلى كون اللهجات العربية كانت تمد اللغويين بمادة ثرية فيهما.

فهناك عدة مئات من الكلمات العربية ، عرفت اللهجات العربية القديمة كل كلمة منها في عدة صيغ ، كل صيغة منها في صوت بعينه ، وذلك مثل : هتن / هتل . وقد ألفت عدة كتب تتناول هذه الصيغ ، وأهم هذه الكتب : القلب والإبدال لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) . والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي (ت (٣٣٧) . كتـــاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١)

وقد أدى الخلط بين الضاد والظاء في اللهجات العربية الوسيطة إلى اهتمام كثير من اللغويين بتأليف رسائل لغوية تضم الألفاظ التي يرد فيها أحد الصوتين. ومن أهم من ألف في الفرق بين الضاد والظاء : أبو عمر الزاهد (ت ٥٣٤٥) . والصاحب بن عباد (ت (٣٨٥) . أبو الحسن الصقلي (ق 5 هـ) . وأبو القـــاسم الزنجاني (ق 5 هـ) . والحريـــري (ت ٥١٦ هـ) وغيرهم[15].

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب و اللغات

ثالثا: الشخصيات المعجمية

رواد مدرسة التقليبات الصوتية

تضم هذه المدرسة رواد المعاجم العربية بصفة عامة ، وهم : الخليل بن أحمد ، وابن دريد ، والأزهري ، وأبو على القالى ، والصاحب بن عباد وابن سيده الأندلسي. وسوف نتحدث عن كل واحد من هؤلاء الستة ونقسم الحديث إلى قسمين : قسم ينصب على العالم نفسه وإلقاء الضوء على شخصيته ، وقسم ينصب على معجمه الذي وضعه ، ومنهجه ، ومميزاته ،وعيوبه..... الخ

---

[14] محمود فهمي حجازي ' علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية , دار الثقافة للنشر وللتوزيع ' الفجالة . 1991 , ص116.

[15] المرجع السابق ص 117.

هو أبو عبد الرحمن ، الخليل أحمد الفراهيدي الأزدي ، اليحمدي بن ولد سنة ١٠٠ هـ ، وتوفى سنة ١٧٥ هـ تقريباً[16].ولد بمدينة عمان على شاطئ الخليج الفارسي ، وانحدر من أصل عربي صرف ، إذ ينتسب إلى بطن فرهود من قبيلة الأزد ، ولكن نشأته بالبصرة غلاماً ، وتلقيه العلم بها تلميذاً ، ورياسته لمدرستها شيخاً جعلته يشتهر بلقب الخليل بن أحمد البصرى.وهو أستاذ كثير من أئمة اللغة والنحو ، وهو أعظمهم جميعاً ، ومن تلامذته : سيبويه ، والأصمعي ، والنضر بن شميل ، والليث بن المظفر ، ومؤرج السدوسي ، وأبو الحسن الأخفش.ولقد كان الخليل بن أحمد أعجوبة عصره ذكاء وفطنة ، وعقلية ناضجة وعبقرية فذة ، ونظرة علمية ثاقبة ، وكفاه فخراً أنه وضع أسس ثلاثة علوم من علوم العربية ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد قط ، وضع أسس علم النحو وجعله علماً قائماً على أصول وقواعد ، ولولاه لمضى زمن طويل حتى يصل العلماء إلى قواعد علم النحو وأصوله ، إلا أن الخليل استوفى النظر فيه والبحث ، ثم وهب كل ما لديه من هذا العلم لتلميذه النجيب سيبويه الذي أضاف إليه ما لديه وأخرج للناس كتاباً وضح فيه السبيل ، وقدم لهم «النحو» علماً ثابت الأساس ، وفتح للعلماء باب التأليف فيه ، وأصبحت له مدارسه لمعروفة فصار فيه مصنفات وعلماء ومدارس.

والعلم الثاني الذي وضع أساسه الخليل دون منازع، بل واكتمل بناؤه على يديه هو علم العروض ، الذى ابتدعه دون سابق مثال ، ويروى المؤرخون في سبب ابتكاره لهذا العلم رواية طريفة ، وهى أنه مريوماً بحداد ، فاستهواه دق المطرقة المنتظم ، فلما حاول أن يربط بين هذه النغمات الرتيبة وبين الأوزان في الشعر العربي تم له ذلك باختراع علم العروض

والعلم الثالث الذى وضع أساسه الخليل وظهر في صورته المكتملة هو المعجم العربي ، فالخليل هو صاحب أول معجم عرفته العربية ، جمع فيه ألفاظ اللغة وشرح معانيها ورتبها ترتيباً علمياً ، بل حاول حصر ألفاظ اللغة حصراً علمياً دقيقاً.

ولم يترك الخليل بن أحمد علماً أو فناً إلا برز فيه ، فقد ألم بكل معارف البشر في عصره فهو المحدث ، والقارئ ، والنحوى ، واللغوى و العروضي، والرياضي ، والموسيقى ، والفلكي ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه كان أشبه بالموسوعة العلمية أوبدائرة المعارف في عصره .

وللأسف الشديد لم يصل إلينا من مؤلفات الخليل سوى معجم العين ، وهي : وهناك ستة كتب له وردت أسماؤها متناثرة فى كتب الطبقات ، وقد جمعتها دائرة المعارف الإسلامية ، وهي :

- -النقط والشكل
- النَّغَم
- العروض .
- الشواهد

[16]ينظر ترجمته في : أخبار النحويين البصريين للسيرافي ، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، طبقات اللغويين والنحويين لأبي بكر الزبيدى ، إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطى ، بغية الوعاة للسيوطى نقلا عن - رجب عبد الجواد إبراهيم دراسات في الدلالة و المعجم مكتبة الآداب، القاهرة ص 159 ، ط1 ، 2001.

- الجُمَل .
- الإيقاع

هذا . وقد أثنى على الخليل عدد من علماء عصره . فهذا ابن المقفع يقول: «لقد لقيت فيه رجلاً عقله أكبر من علمه» . وهذا خلف يخبرنا أنه قد اجتمع في البصرة في وقت واحد عشرة من أكابر العلماء في مختلف الفنون. أولهم الخليل بن أحمد اللغوى وثانيهم بشار بن برد الشاعر. ومدحه حمزة بن حسن الأصبهاني بقوله : إنه لم يكن للمسلمين أذكى عقلاً من الخليل.

وكما كان الخليل بن أحمد إماماً مبتكراً في اللغة والنحو والعروض كان مثلاً رفيعاً في الخلائق الإنسانية الفاضلة والزهد والورع والتقوى . وكان سمحاً كريماً . سخياً بعلمه . جواداً بمعارفه المبتكرة . يهب لتلامذته علمه بعد أن يضع لهم القواعد والأصول وقد أكلت الدنيا بعلمه وكتبه وهو في خُص لا يُشعر به - كما يقول تلميذه النضر بن شميل – لا يجد إلا أقل من الكفاف لا يسأل أحداً شيئاً وخير شاهد على ذلك أن سليمان بن على الأهوازي والى الأهواز وجه إليه مالا جزيلاً ورجاه أن يفضل عليه بقبوله والتوجه إليه لتأديب أولاده. فاعتذر لرسوله وأراه أشا : أى خبزا جافا . وقال له ما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان . ثم حمله رسالة ضمنها هذه الأبيات :

أبلغ سليمان أنى عنه في سَعَة ... وفى غنى غير أني لستُ ذا مال

شحا بنفسي أني لا أرى أحـداً ... يموتُ هَزْلا ولا يبقى على حـال

الرِّزْقُ عن قدر لا الضعفُ يُنقصه ... ولا يزيدك فيه حَولَ مُحتال

والفقر في النَّفْسِ لا في المالِ تعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النَّفْسِ لا المالِ

ولقد كان هذا العالم ذا ذهن رياضى مبتكر أعماله في جميع فروع العلم التي اشتغل بها حتى كان سبباً في وفاته . فيقال إنه فكر في ابتكار نظام حسابى خاص ييسر الجاريته معاملة البائع حتى لا يخدعها . وظل هذا التفكير مسيطراً عليه حتى إنه دخل المسجد وهو يفكر في هذا النظام الحسابي . ومن فرط اهتمامه لم ير أمامه فضرب رأسه في سارية من سوارى المسجد (أحد أعمدة المسجد) ضربة قضت على حياته . وهكذا طويت حياة عالم جليل أسدى إلى العربية أيادى لا تُنسى .

قسم اللغة العربية وآدابها

معجم العين .

اتبع الخليل بن أحمد في ترتيب معجمه منهجاً قائماً على مخارج الأصوات حيث رتبها من أقصى الحلق الى أدنى الشفتين وصنفها وفق التقارب مفارقها الى مجمع الاحياز. فهي كالآتي :

ولسنا مع أولئك الذين قالوا إن هذا الترتيب الصوتى لم يبتكره الخليل كم الأمي وإنما هو ترتيب اللغة السنسكريتية . وهى لغة الهند القديمة . أخذه الخليل عن هذه اللغة . واستدلوا على ذلك بوجود صلات تجارية بين الهند وجزيرة العرب قبل الإسلام . وقويت هذه الصلات بعد الإسلام وكان كاتبو السفن والمحاسبون لتجار العراق في البصرة وبغداد من السند وفيهم علماء ومثقفون. وكانوا على صلة بأهل العلم من العرب. ونرد على أولئك القائلين بأن وجود طريقة

لمؤلف في لغة من اللغات لا يمنع أن يصل مؤلف آخر إليها باجتهاده وجهده وخاصة إذا علمنا أن الأبنية من مضعف الثلاثي ومضعف الرباعي من الأمور التي تمتاز بها اللغات السامية عن اللغات الهندو أوربية ، وكذلك الأمر في «التقاليب» لم نجد من ينص على أنها استخدمت في معاجم الهنود .كما أن أحداً لم يقل إن الخليل كان يعرف اللغة السنسكريتية حتى يتسنى لنا القول إنه أخذ ترتيب معاجم هذه اللغة ، كما أننا لا ينبغي أن نتجاهل البون الشاسع في ترتيب حروف الهجاء بين العربية والسنسكريتية فضلاً عن اختلاف النطق بالحروف بين اللغتين.

وإنما الذى يمكن أن نقوله إن الخليل ابتكر هذا الترتيب ابتكاراً ساعده عليه علمه الواسع بالموسيقى ، فهى تقوم على أساس الصوت ، وعلى ما يشبه السلم الموسيقى ، فهو اعتمد على مخارج الحروف عندما ينطق بها ونظر إلى الأوتار الصوتية والأصوات اللغوية ، فصنع سلمه صاعداً عليه من أسفل حتى ينتهي إلى أعلاه ، مبتدئاً بأقصى الحلق متدرجاً في الصعود حتى يصل إلى الشفة

وكان يمكن للخليل أن يعدل عن هذه الطريقة إلى طريقة أخرى ، وإنما هو اختارها بمحض إرادته لأنها توافق علمه بالموسيقى والنغم . قسم الخليل بن أحمد معجمه إلى ستة وعشرين كتاباً ، عقد لكل حرف من الحروف المعجم كتاباً، ثم عقد الحروف العلة الثلاثة والهمزة كتاباً وجاء ترتيبه للحروف كالتالي : ع. ح. هـ. خ. غ. / ق . ك / ج . ش . ض / ص. س. ز ا ط. د. ت ظ ذ ث ر. ل . ن ف ب . م و. ا. ى . همزة.

الأصوات الخلقية .	ع. ح. هـ. خ. غ.	(لأن مبدأها من الخلق)
الأصوات اللهوية	ق . ك .	(لأن مبدأها من اللهاة)
الأصوات الشجرية	ج. ش. ض	لأن مبدأها من شجر الفم
الأصوات الأسلية	ص . س . ز	لأن مبدأها من أسلة اللسان)
الأصوات النطعية	ط. د.ت .	لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى
الأصوات اللثوية	ث. ذ. ظ	لأن مبدأها من اللثة
الأصوات الذلقية	ر. ل. ن	لأن مبدأها من ذلق اللسان
الأصوات الشفوية	ف. ب. م.	لأن مبدأها من الشفة
حروف العلة	و.ا .ى + همزة	(هوائية)

قسم اللغة العربية وآدابها

الواو صوت شفوي ، والياء صوت غاري ، والهمزة صوت حنجري ،وسمى الخليل هذه الأصوات الأربعة بالهوائية.

وقد نظم سلمة بن عبد الله المعافري هذا الترتيب الذي وضعه الخليل في أبيات ليسهل حفظها ، هي :

يا سائلى عن حروف العين دونكَها ... في رتبة ضمها وزن وإحصاء

العين والحاء ، ثم الهاء والخاء ... والغين والقاف ثم الكاف أكفاء

والجيم والشين ثم الضاد يتبعها ... صاد وسين وزاى بعدها طاء

والدال والتاء ثم الظاء متصل ... بالظاء ذال وثاء بعدها راء

واللام والنون ثم الفاء والياء   والميم والواو والمهمور والياء

وقد اختار الخليل حرف العين صدراً لترتيبه الصوتي مع أنه يتلو حرفي الهمزة والهاء في ترتيب المخارج ، فهما : أي الهمزة الهاء حرفان حنجريان .والعين حرف حلقى ، وبالتالي فهما أسبق من العين : لأن الخليل جعل ترتيبه.

من أسفل إلى أعلى والحنجرة أسبق من الحلق في هذا الترتيب . ويرجع السبب في ذلك إلى أن العين أكثر دوراناً في كلام العرب من الهمزة والهاء فهي تتميز بقوة الوضوح السمعي إذا ما قيست بهما ، فعلى حين تبلغ نسبة تردد العين في الكلمة العربية حوالى ٥,١٪ تبلغ نسبة الهاء نحو ٣,٣ ٪ والهمزة

وهناك سبب آخر ذكره ابن كيسان في قوله : سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنه لا تكون فى ابتداء كلمة ، ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة وخفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثاني ، وفيه العين والحاء فوجدت أن العين أنصع الحرفين، فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف

وعدة كتب معجم العين هي عدة الحروف السواكن يضاف إليها كتاب خاص بأحرف العلة والهمزة ، وأول كتاب فى المعجم هو كتاب العين ويشتمل على كل الكلمات التي تتألف من العين مع ما يليها ، يليه كتاب الحاء ويشتمل على كل الكلمات المستعملة التي تتألف من الحاء مع ما يليها ، وهكذا حتى ينتهى من الحروف الصحاح ، فإذا انتهى من الحروف الصحاح عقد كتاباً للأحرف المعتلة والهمزة ، وهو آخر كتاب في المعجم ، وآخر كلمة وردت فيه هي : آية وكل كتاب من الكتب مقسم إلى ستة أبواب هي :

1 - باب الثنائي ، نجد فيه الكلمات المكونة من حرفين مفردين مثل زحم أخ عم، فم ، أو الكلمات المكونة من حرفين الثاني فيهما مشدد ، نحو:

شام مرعز، أو الكلمات المكونة من حرفين مكررين ، نحو:عبعب ، زلزل . زقزق.

2- باب الثلاثي الصحيح ، ونجد فيه الكلمات الثلاثية الصحيحة : نحو علم، ضرب ، ضرب ... الخ .

- باب الثلاثي المعتل : ويضم الكلمات الثلاثية التى بها حرف علة واحد ،سواء أكان في أول الكلمة نحو : وعد ، أم في وسطها نحو : قال ، في آخرها نحو : سعى .

3-باب اللفيف : ويضم الكلمات الثلاثية التي بوا حرفان من حروف العلة ، وينقسم اللفيف إلى قسمين : لفيف مفروق : أي أن حرفي العلة فرقهما حرف صحيح : نحو: وعى ، وقَ ، وفى : فالعين ، والقاف والفاء فرقت بين حرفي العلة : الواو والألف : ولذا يسمى لفيفاً مفروقاً ، والقسم الثاني هو اللفيف المقرون ويكون فيه حرفا العلة متجاورين نحو حوى ، رَوَى ، عَوَى ، شَوَى هـ - باب الرباعي : ويضم الكلمات الرباعية : نحو: جعفر، ودحرج ، وقشعر، وطمأن ، ويخرج منها الكلمات الرباعية التي فيها حرفان مكرران نحو زلزل ، لأنها ذكرت في باب الثنائي .

- باب الخماسي : ويضم الكلمات المكونة من خمسة أحرف : نحو: جحمرش ، سفرجل ، فرزدق... الخ .

وهكذا نجد أن كل كتاب من الكتب الستة والعشرين التي تكون منها معجم العين مقسم إلى ستة أبواب على النحو السابق.

جامعة باجي مختار - عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب و اللغات

* وقد أراد الخليل أن : يحصر ألفاظ اللغة حصراً علمياً ، باستخدام نظام حسابى دقيق ، وذلك أنه وجد ألفاظ اللغة العربية باعتبار أصولها محصورة في أبنية أربعة : إما أن تكون من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ووجد أن كل بناء من هذه الأبنية الأربعة يمكن حصر ألفاظه عن طريق تقليب الكلمة على كل الأوجه الممكنة ، ويوضح لنا الخليل ذلك بقوله:" أعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو: قد ، دق ، شد ، دش ، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه ، وتسمى مسدوسة ، وهى نحو: ضرب ، ضبر، برض ،بضر، رضب ، ربض ، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجهاً ، يكتب مستعملها ويلغى مهملها وذلك نحو عبقر، تقول : عقرب ، عقبر، عبقر، عرقب ، عربق ، عبرق، قبعر، قعرب ، قبرع ، قرعب ، قربع ، رعقب ، رعبق ، رقعب ، رقبع ،ربقع ، ربعق ، بعقر، بعرق ، بقعر، برعق ، برقع ، قعبر، بقرع، والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجهاً ، وذلك أن حروفها وهى خمسة أحرف تضرب في وجوه الرباعي ، . أربعة وعشرون وجهاً فتصير مائة وعشرين وجهاً يستعمل أقله ويلغى أكثره "[17]

ثم حاول الخليل حصر الكلمات الثنائية فى اللغة العربية بشكل عام فضرب العدد ٢٨ وهو عدد حروف الهجاء فى العربية في العدد ٢٧ وهو عدد الحروف التي تتركب منها الكلمات الثنائية بعد سقوط الحرف نفسه في التركيب مع نفسه. فالهمزة - مثلاً - تأتى مع كل الحروف إلا مع نفسها ، وكذلك كل حرف لا يأتي مع نفسه في كلمة ثنائية ، ونتج من ضرب ٢٨ × ٢٧ العدد ٧٥٦ تركيباً ثنائياً في العربية وكان يمكن للخليل أن يضرب العدد ٢٨ × ٢٨ ولكنه أهمل التركيب الذى يضم حرفين متماثلين. أنه مع ورد في العربية : قق، صص، بب، وإنما اكتفى بالحرف المركب مع غيره : أب، أت، أث، أج، أح، أخ، أد ... الخ . ثم ينتقل إلى الباء : بأ ، بت ، بث ، بج ، بح ، بخ ... الخ. وليس كل هذا العدد مستعملاً ، بل فيه المهمل ، وقد أشار الخليل إلى المستعمل والمهمل من الثنائي والثلاثي، ولم يشر إلى ذلك في الرباعي والخماسي لكثرة المهمل وصعوبة حصره .

كما حاول الخليل حصر الكلمات الثلاثية في اللغة العربية حصراً شاملاً عن طريق ضرب العدد ٢٨ وهو عدد حروف الهجاء في العربية في الحرف الثاني في الكلمة فى ٢٧ حرفرفاً فقط ، لأن الموقع الثالث للحرف قد يكون ألف مد مبدلة عن الواووالياء ، لذا فإن عدد الجذور الثلاثية المسموح بها رياضياً هو٢٨ × ٢٨ ٢٧ = ٦٦١٤٦٥٦ تركيباً ثلاثياً في العربية ما بين مهمل ومستعمل أما الرباعي الممكن رياضياً فيكون حاصل ضرب ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ ٦٥٦,٦١٤ تركيباً رباعياً في اللغة العربية.

أما الخماسي فيكون نتيجة حاصل ضرب ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ = ١٧٢١٠٣٦٨ تركيباً خماسياً في اللغة العربية ما بين مستعمل ومهمل.

ومحاولة الخليل حصر اللغة محاولة جليلة مبتكرة ، إلا أنه لم يستوعب في معجمه اللغة ، ولكنه ذكر أن مجموع ما يمكن أن يستخرجه من الألفاظ العربية هو حوالى اثنى عشر مليوناً من الكلمات.

ولكن لم يتبعه أحد من تلامذته أو من اللغويين الذين جاءوا بعده ، ولم يقصدوا إلى ما قصد إليه : لأن استيعاب كل كلمات اللغة أمر مستحيل بل وفوق مقدور البشر، وكل ما يمكن الوصول إليه هو حصر اللغة حصراً عقلياً فقط وثمة فكرة هامة تنبه لها الخليل فى وضع معجمه وهى أنه ما من كلمة في العربية إلا ولها جذر، أي حروف أصلية تتولد عنها

---

[17]-الخليل بن أحمد الفراهيدي ، معجم العين ، تحقيق مهدى المخزومي وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد 59/1 1980.

، وبالاشتقاق يتم توليد الكلمات من الجذور ، وإذا كانت الكلمات الثنائية قليلة في العربية فإن الكلمةالثلاثية هي الغالبة ثم الرباعية ثم الخماسية ، ولذا افترض اللغويون القدامى الجذر الثلاثي لأصل اللغة ، وأكده البحث العلمى الحديث ، ففي دراسة إحصائية لمعجم «تاج العروس أسفرت عن أن فى العربية من الثلاثي ٧٥٩٧ ، ومن الرباعي ٤٠٨١ جذراً ، ومن الخماسي ٣٠٠ جذرا.

ولذا فقد نظم الخليل المفردات تبعاً لأصولها فقط بغض النظرعن الزوائد ، وقد ظلت فكرة الخليل هذه هي السائدة بين كل المعاجم العربية ، فلم يخرج معجم واحد منذ الخليل حتى الآن عن الأخذ بفكرة الجذر: اللهم إلا كتب المعرب والدخيل ، كالمعرب للجواليقي وشفاء الغليل للشهاب الخفاجي، لأن هذه الكتب تؤمن بأن الكلمة المعربة كل حروفها أصول ، ولا سبيل إلى الاشتقاق منها وكذلك كتب المصطلحات ككتاب «الفروق لأبي البقاء ، وبعض كتب غريب القرآن وغريب الحديث .

- مميزاته :

وأهم ما يتميز به معجم العين أنه كان يعتمد في تفسيره لمعاني الكلمات على شواهد الشعر العربي ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف والأمثال وكان شديد الحرص على إثبات سند روايته اللغوية، مما جعل نصوصه موضع ثقة العلماء من بعده ، كما أن هذا المعجم ترك أثراً واضحاً في كل المعاجم التي جاءت بعده فمنهم من سار على منهجه كالأزهري في تهذيب اللغة ، والقالي في البارع ، ومنهم من حاد عن المنهج ولكنه عمل بفكرة الجذر اللغوي أو الأصل الاشتقاقي التي ابتكرها الخليل ، كما أنه أول عربي أراد حصر اللغة حصراً علمياً دقيقاً فضلا عن أنه سبق أحمد بن فارس وابن جني إلى فهم الاشتقاق الكبير، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات رغم اختلاف ترتيبها وتركيبها على أصل معنوي واحد ، وذلك باتباعه نظام التقليب .فقد كان الخليل حين يعرض لشرح كلمة من الكلمات يذكر معها تقلباتها ، ويذكر معنى كل صورة من صورها دون التعرض للربط بين دلالات تلك الصور فجاء ابن فارس وابن جنى وحاولا الربط ، بين دلالات كل صورة من صور القلب نحو : ك م . ل ، م . ل ك.م.ك.ت.ت.ك.م.ت.م.ك. التي يقول عنها ابن جني : على أنك إن أنعمت النظرولا طفته ، وتركت أن لا الضجر وتحاميته ، لم تكد تعدم قرب بعضها من بعض ، وإذا تأملت ذلك تنك وجدته بإذن الله ، لأن المعاني وإن اختلفت مُعتَياتها (ألفاظها) آوية إلى مضجع معه غير مقض ، وآخذ بعضها برقاب بعض.

أما عن طريقة الكشف في معجم العين فهي كالآتي : إذا كان الفعل مضارعاً أو أمراً رُدَّ إلى الماضي ، فالفعل : يضرب ، وضرب يردان إلى الماضي: ضرب ، وإذا كانت الكلمة جمعاً جئنا بها مفردة ، مثل شيوخ نقول فيها : شيخ ، وأبطال مفردها بطل ، وإذا كانت الكلمة مزيدة نجردها من حروف الزيادة ، فنقول في : استغفر أصلها غفر، وفي : اجتمع أصله جمع، وفي : محمود أصلها حمد - وإذا كانت الكلمة مُصغَرة مثل وليد ، وكليب جئنا بالمكبر منها : ولد ، كلب - وإذا كان بالكلمة حرف مقلوب مثل : «قال» نرد المقلوب إلى أصله : قَولَ ، وباع» أصله «بيع»

وإذا كان في الكلمة حرف محذوف رد المحذوف سواء أكان الحذف في أول الكلمة نحو: هبة ، صفة ، صلة ، عدة ، أم كان في وسط الكلمة نحو مذ أم كان فى آخر الكلمة نحو: أب ، أخ ، فم ، دم ، يد ، فالأصل في الكلمات السابقة : وهب ، وصف ، وصل ، وعد ، منذ ، أبو ، أخو فمو ، دمو ، يدى أو يدو

وإذا كانت الكلمة منسوبة رُدَّت إلى أصلها قبل أن تلحقها ياء النسب نحو: عربي تصبح : عرب . إذا كانت الكلمة مضعفة مثل شَدَّ . زلزل يستغنى عن التضعيف لتعود الكلمة إلى أصولها ثنائية أو ثلاثية مثلاً . ثم يبحث عنها في بنائها الثنائي أو الثلاثى فكلمة شدَّ يبحث عنها في معجم العين في باب ، وكذلك كلمة الزلزلة في باب الثنائي : زل ، ثم تُرتب حروف المادة النظام الذى وضعه الخليل في معجمه ، ويبحث عن أصل

الثنائي ترتيباً صوتياً - حسب الكلمة في أسبق الكتب من حيث المخارج الصوتية . فكلمة (عمل) يبحث عنها في كتاب العين لأنها أسبق في الترتيب من الميم واللام ، ثم في داخل كتاب العين يبحث عنها في باب الثلاثي الصحيح

أما كلمة (سمع) فيبحث عنها في كتاب العين أيضاً لأنها أسبق في الترتيب من السين والميم ، ثم في داخل كتاب العين نبحث فى باب الثلاثي الصحيح عن كلمة (سمع) ومشتقاتها . وكلمة (غفر) يبحث عنها في كتاب الغين لأن الغين أسبق في الترتيب من الفاء والراء.

وكلمة (روى) نبحث عنها في كتاب الراء لأن الراء أسبق في الترتيب من الواو و الياء ، ثم في داخل كتاب الراء نبحث عن الكلمة في باب اللفيف المقرون لوجود حرفين متجاورين من حروف العلة فيها .

نموذج تطبيقي

كيف تبحث عن الكلمات الآتية في معجم العين

استوى - استقام - دحرج - سفرجل - عظة - السماء

الإجابة

الكلمة	الجذر	الكتاب	الباب
استوى	سوى	السين	اللفيف المقرون
استقام	قوم	القاف	الثلاثي المعتل
دحرج	دحرج	الحاء	الرباعي
سفرجل	سفرجل	الجيم	الخماسي
عظة	وعظ	العين	الثلاثي المعتل
السماء	سمو	السين	الثلاثي المعتل

نموذج من معجم العين

كتاب العين : باب العين والتاء (ع . ت ، ت . ت ، ت . ع مستعملان)

عت : العتُ : ردُّك القول على الإنسان مرة بعد مرة . تقول : عتت قوله عليه أعنه عنا ، وتعنّت فلان فى الكلام تَعدُّاً : تردد فيه ، ولم يستمر في كلامه والعتعتُ : الطويل التام من الرجال ، وأنشد.

لَما رأتني مودنا عظيرًا قَالَت أُريدُ العُتُت الدفرا

فَلا سَقَاها الوابِلُ الجَوَرا إلاهها ولا وقاهَا العُراً

تع : التَّعتعة : أن يعيا الرجلُ بكلامه ويتردد من عِى أو حصر . ويقال : ما الذي تعتعه ؟ فتقول العِي . وبه شبه ارتطام الدابة في الرمل . قال الشاعر:

يتعتع في الخبارِ إذا عَلاهُ ويَعْثرفي الطَّريقِ المستقيم[18]

ثانيا: معجم العين (ع) للخليل بن احمد الفراهيدي (ت 175هـ)

وأول من فكر في هذا الموضوع - في اللغة العربية - الخليل بن أحمد على ما بلغنا - فكر في أن يجمع كل ما عرف من ألفاظ العرب في كتاب مرتب، وقد اعترضته في ذلك صعوبتان: الأولى كيف يحصر لغة العرب. الثانية كيف يرتبها.

أما المسألة الأولى فحلها بالطريقة الآتية: رأى أن الكلمات العربية إما أن تكون مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ولا تزيد الكلمة العربية من ذلك باعتبار أصولها، ثم رأى أن الكلمات الثنائية ... عقلا ... يمكن حصرها بأن يفرض أن الحرف الأول مثلا أ فالحرف الثاني قد يكون باء أو تاء أو ثاء الخ، فإذا ضربنا 1 × 27 (وهي عدد حروف الهجاء) أمكن أن نحصر الكلمات الثنائية المبدوءة بالألف. ثم نأخذ الباء ونضربها في 26، والتاء ونضربها في 25 وهكذا، ومجموع كل هذا نضربه في 2 وليكون معنا مقلوب الحروف، لأن التقديم والتأخير معتبر في التركيب، فيكون مجموع ذلك جميع الكلمات المركبة من حرفين.

ويلاحظ أنه بهذا ترك الكلمات المركبة من حرفين متماثلين مثل أ أ، ب ب ثم عمل كذلك في الثلاثيات، ففرض أن كل ثنائي مما تقدم يعتبر كأنه حرف واحد، فتضرب عدد الثنائيات في 26 وما بعده في 25 وهكذا، ومجموع ذلك يضرب في ٦ جملة المقلوب، وفعل مثل ذلك في الرباعي والخماسي:

وبذلك حصر جميع الكلمات التي يمكن أن توجد - نظريا - ثم بين منها المهمل والمستعمل، ويعنى بالمهمل الكلمة التي لم تقلها العرب ولم تستعمها في معنى خاص، كعضخ فإنها استعملت مثلا خضع ولم تستعمل عضخ، فكان الخليل إذا وصل إلى مادة مهملة نبه على أنها مهملة، وإذا وصل إلى مادة مستعملة أبان معناها.

المسألة الثانية - أرى أن الخليل رتب الكلمات على حسب أوائلها، ولكنه لم يراع الترتيب المعروف عندنا: ا ب ت الخ، بل رتبها هكذا: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ى.

وقد سمى كتابه كتاب العين، باعتبار أول أجزائه، كما سمى أبو تمام كتابه بالحماسة، لأن أول باب من أبوابه العشر[19].

---

[18]- معجم العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ هـ، ١٧٥ هـ تحقيق د. مهدى المخزومي، د. إبراهيم السامرائي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد 1980، ج 1، ص 82 .

[19]- أحمد امين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، (د.ت) 267/2.

وقد راعى في هذا الترتيب مخارج الحروف، فبدأ بحروف الحلق، ثم ما بعدها من حروف الحنك، ثم الأضراس، ثم الشفة، وجعل حروف العلة آخراً، وهي الحروف الهوائية.

وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه من أقصى حروف الحلق؛ وقد لوحظ عليه أن العين ليست أقصى الحروف مخرجا، وإنما أقصاها الهمزة ثم الهاء.

وقد روى عن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمز: لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحير الثاني وفيه العين والحاء، فوجدت المين أنصع الحرفين.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أنه اتبع في ترتيبه كتاب العين ما كان يتبعه علماء النحو في اللغة السنسكريتية، فقد كانوا يبدؤون بحروف الحلق وينتهون بحروف الشفة.

وقد شك في هذا الكتاب كثير من الثقات، وقال بعضهم: إنه من عمل الليث بن المظفر بن نصر بن سيار الخراساني. وروى عن ابن المعتز أنه قال: كان الخليل منقطعا إلى الليث، فلما صنفه وقع عنده موقعا عظيما، فأقبل على حفظه وحفظ منه النصف، ثم اتفق أنه احترق ولم يكن عنده نسخة أخرى والخليل قد مات، فأملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره فكملوه على نمطه

وروى وعن ابي الطيب اللغوي أن الخليل رتب أبوابه وتوفي من قبل أن يحشيه. وعن ابن راهوايه: كان الخليل عمل منه باب العين وحده، وأحب الليث أن يتفق سوق الخليل فصنف باقيه، وسمى نفسه الخليل من حبه له؛

فهو إذا قال الخليل بن أحمد فهو الخليل، وإذا قال الخليل مطلقاً فهو يحكي عن نفسه؛ فجميع ما فيه عن الخليل منه لا من الخليل.

وقال النووي: كتاب العين المنسوب إلى الخليل إنما هو من جمع الليث عن الخليل.

وقال ابن جني في الخصائص: أما كتاب المين ففيه من التخطيط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل، وقال أبو على القالي : "لما ورد كتاب العين من بلاد خراسان في زمن أبي حاتم أنكره هو وأصحابه أشد الإنكار، لأن الخليل لو كان ألفه لحمله أصحابه عنه ، وكانوا بذلك أولى من رجل مجهول ، ثم لما مضت بعده مدة طويلة ظهر الكتاب في زمان أبي حاتم ، وذلك في حدود سنة ٢٠٥ ، فلم يلتفت أحد من العلماء إليه ، والدليل على كونه لغير الخليل أن جميع ما وقع فيه من معانى النحو إنما هو على مذهب الكوفيين ، بخلاف مذهب البصريين الذي ذكره سيبويه عن الخليل ، وفيه خلط الرباعي والخماسي من أولهما إلى آخرهما".

وعلى العكس من ذلك كان أبو العباس المبرد يرفع قدر كتاب المين ويرويه وكذا ابن درستويه، ويكاد لا توجد لأبي إسحق الزجاج حكاية في اللغة العربية إلا منه.

وقال ابن النديم في الفهرست: "قرأت بخط أبي الفتح النحوى ... قال أبو بكر بن دريد: وظهر بالبصرة كتاب العين سنة 248 ، قدم به وراق من خراسان ، وكان في ثمانية وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً ".

وعلى كل حال فيكاد العلماء يتفقون على أن فكرة جمع اللغة على هذا النحو هي للخليل بن أحمد، وإن اختلفوا في أنه ألف كتاب العين كله أو بعضه، أو اقتصر على وضع الفكرة فيه.

وكان في كتاب العين جملة عيوب:

(أولا) صعوبة الأخذ منه لصعوبة ترتيبه لأنه رتب حروفه حسب المخارج كما علمت، ومن الصعب تتبع هذا، ولأنه خلط بين الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف، وفيه أيضاً خلط كثير نبه عليه الزبيدي في مختصر العين.

(ثانيا) أنه يذكر الكلمة ويذكر مقلوبها، فيذكر في مادة ع ب د مثلا ب ع د، د ب ع الخ، فمن الصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيها الأصل وأيها المقلوب.

لعل أول صورة من صور جمع اللغة ظهرت في اتجاه الخليل إلى محاولة استقصاء الكلمات على الوجه الذي ظهرت به في كتاب العين، ويحكى الليث ابن المظفر قصة هذه المحاولة فيقول:

كنت أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوما: لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف، وباء، وتاء، وثاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه بتة: قال: فقلت له وكيف يكون ذلك؟ قال : يؤلفه على الثنائي ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسي وأنه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه . قال الليث : فجعلت أستفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف فاختلفت إليه في هذا المعنى أياما : ثم اعتل وحججت فما زلت مشفقا عليه وخشيت أن يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي فرجعت من الحج وصرت إليه فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب . فكان يملي على ما يحفظ، وما شك فيه يقول لي: سل عنه فإذا صح فأثبته إلى أن عملت الكتاب [20]

هذه فكرة استقصاء الكلمات ثنائي، وثلاثي إلى غير ذلك فلما بدأ في ترتيبها على حروف ألف وباء وتاء توقف ونظر لأن الألف حرف معتل؛ فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدأ بالثاني وهو الباء إلا بعد حجة واستقصاء النظر... فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها، ومن ثم رتبت الحروف في كتاب العين على الوجه التالي:

ع. ح. هـ. خ. غ (حلقية) ق. ك (لهوية) ج. ش. ض (شجرية) ص. س. ز. (أسلية) ط. د. ت (نطعية) ظ. ث. ذ (لثوية) ر. ل. ن. ف. ب. م (ذلقية) و. ا. ى (هوائية) ثم وضع الهمزة في آخر الحروف.[21]

وهذا يختلف عن ترتيب الحروف عند سيبويه الذي جعل لها ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة: فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف؛ ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء، وأدناها مخرجا من الفم الغين والخاء؛ ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف؛ ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين

---

[20] عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة، دار المعارف، القاهرة، (د. ت) ص111، نقله عن ابن النديم ، الفهرست ، ص64.

[21] الشلقاني، رواية اللغة ص112، نقلة عن معجم العين، 65/1 .

ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام؛ ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون؛ ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء وما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء؛ ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد؛ ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو؛ ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة[22].

فإذا قارنا ترتيب سيبويه وترتيب الخليل وجدنا اختلافا يسيراً؛ نحسب أن الخليل تعمده لاعتبارات خاصة. من ذلك ما يقوله محمد ابن أحمد بن كيسان سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة؛ ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف ، وليس العلم بتقدم شيء على شيء لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته فبأي بدأت كان حسنا وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا. [23]

هذه العناية بالأصوات والذوق مستمدة من شدة إلفه للعربية فاستطاع أن يهتدى إلى ما هو صحيح من العربية وما هو دخيل عليها؛ لاحظ أن الرباعي والخماسي لا يأتيان إلا معتمدين على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة أو حروف الطلاقة. وحيث رخص لليث بالمشاركة في تحشية الكتاب ذهب ينبهه إلى علامات العربية وكان أكثر ما جاء في المقدمة يدور حول هذا التنبيه.

قال الخليل: اعلم أن الحروف الذلق والشفوية ستة وهي ر. ل. ن. ف. ب. م. وإنما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة. منها ثلاثة ذليقة ر. ل. ن تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم ؛ وثلاثة شفوية ف. ب. م مخرجها من بين الشفتين خاصة؛ لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الأحرف الثلاثة فقط ولا ينطلق طرف اللسان إلا بالراء واللام والنون. وأما سائر الحروف فإنها ارتفعت فجرت فوق ظهر اللسان من لدن باطن الثنايا من عند مخرج التاء إلى مخرج الشين بين الغار الأعلى وبين ظهر اللسان؛ ليس للسان فيهن عمل أكثر من تحريك الطبقتين بهن، ولم ينحرفن عن ظهر اللسان انحراف الراء واللام والنون.....

فلما ذلقت الحروف السنة، ومذل بهن اللسان وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها أو من بعضها، ويقول:

فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية لا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب.

قال ليث: فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ قال: نحو الكشعثج، والخضعتج، والكشعطج وأشباههن فهذه مولدات لا تجوز في كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق

---

[22]- المرجع نفسه، ص112، نقله عن كتاب سيبويه 405/2.

[23]الشلقاني، رواية اللغة، ص113، نقله عن المزهر 90/1.

والشفوية: فلا تقبلن منها شيئا وإن أشبه لفظهم وتأليفهم، فإن التحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنت. [24]

حرفا الطلاقة

وليست هذه الحروف الستة وحدها هي الدليل على عربية الرباعي والخماسي فهناك حرفان أطلق عليهما اسم حرفي الطلاقة وهما العين والقاف (لا يدخلان في بناء إلا حسناه) فإذا كان البناء اسما لزمته السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف. فهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط مغرى من الحروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما؛ ومن السين والدال أو أحدهما.

هذه وتلك علامات المعرفة صحيح البناء العربي استمدها الخليل من ذوق المنطق ومما وصل إلى سمعه من كلام العرب ولذلك فهو يحترز لما لم يسمعه بقوله لليث: (فإذا ورد عليك شيء من ذلك فانظر ما هو تأليف العرب وما ليس من تأليفهم نحو قعتج، ونعثج، ودعثج لا ينسب إلى العربية، ولو جاء عن ثقة لم ينكر، ولم نسمع به، ولكن ألفناه ليعرف صحيح بناء كلام العرب من الدخيل) [25]

والحكاية في الرباعي قد تخرج عن هذه العلامات، فهي إما مؤلفة، أو مضاعفة. فالأولى يكون صدرها موافقاً لصدر ما ضم إليها في عجزها كقولهم ده، دق فألفوهما، (ولولا ما جاء فيهما من تشابه الحرفين ما حسنت الحكاية فيهما)

دراسات حول كتاب العين:

ولم تقف العناية بالكتاب عند حد الأخبار فلقد تبوأ مكانة ملحوظة بالرغم مما لحقه من إنكار المنكرين وعقدت له الدراسات بين العلماء من عصر مبكر، عمل المفضل بن سلمة كتاباً رد فيه على الخليل تناوله أبو على بن مقلة أمام ابن دريد فكان ابن دريد يقول: صدق أبو طالب في شيء إذا مر به، وكذب أبو طالب في شيء آخر ولم تلبث هذه المناقشة أن جمعت في كتاب سمى التوسط في نحو المائة ورقة ثم تولى الرد على المفضل إبراهيم بن محمد الملقب بنفطويه، وابن درستويه الذي ذكر له ابن النديم كتاباً آخر سماه (الرد على من نفى كتاب العين عن الخليل) [26]

وألف أبو حامد أحمد بن محمد الحارزنجي البشتي كتاباً سماه التكملة أوماً إلى أنه كمل به كتاب العين كما ألف أبو الأزهر البخاري كتاباً سماه الحصائل قصد فيه تحصيل ما أغفله الخليل ولقد تناولهما الأزهرى بالنقد الشديد؛ فحين اعتمد البشي على كتب القدامى وذكرها في أول كتابه هاجمه الأزهرى بقوله :) قد اعترف البشى بأنه لا سماع له في شيء من هذه الكتب وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم واعتل بأنه لا يزرى ذلك بمن عرف الغث من السمين، وليس كما قال لأنه اعترف بأنه صحفى والصحفى إذا كان رأس ماله صحفاً قرأها فإنه يصحف فيكثر وذلك أنه يخبر عن كتب لم يسمعها ودفاتر لا يدرى أصحيح ما كتب فيها أم لا. وإن أكثر ما قرأنا من الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح ولم يتول تصحيحها أهل المعرفة لسقيمة لا يعتمدها إلا جاهل. [27]

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

[24] رواية اللغة، ص114، نقلة عن معجم العين، 59/1.
[25] رواية اللغة، ص114، نقلة عن معجم العين، 60/1.
[26] رواية اللغة، ص120، نقلة عن الفهرست، ص94.
[27] رواية اللغة، ص121، نقلة عن تهذيب اللغة، 33/1.

وقال في صاحب الحصائل:

(وأما أبو الأزهر البخاري الذي سمى كتابه الحصائل فإني نظرت في كتابه وأكثر تصحيفاً، ولا معنى الذي ألفه بخطه وتصفحته فرأيته أقل معرفة من البشتي. تكتب الذكر ما غير وأفسد لكثرته وإن الضعيف المعرفة عندنا من أهل هذه الصناعة إذا عادي تأمل كتابه لم يخف عليه ما حليته به ونعوذ بالله من الخذلان)[28].

ومن الكتب الهامة التي ألفت حول الكتاب (مختصر العين للزبيدي) فحذف ما في الأصل من شواهد وصحح ما وجده مصحفاً حتى بدا لأبي ذر شيخ أبي الحسن الشاري أنه أحسن من الأصل ولم يرض التياني عن الكتاب الذي عمله الزبيدي واختصر فيه كتاب العين فعمل كتابا سماه (تلقيح العين) أتى فيه بما في العين من صحيح اللغة الذي لا اختلاف فيه على وجهه دون إخلال بشيء من شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب[29]

الدراسات الحديثة حول الكتاب العين:

من أوائل الذين تناولوا هذا الكتاب بالدراسة بعد النقول التي جمعها السيوطي في المزهر الأب أنستاس مارى الكرملى : فقد حاول بعد أن عثر على مخطوطة للعين أن ينشر الكتاب ، وتم له طبع جزء منه وقع في أربع وأربعين ومائة صفحة : ثم حالت ظروف الحرب العالمية الأولى أن يتمه . ثم كتب مقالتين الأولى في الجزء الثاني من المجلد الرابع من مجلة لغة العرب أجمل رأيه فيها بقوله : (أما رأينا الخاص فإن مدون العين هو الليث) والثانية في العدد السابع والثلاثين من مجلة الثقافة أشار فيها إلى دور الخليل في كتاب العين وقصره على مجرد الفكرة وأعطى لليث دوراً هاما في إخراج الكتاب ونص عبارة الكرملى (كان السلف الصالح أول من نظم فرائد المفردات على النحو الذي فكر فيه الخليل فأخرجه إلى بصراء القوم وحذاقهم الليث وزاد ذلك توضيحاً وهو يصف الكتاب بقوله : (كتاب العين كتاب متن اللغة . وأول من فكر في تأليفه نابغة العرب بل نابغة النوابغ الخليل بن أحمد . فالخليل هو الذي خط لخريجه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار الخراساني خطة المعجم المعروف بكتاب العين وبين له الوجه الذي يسير عليه ورتبه ترتيباً فلسفيا على مخارج الحروف ...

وعرف بالخليل وبكتاب العين جورجي زيدان في الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ولم يزد على أن نقل آراء الرواة معتمداً على المزهر وفي سياق جمع اللغة تناول الأستاذ أحمد أمين التعريف بكتاب العين ولم يزد على قوله : (وقد شك في هذا الكتاب كثير من الثقات ، وقال بعضهم إنه من عمل الليث بن المظفر بن نصر بن سيار الخراساني) وذكر أقوال الرواة .

وكان يوسف العش من أوسع المحدثين كلاماً عن كتاب العين وأكثرهم تحليلا للروايات التي قيلت حول الكتاب وحول نسبته ، عقد أربع مقالات في مجلة المجمع العلمي العربي بعنوان (أولية تدوين المعاجم وتاريخ كتاب العين المروى عن الخليل بن أحمد أشار في المقال الأول إلى تضارب الأقوال حول مؤلف الكتاب حتى كادت تطغى على قيمة الكتاب وحسن الأثر الذي أحدثه في عالم المعاجم العربية إذ كان أولها وفيه ظهر الترتيب على حروف المعجم وعنه أخذ.

[28] رواية اللغة، ص121، نقلة عن تهذيب اللغة، 40/1.

[29] رواية اللغة، نقله عن المزهر 88/1 .

وبين أن الذين رأوا نفى نسبة الكتاب للخليل كانت حججهم تنحصر في:

- اتفاق علماء اللغة على كثرة الأغاليط في كتاب العين.
- وأن فيه من التخليط مالا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه.
- وأن ما وقع في كتاب العين من معاني النحو إنما هو على مذهب الكوفيين.

وقال يوسف العش: على أن كل هذه الحجج لا تستقيم في تعليل ادعاء الليث ابن المظفر نسبة الكتاب إلى الخليل، والكتاب إبداع يتمنى كل عالم أن ينسب إليه ثم قسم العلماء إلى طوائف أربع حين تحدث عن نسبة الكتاب.

- نسب إلى الطائفة الأولى القول بأن الخليل لا علاقة له بكتاب العين.
- وإلى الطائفة الثانية القول بأن الكتاب للخليل.
- وإلى الثالثة أن الخليل شرع بالكتاب ومات قبل أن يتمه.
- وإلى الرابعة أن الخليل رسم الكتاب ولم يحشه.

وقد فند الأقوال الثلاثة الأولى، وارتضى الرأي الرابع وهو رأى ثعلب الذي يقول: (إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه).

وفي مقاله الثاني تحدث عن كيفية تأسيس الكتاب وأشار إلى منهج الخليل كما جاء في مقدمة الكتاب ورأى في ترتيب الحروف على النهج الذي أراده الخليل نتيجة عملية من توخى السهولة والإحكام في التأليف.

الاختلاف حول نسبة الكتاب:

معجم العين - ككل شيء ثمين - اختلفت بشأنه الآراء وساعد على ذلك طريقة ظهوره التي جعلتهم يرتابون في نسبته للخليل، قال أبو بكر بن دريد: (وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ومائتين، قدم به وراق من خراسان، وكان في ثمانية وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً، وكان سمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهريين حتى قدم به هذا الوراق[30] فأنكره أبو حاتم لأنه لم يحمل عن رجل من تلامذة الخليل كالنضر بن شميل أو مؤرج السدوسي أو نصر بن على، وكان أولى أن يحمل هذا الكتاب عن واحد من هؤلاء لصلتهم بالخليل.

وكان الأزهرى صاحب التهذيب ينسب الكتاب لليث، ولا ينكر دور الخليل في تأسيسه؛ جاء ذلك في خبرين في مقدمة التهذيب أولهما حين ذكر مصادر كتابه وتناول الثقات من العلماء أولا، ومن هم دون الثقات بعد ذلك فقال:

(وإذا فرغنا من ذكر الأثبات المتقنين، والثقات المبرزين من اللغويين... فلنذكر بعقب ذلك أقواماً اتسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم وحشوها بالمزال المفسد، والمصحف المغير ... فمن المتقدمين الليث بن المظفر الذي نحل الخليل بن أحمد كتاب العين جملة لينفقه باسمه) [31]

ويقول في الخبر الثاني:

---

[30] رواية اللغة، ص126، نقلة عن الفهرست، ص64.

[31] رواية اللغة، ص126، نقلة عن تهذيب اللغة، 28/1.

(ولم أر خلافاً بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فيه، وعلمت أنه لا يتقدم أحد الخليل فيما أسسه ورسمه)

والخبران فيما أرى لا يتفقان مضموناً فإذا كان الخليل أسس الكتاب وأكمله الليث من فم الخليل فان الكتاب كتاب الخليل.

وكان السيرافي يقف موقفا محددا فقال: "ان الخليل عمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة.[32] وترك للقارئ أن يفهم من هذا أنه لم يتمه دون أن يشير الى هذا المقدار الذي يريد نسبته للخليل. فكلمة أول الكتاب تحتمل الصفحة والصفحات والجزء والأجزاء.

ويكاد يكون هذا رأى أبى الطيب اللغوي الذي ذكر أن الخليل بدأ كتاب العين في حياته، ولكنه مات قبل أن يتمه وقد نصب تلميذه الليث نفسه لأداء هذه المهمة فأتم بقية الكتاب، ولهذا نجد أن الكتاب لا يشبه أوله آخره.

ويقصر ابن جني دور الخليل على مجرد التوجيه فقال:

أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه، ولا محالة أن هذا التخليط الحق هذا الكتاب من قبل غيره؛ فإن كان للخليل فيه عمل فلعله أومأ إلى عمل هذا الكتاب، إيماء ولم يله بنفسه ولا قرره ولا حرره.[33]

ويحكى ياقوت قصة ينتهي فيها إلى أن الليث أملى نصف الكتاب من حفظه، وجمع علماء عصره وكلفهم أن يكملوا على نمطه وقال لهم: مثلوا عليه واجتهدوا فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس

ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى كتاب العين دون أن ينسبه إلى أحد، كان ابن سيده في كتاب المحكم إذا نقل عن الكتاب اكتفى بقوله: قال صاحب العين: أما الذين قطعوا بنسبة الكتاب للخليل فأولهم - على ما أعلم - ابن دريد صاحب الجمهرة أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فقال: وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودى رضوان الله عليه كتاب العين فاتقب من تصدى لغايته وعنى من سما الى نهايته "[34] وكذلك ابن فارس حين ذكر مراجعه في أقل كتاب المقاييس وقال: أما كتاب العين للخليل بن أحمد فقد حدثني به علي بن براهيم القطان .[35]

---

[32] رواية اللغة، ص127 .

[33] المرجع نفسه، ص127 .

[34] المرجع نفسه ، ص128، نقله عن ابن دريد ، الجمهرة في اللغة 3/1.

[35] المرجع نفسه ، ص128، نقله عن ابن فارس، مقاييس اللغة، طبعة دار احياء الكتب العربية كتاب الخصائص لابن الجني (392هـ).

المحاضرة رقم 04 : الخصائص لابن جني (392 هـ) .

1- المؤلف : ابن جني

نسبه و نشأته :

هو عثمان بن جني , ولا يعرف من نسبه من وراء هذا , و ذلك أنه غير عربي , و كان أبوه جنى روميا يونانيا , و كان مملوكا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى .و من ثم ينتسب ابن جنى أزديا بالولاء ,فيقول في أخر المنصف شرح تصريف المازنى :"وقال أبو الفتح عثمان بن جنى الأزدى .....". ولا تذكرلنا المراجع التي بأيدينا شيئا عن أبيه أين كان قبل أيقدم الموصل ان كان هاجر اليها و لم يكن ولد فيها , ولا ماذا كان يعمل لمولاه .نشأ بالموصل و تلقى مبادئ التعلم بها .فقد أخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي .

صحبته لأبي علي الفارسي :

و يذكر الرواة في بدء اتصاله بأستاذه أبي علي الفارسي أن أبا الفتح , و هو شاب كان يدرس العربية في جامع الموصل , فمر به أبو علي , فوجده يتكلم في لمسألة قلب الواو ألفا في نحو قـــال و قام , فاعترض عليه أبو علي , فوجده مقصرا , و نبهه على الصواب , و قال له: تزببت وأنت خصرم فتبع أبا علي و صحبه أربعين سنة [36] حتى نبغ بسبب صحبته إيـاه , و بلغ من أمره مابلغ . أقام معه في قصر سيف الدولة بحلب و انتقل معه الى قصور البويهيين في شيراز و بغداد .[37]

صحبته للمتنبي :

اجتمع ابن جنى بالمتنبي بحلب عند سيف الدولة بن حمدان , و في شيراز عند عضد الدولة ,وكان المتنبي يجله , و يقول فيه : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس . وكان المتنبي إذا سئل عن شيء من دقائق النحو و التصريف في شعره يقول : سلوا أبا الفتح .

و كان المتنبي إذا سئل عن معنى قاله, أو توجيه إعراب, حصل فيه إغراب , دل عليه , و قال : " عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى فسلوه فإنه يقول ما أردت و مالم أرد " .

و ترجع مقالة المتنبي الأخيرة إذا صح نسبتها اليه الى سعة علم ابن جنى وتشعب مذاهبه , فقد يقع في الكلام من المعاني مالم يقع لقائله . و ابن جني أول من شرح ديوان المتنبي . وقد تعقب ذلك الشرح بعض معاصريه و انتقدوه في مؤلفاتهم. و كان ابن جني يحسن الثناء على المتنبي في كتبه و يستشهد بشعره في المعاني و الأغراض و يصفه بشاعرنا يقول : " وحدثني المتنبي شاعرنا و ما عرفته إلا صادقا ..."[38]

قسم اللغة العربية وآدابها - عنابة - كلية الآداب و اللغات

[36] ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 12/90. 91.

[37] ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد 312/11.

[38] ابن جني ، الخصائص 239/1 .

مؤلفاته:

كثيرة ومتنوعة ، من أشهرها[39]:

1 - الخصائص

2 – سر صناعة الإعراب.

3 - المنصف على تصريف المازني.

4 - شرح المقصور والممدود لابن السكيت

5 - شرح ديوان المتنبي

شرح مستغلق أبيات الحماسة

7 - اللمع في العربية.

8 - كتاب مختصر العروض والقوافي

9 - كتاب الألفاظ المهموزة.

10- المحاسن في العربية

11 - المحتسب في شرح شواذ القراءات

-12-شرح أرجوزة أبي نواس

13 - الوقف والابتداء.

-14-مقدمات أبواب التصريف

15 - النوادر الممتعة

2 - كتاب الخصائص :

أسباب تأليفه :

بدأ ابن جني تقديمه للكتاب بالدعاء للملك السيد المنصور بهاء الدولة وضياء الله ,معترضا به بين المبتد أ و الخبر قائلا : " هذا – أطال الله بقاء مولانا .....-كتاب لم أزل على فارط الحال، وتقادم الوقت، ملاحظا له، عاكف الفكر عليه، منجذب الرأي والروية إليه، وادا أن أجد مهملاً أصله به، أو خللا أرتقه بعمله، والوقت يزداد بنواديه ضيقا، ولا ينهج لى إلى الابتداء طريقا. هذا مع إعظامي له، وإعصامى بالأسباب المنتاطة به، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في

[39]ذكرت في كتب التراجم التي ترجمت له . ينظر :إنباه الرواة على أنباه النحاة، 2/336 ، وبغية الوعاة ص 322 .

علم العرب، وأذهبه في طريق القياس والنظر، وأعوده عليه بالحيطة والصنون، وآخذه له من حصة التوقير والأون، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة: من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة "[40]

ألفه ابن جنى مستدركا به تقصير الكوفيين والبصريين في التنظير لأصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه، مشيرا إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع واصفا إياها بأنها متواضعة ولا ترقى إلى المستوى المطلوب واستطرد حديثه مركزا على الدوافع الي جعلته يلتزم بتأليف الكتاب وتتمثل في إلحاح أصحابه وقرائه عليه في أن يمضي الرأي في إنشاء هذا الكتاب فكان ذلك استجابة لطلبهم وتحقيقا لرغبة خفية في نفسه، فلطا سمع الصوت بداخله بحثه على تأليف كتاب يجمع خصائص العربية بكيفية لم تخطر ببال أحد قبله.

مميزات كتاب الخصائص

هو أوفى ما نعرف من كتب ابن جني التي عرضت لدراسة اللغة وهو أيضاً هو أوفى كتاب وضع في خصائص العربية، لم يكتف فيه بالنقل ووصف الظواهر بل ناقش القضايا وعلل لها - غاص ابن جنى في أغوار العربية وفهم أسرارها وخرج بعدد من خصائصها استطاع أن يبرزها في جدل سهل وحجاج لطيف.

محتواه العلمي:

يحتوي الكتاب في أجزائه الثلاثة على 162 بابا تتمحور هذه الأبواب حول قضايا اللغة العربية الأساسية ومسائلها الهامة، والكتاب قلبي بالحجج العقلية والشواهد الشعرية والنثرية التي سمعها من فصحاء العرب وبالشواهد القرآنية. فهو يجمع بين مدونة العربية وعلومها، موجه للمتخصصين بالدرجة الأولى، لكن يستطيع غير المتخصص ان ينهل من ينبوعه الصافي لأنه يحتوي على معارف العربية الخاصة والعامة حيث نجد فيه النحور وأصول النحو، والتصريف، وفقه اللغة، والقراءات القرآنية، وعلم الدلالة.

أثره فيمن جاء بعده:

وهكذا فتح ابن جني في العربية ابوابا لم تفتح لغيره من قبل وأهمها باب الاشتقاق الذي وضع فيه أصولا وتفريعات، وأفاد من علمه معاصروه والذين جاؤوا من بعدهم في تأليف معاجمهم وموسوعاتهم اللغوية أمثال: ابن سيده والسيوطي. والرابح الأكبر في كل هذا هو اللغة العربية.

[40] ابن جني ،الخصائص، ج 1، المقدمة، ص 1 .

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا من أئمة اللغة المبرزين في القرن الرابع الهجري. له من المؤلفات: كتاب: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها وكتاب "المجمل" ومعجم مقاييس اللغة الذي حققه شيخ المحققين عبد السلام محمد هارون. وقد ذكر في مقدمة تحقيقه للكتاب أنه لم يجد أحدا من المؤرخين وكتاب الطبقات يذكر هذا الكتاب لابن فارس غير ياقوت الحموي معللا ذلك بتأخر زمن تأليفه ما جعله لم يظفر بالشهرة التي ظفر به غيره.[41]

مفهوم مصطلح: المقاييس:

يرى عبد السلام هارون أن ابن فارس يعني بكلمة المقاييس ما يسميه بعض اللغويين " الاشتقاق الكبير" الذي يرجع مفردات كل مادة الى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات.

- منهج ابن فارس في تأليف معجم مقاييس اللغة

جرى ابن فارس على طريقة الفذة بين مؤلفي للمعاجم، في وضع المقاييس. فهو لم يرتب مواد على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد في الجهرة، ولم يطردها على أبواب أواخر الكلمات، كما ابتدع الجوهري في الصحاح، وكما فعل ابن منظور والفيروز ابادي في معجمها، ولم ينسقها على أوائل الحروف فقط كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة، والفيومي في المصباح المنير. ولكنه سلك طريقاً خاصاً به، لم يفطن إليه أحد من العلماء ولا نبه عليه فالتزم النظام الدقيق التالي:

قسم مواد اللغة أولاً إلى كتب، تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء.

ثم قسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة أولها باب الثنائي المضاعف والمطابق، وثانيها أبواب الثلاثي الأصول من المواد، وثالثها باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية.

والأمر الدقيق في هذا التقسيم أن كل قسم من القسمين الأولين قد التزم فيه ترتيبا خاصا، هو ألا يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالذي يليه، ولذا جاء باب المضاعف في كتاب الهمزة، وباب الثلاثي مما أوله همزة وباء مرتباً ترتيباً طبيعيا على نسق حروف الهجاء.

ولكن في "باب الهمزة والتاء وما بثلثهما" يتوقع القارئ أن يأتي المؤلف بالمواد على هذا الترتيب: (أتب، أتل، أتم، أتن، أته، أبو، أتى)، ولكن الباء في (أتب) لا تلى التاء بل تسبقها، ولذلك أخرها في الترتيب إلى آخر الباب فجعلها بعد مادة (أتى) .

وفي باب التاء من المضاعف يذكر أولاً (تخ) ثم (تر) إلى أن تنتهي الحروف ثم يرجع إلى التاء والباء (تب)، لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الخاء.

وفي أبواب الثلاثي من التاء لا يذكر أولاً التاء والهمزة وما يثلثهما، بل يؤخر هذا إلى أواخر الأبواب، ويبدأ بباب التاء والجيم وما يثلثهما، ثم باب التاء والحاء وما يثلثهما، وهكذا إلى أن ينتهي من الحروف، ثم يرجع أدراجه ويستأنف الترتيب من باب التاء والهمزة وما يثلثهما. وذلك لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الجيم. ونجد أيضًا أن

---

[41] ابن فارس مقاييس اللغة، دار الجيل ، بيروت ، المجلد الأول ، ص39، مقدمة المحقق .

الحرف الثالث يراعى فيه هذا الترتيب. ففي باب التاء والواو وما يثلثهما يبدأ بـ(توي) ثم (توب) ثم (توت) إلى آخره. وذلك لأن أقرب الحروف التي تلي الواو هو الياء.

وفي باب الثاء من المضاعف لا يبدأ بالثاء والهمزة ثم بالثاء والباء، بل يرجئ ذلك إلى أواخر الأبواب. ويبدأ بالثاء والجيم (ثج)، ثم بالثاء والراء (ثر) إلى أن تنتهي الحروف، ثم يستأنف الترتيب بالثاء والهمزة (ثأ) ثم بالثاء والباء (ثب).

وفي أبواب الثلاثي من الثاء لا يبدأ بالثاء والهمزة وما يثلهما ثم يعقب بالتاء والباء وما يثلثهما. بل يدع ذلك إلى أواخر الأبواب: فيبدأ بالثاء والجيم وما يثلثهما إلى أن تنتهي الحروف، ثم يرجع إلى الأبواب التي تركها. وتجد أيضاً أن الحرف الثالث يراعى فيه الترتيب. ففي باب الثاء واللام وما يثلثهما يكون هذا الترتيب (ثلم، ثلب، ثلث ثلج) ... الخ.

وفي باب الجيم من المضاعف يبدأ بالجيم والحاء (جح) إلى أن تنتهى الحروف (جو) ثم ينسق بعد ذلك (جأ، جب).

وفى أبواب الثلاثي من الجيم يبدأ بباب الجيم والحاء وما يثلثهما إلى أن تنتهى الحروف ، ثم يذكر باب الجيم والهمزة وما يثلهما ، ثم باب الجيم والباء ، ثم الجيم والتاء ، مع مراعاة الترتيب في الحرف الثالث ، ففي الجيم والنون وما يثلثهما يبدأ أولاً بـ(جنه) ثم (جنى) ويعود بعد ذلك إلى (جنأ، جنب ، جنث)الخ.

هذا هو الترتيب الذي التزمه ابن فارس في كتابيه « المجمل » و«المقاييس» .وهو بدع كما ترى .

- مقارنة "مقاييس اللغة " بالمعاجم الأخرى

ان معاجم الترتيب الهجائي التي ألفت في القرن الرابع الهجري احتفظت بفكرة الترتيب الداخلي وفق الأبنية. والمعاجم المقصودة هي: (جمهرة اللغة) لابن دريد (ت ٣٢١) و(معجم مقاييس اللغة) ، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) و(المجمل) لابن فارس أيضا . تتفق هذه المعاجم في اتخاذها للترتيب الهجائي أساس الترتيب العام للجذور، ثم في مراعاتها للأبنية باعتبارها أساس الترتيب الداخلي. ولكن ثمة خلافا بين هذه المعاجم.

فجمهرة اللغة لابن دريد وهو أقربها زمنا إلى عصر الخليل بن أحمد احتفظ بنظام ذكر الكلمة ومقلوباتها في أقرب موضع ممكن . أي أن ابن دريد أفاد من الخليل من عدة جوانب، ولكنه عدل ترتيب الحروف.

أما " معجم مقاييس اللغة "لابن فارس، فقد رتب الجذور وفق نظام الدائرة، فعندما تأتي الكلمات التي تبدأ بالباء تنتظم الجذور فيها على النحو التالي : ب ب ، ب ت ، ب ث .. ويكون آخر هذه الحروف ب أ . وعندما تأتي الكلمات. التي تبدأ بالثاء تنتظم فيها الجذور على النحو التالي: ث ث ، ث ج ، ث ح.... ويكون آخر هذه الجذور ث أ ، ث ت . أي أن ابن فارس يبدأ من الحرف نفسه، ثم يأتي الحرف مع الحرف الذي يليه في الترتيب الهجائي، إلى أن تنتهي حروف الترتيب الهجائي، ثم تأتي الحروف الأخرى السابقة على ذلك الحرف في الترتيب الهجائي.

أما معاجم الترتيب الهجائي التي رتبت الجذور فيها وفق الحرف الأخير فقد بدأت بديوان الأدب للفارابي (ت ٣٥٠ هـ) و "الصحاح " للجوهري (ت ٣٩٣هـ). أقام الفارابي معجمه على أساس تقسيم الكلمات العربية وفق أبنيتها ، ويقوم الترتيب الداخلي في كل قسم من أقسام ديوان الأدب على أساس الترتيب الهجائي. أي ان ديوان الأدب معجم للأبنية مرتب داخليا على أساس الترتيب الهجائي الحروف. أما و"الصحاح" للجوهري فهو معجم عام اتبع نظام الباب والفصل . والمقصود بهذا أن الكلمات ترتب بمراعاة حروفها الأصول وفق الحرف الاخير، ثم ترتب الجذور المتفقة في الحرف الأخير وفق الحرف الأول . وقد ظل هذا النظام سائدا في المعاجم العربية التي ألفت في القرون التالية، وأهمها

"العباب"، للصاغاني (ت ٥٧٧ هـ) و"لسان العرب" ، لابن منظور (ت ٥٧١١) "القاموس المحيط" ، للفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ) و"تاج العروس" ، للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، والمعاجم الثلاثة الأخيرة هي أكثر المعاجم العربية شهرة وانتشارا

ولا يسعنا في الأخير إلا أن ننوه بهذا المعجم وبجهود مؤلفه. ونشاط محققه الرأي بأنه مفخرة من مفاخر التأليف العربي ولقد أضفى ابن فارس عليه من جمال العبارة وحسن الذوق، وروح الأديب، ما يبعد به عن جفوة المؤلفات اللغوية. فأنت تستطيع أن تتخذ من هذا الكتاب متاعا لك إذ تبغي المتاع، وسندا حين تطلب التحقق والوثوق. والكتاب بعد كل أولئك، يضم في أعطافه وثناياه ما يهب القارئ ملكة التفهم لهذه اللغة الكريمة، الوقوف على أسرارها.

- نماذج من الكتاب :

"ثج" الثاء والجيم أصل واحد، وهو صب الشيء. يقال ثج الماء إذا صبه: وماء ثجاج أي صَبَابٌ.

قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءٍ ثجاجا}. يقال اكتظ الوادي بثجيج الماء، إذا بلغ ضريبة.

قال أبو ذؤيب: سقى أم عمرو كل آخر ليلة حَناتِمُ مُزْنٍ ماؤُهُنَّ ثجيج وفي الحديث: (أفضَلُ الحج العج والثج» فالمج رفع الصوت بالتلبية. والثج سَيَلانُ دِمَاءِ الهَدَى. ومنه الحديث في المستحاضة: «إلى أثجه ثجا».

"ثر" الثاء والراء قياس لا يخلف، وهو غُزر الشيء الغزير. يقال سحاب ثر، أى غزير. وعين ثرة ، وهى سحابة تنشأ من قبل القبلة ،قال عنترة:

جادتْ عليه كل عين مرة فتركن كل قرارة كالدرهم [42]

- باب الثاء والقاف وما يثلهما

"ثقل" الثاء والقاف واللام أصل واحد يتفرع منه كلمات متقاربة، وهو ضد الخفة، ولذلك سمى الجن والإنس الثقلين، لكثرة العدد. وأثقال الأرض كنوزها، في قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضِ أَثقالها)، ويقال هي أجساد بنى آدم

قال الله تعالى: (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ)، أى أجسادكم. وقالت الخنساء: أبعد ابن عمرو من آل الشرد حلت به الأرض أثقالها أي زينت موتاها به. ويقال ارتحل القوم بثقلتهم، أى بأمتعتهم، وأجد في نفسي ثلقة. كذا يقولون من طريقة الفرق، والقياس واحد.

"ثقب" الثاء والقاف والباء كلمة واحدة، وهو أن ينفذ الشيء. يقال ثقبتُ الشيء أثقبه ثقباً. والثاقب في قوله تعالى: (النجم الثاقِبُ). قالوا: هو نجم ينفذ السَّمواتِ كلَّها نوره. ويقال ثقبت النار إذا ذَكيتها، وذلك الشيء ثقبه وذُكوة . وإنما قيل ذلك لأن ضوءها ينفذ [43].

قسم اللغة العربية وآدابها

[42] المصدر السابق، 367/1.

[43] المصدر السابق 382/1.

1- ابن المنظور : (630 هـ - 711 هـ)

أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الأفريقي المصري . يعود نسبه إلى الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري الذي شهد معركة خيبر مع الرسول (صـ) .

ولد بمصر وبها نشأ وترعرع .كان أديبا شاعرا وعالما بالغة والنحو والتاريخ .عمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة .ثم ولي القضاء بطرابلس . وعاد إلى مصر فتوفي بها – كان شغوفا باختصار الكتب الطوال , فاختصر كتاب الأغاني للأصفهاني , والعقد الفريد لابن عبد ربه , والذخيرة لابن سام ويتيمة الدهر للثعالبي . وغيرها .

2- معجمه : "لسان العرب "

أشهر مؤلفاته على الإطلاق معجه الشهير لسان العرب بالمحيط , جمع فيه بين الحسنيين حسن الجماع و حسن التأليف وقد سار في تأليفه على نظام الصحاح , رتب كلمات اللغة ترتيبا هجائيا حسب الحرف الأخير للباب و حسب الحرف الأول للفصل . فجاء بحمد الله وفق البغية , وفوق المنية . بديع الاتقان , صحيح الأركان . وقد جمع فيه ابن منظور خمسة معاجم سابقة عليه : تهذيب اللغة للأزهري والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى وحواشى ابن بري المسماة : التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير وقد توهم ابن حجر في الدور الكامنة 263/4 وتبعه السيوطي في بغية الوعاة وطاش كبرى زاده في مفتاح السعادة , والزبيدى في تاج العروس أن جمهرة اللغة لابن دريد من مصادر لسان العرب وليس الأمر كذلك .

يشير ابن منظور , في مستهل كتابه إلى السبب الذي دفعه إلى وضع لسان العرب فيقول إن تهذيب اللغة للأزهري و المحكم لابن سيده من أجمل كتب اللغة عند العرب , ولكن صعوبة البحث فيهما لا تخفى على أحد , وذلك بسبب سوء الترتيب واختلاط التفصيل والتبويب , أما الجوهري فقد رتب صحاحه ولكنه جاء مختصرا وكثر فيه التصحيف حتى جاء بعضهم وأرخ لسقطاته وأخطائه . فكان أن وضع المؤلف معجمه هذا لسان العرب وأكثر فيه من الأخبار و الشواهد والأيات , حتى جاء " واضح المنهج سهل السلوك ..... عظم نفعه بما اشتمل من العلوم عليه , وغني بما فيه عن غيره وافتقر غيره اليه , وجمع من اللغات والشواهد والأدلة مالم يجمع مثله مثله" [44] وقال أيضا في المقدمة: «واني لو أزل مشغوفا بمطالعات كتب اللغة والاطلاع على تصنيفها , وعلل تصاريفها , ورأيت علماءها بين رجلين : أما من أحسن حجمه فامه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه , فانه لم يجد جمعه . فلم يجد جمعه مع إساءة الوضع , ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع" [45]

وقد حذا ابن منظور الجوهري في (صحاحه) فاختار الأبجدية المنتظمة أساسا لتبويب المعجم ،واختار الحرف الأخير من أحرف المادة أساسا للبحث عن الكلمة.

وعقد المؤلف باباً في أول كتابه لتفسير الحروف المقطعة، وهي الحروف التي وردت في أوائل بعض سور القرآن مثل: كهيعص , والر ،والمص، والم , فأورد ما ذكروه من تفسير لها.

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

[44] ابن منظور، لسان العرب , 8.7/1.

[45] المصدر نفسه , المقدمة.

وقد سن ابن منظور سنة حسنة في معجمه ، تبعه فيها عدد من أصحاب المعاجم الذين جاءوا بعده وهى التعريف بالحرف موضوع الباب ، ففي باب الهمزة مثلاً يحدثنا عن مخرج صوت الهمزة ووظيفته ، وما يتعرض له من إبدال أو زيادة ، أوتحقيق أوتسهيل ، وهكذا في كل صوت من أصوات اللغة؛ يبين المجهور منها والمهموس ، والشديد منها والرخو ، وقد سبقه في ذلك الخليل في العين ، وابن دريد في جمهرة اللغة.

وعدد المواد اللغوية التي وردت في اللسان ثمانون ألف مادة ، ويُعدُّ بحق موسوعة شاملة ، فهو كتاب لغة ، وفقه ، ونحو ، وصرف ، وشرح للحديث، وتفسير للقرآن ، وإن المادة التي تستغرق خمسين سطراً في القاموس المحيط ، قد تزيد في اللسان على مائتين وخمسين [46]

وقد كان لهذا المعجم أكبر الأثر ، فقد أقبل الناس عليه يقتنونه ، كما أقبل عليه اللغويون يعيدون طباعته مرتبين مواده حسب أوائل حروفه الأصول كما فعل يوسف خياط ونديم مرعشلي في طبعتهما الصادرة عن دار لسان العرب في بيروت ، وكما فعل عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي في الطبعة الصادرة عن دار المعارف بمصر.

[46] رجب عبد الجواد إبراهيم ، دراسات في الدلالة والمعجم،ص 192 .

بعد انقضاء القرن الأول الهجري وقيام الدولة العباسية واستقرارها ، بدأ المسلمون في تدوين الحديث النبوي ، وكان الرسول (ص) قد نهى عن تدوين شيء من كلامه خيفة اختلاط شيء منه بالقرآن.

ويبدو أن هذا التوجيه الحكيم ظل سارياً حتى تنبه القوم إلى خطر استمراره ، وقد هالهم أن كثيراً من الحفاظ قد قتلوا خلال الغزوات أو حروب الردة أو ماتوا بعد ذلك ، وأن أمداً غير قصير انقضى على وفاة النبي دون أن تدون أحاديثه ، مما أتاح لبعض ضعاف النفوس التزيد فيه ، أو تحريف بعض نصوصه أو اختراع بعضها الآخر.

وهكذا شمر العلماء عن ساعد الجد وانطلقوا يجمعون الحديث ويبحثون في ركامه ويتحرون الدقة في تمييز صحيحه من فاسده. كل ذلك في سبيل تدوينه وحفظه. وكانت بحق حركة تدوين تنشطه قل أن يوجد لها نظير عند سائر الأمم في الدأب والتقصي والتحقق. وهذه الحركة المباركة كانت فاتحة عهد طويل زاهر في مجال التصنيف والتأليف عند العرب .

وقد صاحب تدوين الحديث ،تدوين معارف أخرى ذات صلة أيضا بالثقافة الإسلامية و بالإسلام وظهوره، مثل سيرة الرسول ومغازيه ، ثم تاريخ العرب والمسلمين وسائر الأمم القديمة . ولم تلبث حركة التدوين حتى انتشرت وازدهرت فشملت الشعر والخطب والأمثال واللغة ، وهكذا كانت خدمة القرآن أول حافز في سبيل تدوين هذه المعارف والفنون . حتى إن تدوين الحديث النبوي بوسائله وطرائقه ومناهجه قد ترك ميسمه على سائر مناحي التأليف عند العرب وبخاصة في مجال الرواية ودراسة سلسلة الإسناد حول الرواة . ويبدو هذا التأثير واضحاً في طرائق تدوين اللغة وتصنيف المعاجم وفي تسجيل الشعر وتأليف المجموعات الشعرية وفي جمع أخبار العرب وأيامهم وما يتصل بذلك من العلوم والمعارف التي انتفعت أيما انتفاع بهذا الضبط والاتقان.

وبوسعنا أن نتبين خلال هذه الحركة العلمية الدائبة مرحلتين متعاقبتين كانت الأولى فيها أساساً للثانية ، وهما مرحلة التدوين التي تقوم على الجمع والتقصي والتسجيل والرصد ثم مرحلة التصنيف والتأليف التي تناولت المواد المجموعة بالتنظيم والتنسيق والتبويب وبالتالي التحليل والاستنباط والمقارنة والابتكار. فكان الفقه والتشريع نتيجة لتدوين الحديث ، والمعاجم نتيجة لتدوين اللغة ، والنقد الأدبي نتيجة لجمع منظوم العرب ومنثورهم [47].

لم تلبث حركة التأليف ان ازدهرت ازدهاراً رائعاً في أواخر القرن الثاني وطوال القرنين التاليين ، يدفعها ويمدها بأسباب الخصب والنماء إقامة صناعة الورق في بغداد ، ابتداء من عصر الرشيد وظهور طبقة جديدة في المجتمع العربي تعرف بطبقة الوراقين التي ينتمي اليها كثير من العلماء من امثال الجاحظ وابن النديم وياقوت .. وصناعة الوراقة كما يعرفها ابن خلدون عملية" الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين" [48] .

تستطيع القول أنها كانت بمثابة مطابع ودور نشر في زماننا ولم تكن دكاكين الوراقة وأسواقها مجرد دور النسخ والبيع وإنما كانت أما كن تجمع للعلماء والأدباء وملتقى فئات المثقفين ، وكانت بمنزلة مراكز ثقافية حقيقية ومنزلة للنشاط

---

[47] عمر الدقاق ، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم ، بيروت، ط3، 1972 ، ص 17 .

[48] ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي ،ص 262 .

الفكري ، ومستودعاً لكل ما كانت تبدعه القرائح المتفتحة والعقول المستنيرة في شتى فروع المعرفة . وتبعاً لذلك اتسمت الحياة العلمية وازداد الإقبال على الكتاب فازداد رواج المؤلفات وكثرت المخطوطات كله شيوع استعمال الورق وتكاثر الناسخين ، وشاع الميل إلى اقتناء الكتب فامتلات الخزائن بالمصنفات . وقد شرع أولو الأمر في تكوين دور الكتب ورصد الأموال لها من خزانة الدولة كمكتبة الحكمة التي أنشأها المأمون ومكتبة البرامكة التي كونها الفضل بن عيسى البرمكي في القرن الثاني ، ثم مكتبة علي بن عيسى المنجم وابنه يحيى بن علي في القرن الثالث ، ومكتبة محمد بن يحيى الصولي في القرن الرابع .. وغير ذلك من الخزانات الرسمية ، حتى غدا اقتناء الكتب وإنشاء الخزانات من علائم الجاه والظرف والخاصة والرقي . وقد نقل الجاحظ عن عيسى بن ماهان أن في مكتبة يحيى البرمكي ثلاث نسخ من كل كتاب . وعندما خرج إسحق الموصلي مع الرشيد حمل معه ما خف من كتبه فبلغ ثمانية عشر صندوقًا [49]

هذا ما كان عليه الأمر في أواخر القرن الثاني . أما في القرون التالية فقد بلغت المكتبة العربية مدى هائلاً. فالصاحب بن عباد كان إذا ارتحل اصطحب معه أربعين بعيراً محملة كتباً ، على حين أن ما عنده كان يحتاج إلى أن يحمل على أربعمائة بعير أو أكثر [50] وهذه الكثرة من الضخامة بحيث تعادل ما كان موجوداً في مكتبات أوربا مجتمعة وبلغت فهارسها عشرة مجلدات . وقد عبر (وول ديورانت) عن روح ذلك العصر بقوله:"لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من ذلك العصر بقوله بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين - ما بلغه في بلاد الإسلام في هذه القرون حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية ، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الاسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلون عن عدد الأعمدة " [51].

على أن ما يؤسف له كل الأسف أن الشطر الأكبر من تراثنا العلمي الحافل وثروتنا الأدبية الضخمة قد ضاع في غمار ما حل بالعالمين العربي والاسلامي من غزوات وحروب، وفتن ومجاعات، وحرائق وسرقات . يضاف إلى ذلك أن القدامى أنفسهم كانوا في الزمن السالف قد درجوا على محو ما لديهم من على صفحات الكتب في بعض الأحيان ليعاودوا الكتابة في رقوقها بنية نسخ مؤلف جديد أو تدوين أمور أخرى ، وذلك بسبب انتاج القراطيس من ورق البردي أو رقوق الجلد أو سعف النخل وارتفاع كلفتها في تلك العصور .

عصور الأدب وأشهر العلماء فيها :

لقد تدفق التراث العربي الحافل خلال عهود مديدة كان يتراوح خلالها بين مد وجزر ، ونشاط وركود ، وتجديد وتقليد . ولا بد لنا من اتخاذ العصور التاريخية إطاراً لعهود العلوم والآداب والفنون حتى ندرك مسارها ونقف على حقيقة تطورها.

فالحقبة العباسية هي العصر الحقيقي للتدوين والتأليف ، وتعد أزهى الحقب العربية حضارة وثقافة ، فضلاً عن امتدادها خلال عهد طويل دام أكثر من خمسة قرون (١٣٢ - ٦٥٦) ، يمكننا أن تتبين فيه عدداً من العصور تبعاً للأحداث السياسية التي عاشت في ظلها الحركة العلمية والفكرية :

---

[49] ياقوت الحموي ،معجم الأدباء، 8/6.

[50] المرجع نفسه ،259/6 .

[51] ول وليويل ديورانت ، قصة الحضارة ،تقديم محي الدين صابر،ترجمة زكي نجيب محمود ، بيروت ج13/ص 171.

أ - العصر العباسي الأول ، ويبدأ من سنة قيام دولة بني العباس على انقاض دولة بي أمية سنة ١٣٢ هـ وينتهي بعد قرن من الزمان أي في سنة ٢٣٢ هـ تولي المتوكل الخلافة . وهو العصر الذهبي في استقرار الحكم وهيبة الخلافة . وفيه ظهر عدد من العلماء الرواد في والنحو والفقه والتشريع وأبي كأبي عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه والكسائي والأصمعي وعيسى بن عمر عبيدة وأبي زيد في اللغة والنحو . والمفضل وحماد وأبي والفراء وأبي الشيباني وابن سلام وابن الأعرابي في رواية الشعر ونقده ، والشافعي حنيفة ومالك وابن حنبل في الفقه والتشريع ، وأبي العتاهية وبشار وأبي نواس وأبي تمام في الشعر وابن المقفع والجاحظ في النثر...

ب - العصر العباسي الثاني ، وقد دام أيضا زهاء قرن من الزمان (٢٣٢-٣٣٤) . فهو ينتهي في سنة تقلد البويهيين مقاليد الحكم في بغداد . وقد نشطت خلاله الحركة الأدبية نشاطاً ملحوظاً ، فازدهرت علوم العربية وظهر جيل من العلماء الكبار في الفقه والحديث مثل البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والطبري والبغوي وعبد الله بن أبي داود السجستاني والحسن بن زكريا العدوي ويحيى بن محمد بن صاعد وأبي بكر بن مجاهد وأبي يعلى الموصلي .. يقابلهم ابن قتيبة وثعلب والمبرد في الأدب والأنباري وابن درستويه وابن دريد والزجاج والأخفش ونفطويه وابن الأزهر.. في اللغة والنحو . والبحتري وابن الرومي ودعبل وابن المعتز في الشعر . والكندي والفارابي والرازي في الفلسفة والطب والعلوم .

ج - العصر العباسي الثالث ، (٣٣٤ - ٤٤٧) وهو العصر الذي حكم خلالة البويهيون . وهو بحق أزهى العصور العربية حضارة ، ففيه بلغت الثقافة العربية أوج تفتحها واتسمت بالغنى والاتساع والتنوع . وقد عم هذا الازدهار أقطار المشرق والمغرب على السواء. إنه عصر سيف الدولة والناصر والحكم ، عصر المتنبي وأبي فراس والمعري والرضي والمرتضى وابن هاني، وابن خالويه وأبي الفرج والقالي وابن فارس والأزهري والزبيدي والجوهري وقدامة وأبي حيان والصاحب وابن العميد والآمدي والعسكري والجرجاني والثعالبي والهمذاني ، وابن النديم والمسعودي وابن سينا والبيروني والخوارزمي ...

وقد غصت أبهاء المساجد وحلقات الدرس في هذا العصر بطلاب العلم والمريدين ونشطت حركة تأليف الكتب ونسخها وعمرت المكتبات بآلاف المخطوطات . ويذكر المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تضم نحواً من أربعمئة ألف مجلد وأن عدد فهارس الدواوين والمجموعات الشعرية فيها أربعة وأربعون فهرسا .

د-العصر العباسي الرابع ، (٤٤٧ ٦٥٦) وينحصر بين تسلط السلاجقة على بغداد وبين سقوط عاصمة الدولة العباسية آخر الأمر في أيدي التاروز عيمهم هولاكو . وقد حفل هذا العصر بالاضطراب السياسي وكثرة الفتن والثورات والحروب ، وفي إبانه حدثت الغزوات الصليبية ، ثم اجتاح جنكيز خان القائد المغولي البلاد الاسلامية وكان عهده وعهد هولاكو من بعده شؤماً على العلم ووبالاً على الحضارة الإنسانية التي احتضنها العرب وحملوا شعلتها الوهاجة عدداً من القرون . وقد روي أن مياه دجلة جرت سوداً من كثرة ما ألقي فيها من الكتب والصحائف . ولم يعد هناك من يرعى العلم ويشجع الشعراء ورجال الفكر والفن.

وممن نبغ في هذا العصر في الشعر ابن الفارض وابن مطروح والبهاء زهير والطغرائي وابن خفاجة وابن سهل وابن حمديس ، كما نبغ في اللغة والأدب التبريزي والحريري والجواليقي وابن الشجري والأنباري والعكبرى والزوزني وعبد القاهر والزمخشري والراغب الأصفهاني والميداني وابن بسام .

وعرف في مضمار التاريخ والتراجم ابن عساكروعز الدين بن الأثيروالقفطي والسمعاني وياقوت، وفي المعارف الفلسفية والفكرية ابن حزم والغزالي والشهرستاني وابن العربي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد...

(656 هـ-923 هـ):

وهكذا تسقط بغداد ويطيح المغول بخلافتها فتنتهي الحقبة العباسية لتبدأ حقبة أخرى تتسم بالانحطاط السياسي والضعف العلمي والحضاري. وكان الحكام في الغالب من غير العرب. وفي إبان هذه الحقبة التي تمتد من سنة ٦٥٦ إلى ٩٢٣ هـ يتعرض الشرق العربي لحملة مغولية أخرى بزعامة تيمور لنك ثم لا يلبث العرب في أواخر هذا العصر أن يخرجوا من الأندلس.

(923هـ وما بعدها):

وبعد ذلك يبدأ عهد آخر من الضعف والركود منذ دخول العثمانيين إلى بلاد العرب سنة ٩٢٣ هـ حتى مجيء نابليون الى مصر سنة ١٢١٣ هـ

وقد ظهر من الشعراء في هذه الفترة البوصيرى وابن نباتة وصفي الدين الحلي.. وقلما نبغ سواهم في الشعر، أما التأليف في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا فقد كاد أمره يقتصر على مصر والشام واتسم بمقدار من التقدم: فكان من أبرز المصنفين في الأدب القلقشندي والنويري والأبشيهي وابن خلكان وفي التاريخ والجغرافيا ابن خلدون وأبو الفداء والمقريزي والقزويني وابن بطوطة، وفي النحو واللغة والمعاجم ابن مالك وابن هشام وابن آجروم وابن منظور والفيروز ابادي والسيوطي...

وبعد ذلك تبزغ شمس النهضة الحديثة على بلاد العرب فإذا العلوم والآداب تنطلق من جديد لتعيد سيرتها الأولى وتسير بالأمة العريقة إلى الأمام من جديد.

قسم اللغة العربية وآدابها

المجامع الشعرية القديمة:

كان الشعر العربي - في روايته وجمعه وتدوينه - محور كثير من العلوم والمعارف، فهو يهم الأدباء والنقاد من الوجهة الفنية الجمالية، كما يهم اللغويين والبلاغين والعروضيين والنحويين، ويهم أيضا المفسرين وشراح الحديث والمهتمين بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ومختلف أحوالهم. وقد نجد في هذا الشعر أيضاً مجالاً لدراسات أخرى في هذا العصر تلقي مزيداً من الضوء على حياة العرب الاجتماعية ونزعاتهم النفسية واتجاهاتهم الفكرية.

وقد كثر الرواة في أوائل العصر العباسي ونبه شأنهم وأصبح الكثير منهم محترفين للرواية منقطعين إليها، وفي طليعتهم أبو عمرو بن العلاء الذي كان إماماً في اللغة والرواية والقراءات وشيخ جيل من العلماء، وأبوعمرو الشيباني والأصمعي وأبوزيد الانصاري وأبو جعفر الرؤاسي ومحمد بن حبيب وعيسى بن عمر والمفضل الضبي وخلف الأحمر وحماد بن ميسرة وأبو الحسن الطوسي وابن الأعرابي وابن سلام الجمحي وأبو سعيد السكري.. وقد تصدى هؤلاء العلماء لجمع الشعر في جملة ما تصدوا لجمعه من لغة العرب وأيامهم وأخبارهم وأمثالهم، يسعفهم على ذلك ذكاء وقاد وقريحة صافية وذاكرة عجيبة. فكانوا يروون معارفهم بتدفق ويرتجلونها عن ظهر قلب.

وكتب الأدب حافله بأخبار هذا الجيل من علماء العربية وغزارة علمهم واتساع محفوظهم. وقد ذكر عمر بن شبه أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة عدا القصيد. كما أورد ابن قتيبة في مقدمة«الشعر والشعراء» [52] أن واحداً من الرواة واسمه أبو ضمضم أنشد بعض الفتيان مرة لمائة شاعر، وقال مرة أخرى ثمانين شاعراً كلهم اسمه عمرو. ولم يكن أبو ضمضم بأروى الناس.

واتخذ العلماء في روايتهم لشعر العرب طرائق جمع الحديث وحذوا في ذلك حذو علمائه، من حرص على تسلسل الرواية وصحة الإسناد، وإن لم التدقيق والتشدد ما بلغه الفقهاء والمحدثون. وفي هذا الصدد نقف على خبر ذكره ياقوت حول لغوي قديم من الكوفة توفي سنة ١٤٧ هـ اسمه عوانة بن الحكم الأعمى، وكان عالماً بالفتوح والشعر، وكان الأصمعي في جملة من أخذوا عنه الأخبار. هذا العالم كان فيما يبدو لا يعير المصادر التي كان يستقي منها اهتماماً كبيراً. فالأصمعي يذكر كيف أن عوانة أورد قصيدتين وأنه سئل لمن عسى أن تكونا، فأجاب بانفعال يشوبه المزاح قائلا: «أنا تركت الحديث بغضاً مني للإسناد، وليس أراكم تعفونني منه في الشعر!!» [53]

وهذا يعني تشدد العلماء في الحرص على السند حتى في الشعر، وأن قلة منهم في مقابل ذلك كانت تضيق ذرعاً بهذا التشدد.

كتب الاختيارات:

ولم يكد يمضي صدر العصر العباسي حتى صار للعرب مجموعات ضخمة من المعارف والآداب بلسانهم من شعر ونثر وخطب وأمثال ونوادر وأخبار. وكان للشعر من ذلك أوفى نصيب. وبوسعنا أن نميز بين ثلاثة سبل سلكها الرواة في تصنيف الشعر العربي:

ا - تدوين أشعار القبائل، وذلك انطلاقاً من طبيعة النظام الاجتماعي السائد عند العرب ، والحرص على مراعاة الشخصية القبلية التي قد تتميز بلهجتها وتستقل بشعرائها وتنفرد بأيامها ووقائعها . وقد عصفت الأيام بأكثر ما ألف في هذا اللون.

قسم اللغة العربية وآدابها

ب - صناعة دواوين الشعر المفردة:

فقد أولى الرواة من تقدمهم من الشعراء عناية كبيرة إلى جانب عنايتهم بجمع أشعار القبائل، فظهرت لأول مرة دواوين امرئ القيس وزهير ولبيد والأعشى والنابغة والحطيئة والفرزدق.. والكثيرين أمثال هؤلاء الشعراء. وهذا اللون من التأليف طفى واتسع وساد، والأمثلة عليه كثيرة معروفة.

ج - تصنيف المجموعات الشعرية المختارة: وهو النمط الذي حظي باهتمام خاص من العلماء والنقاد والذي يجدر بنا أن نقف عنده.

ولا بد أن تشير إلى أن هذه الأنماط من المجموعات الشعرية لا تشكل مراحل بالمعنى الصحيح، فهي ليست في حقيقة الأمر إلا حركة واحدة دائبة في محاولة جمع الشعر واستيعابه وحفظه. كانت تنطلق في أوجه متعددة وتنطوي على

---

[52] ابن قتيبة .الشعر والشعراء. المقدمة.

[53] عمر الدقاق .مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم .ص 34.

أنماط متنوعة. والرواة أنفسهم كانوا يعنون بالتأليف في عدد من هذه الأنماط. فأبو عمرو الشيباني وأبو سعيد السكري وأمثالهما كانوا يصنفون أشعار القبائل ويصنعون في الوقت نفسه الدواوين المنفردة للشعراء.

والأمر الآخر أن هذه المصنفات على تنوعها كانت تدور في الغالب داخل فلك الشعر القديم دون أن تتعداه إلا في القليل أو النادر. وهذه المجموعات كلها لم تكن في الواقع إلا المدرسة الكبرى التي تخرج فيها الشعراء المحدثون في العصر العباسي.

لقد انطوت المجموعات الشعرية المختارة على جانب عزيز من أشعار العرب المبددة، وأكثرها عرف بأسماء رواته وجامعيه كالمفضليات والأصمعيات وحماسة ابي تمام وحماسة البحتري ... فقد بدا للرواة والمصنفين بعد تراكم هذا النتاج الشعري لدى العرب. العسير الإحاطة به واستقصاء، وأن الخاصة فضلاً عن العامة ينوؤون بحمله. فكان لا بد من انبثاق ظاهرة الاختيار هذه.

وكانت ثمة بواعث أخرى على تأليف هذه الاختيارات، منها ارتباط الأدب الوثيق بمجالس الخلفاء والأمراء. وهؤلاء يدرون المال حين يسرهم الكلام ويطربهم الشعر. والأدباء بحاجة إلى المال يستعينون به على شؤون معيشتهم فلا عليهم أن يعكفوا على تخير ما يحسن يروى في هذه المجالس. ومن هذه الأسباب أيضا أن هؤلاء العلماء والادباء قد يعهد إليهم بتربية أولاد الخلفاء، والأمراء كما كان شأن الجاحظ والمفضل والقالي والفراء والكسائي. فيختارون لهم ما يرتقي بأذواقهم ويصقل مواهبهم.

ثم أن عملية الانتخاب هذه خضعت أيضاً لسنة النشوء والارتقاء، فبدأت ساذجة لا فيها بأكثرمن انتقاء النصوص وما يستحسن فيها من الأخبار والأشعار، سواء أكان ذلك في كتب الأدب أم في مجموعات الشعر.

وهذه الظاهرة بادية فيما صنفه المفضل والأصمعي وفيما ألفه الجاحظ والمبرد.. دونما ضابط من نظام أو تبويب.

وانتقلت عملية الاختيار بعد ذلك خطوة أخرى نحو الكمال والترتيب في مثل حماستي البحتري وأبي تمام وكتابي عيون الأخبار والعقد الفريد.. وما إلى هذه الكتب. فأصبحت المختارات المتشابهة تتضام بعد تفرق لتنضوي تحت عنوان كبير واحد من مثل باب الحماسة أو المراثي ومثل كتاب الصفات أو الحرب.

وعلى الرغم من تشابه كتب المختارات واستقائها من مصادر واحدة فقد كان لكل كتاب طعم ينم على ذوق صانعه ولون يدل على شخصية مؤلفه، فضلا عن غلبة لون من الأدب على كتاب قد لا ينطوي عليه كتاب آخر.. وهكذا فان مثل هذه الكتب على تشابهه في كثير من الأحيان يكمل بعضه بعضاً ويرسم لنا صورة متكاملة للمنازع الذاتية والملامح الشخصية التي نسعى إلى تلمسها ورصدها في الوجدان العربي.

وإذا كانت مجموعات الشعر المختار تستوي مع مجموعات شعر القبائل الدواوين الخاصة بكل شاعر من الشعراء في أن لها قيمة علمية وتاريخية كبرى، فإنها قد تمتاز عن النوعين الآخرين في أنها تنطوي أيضاً على قدروإن يكن يسيراً. من النقد الأدبي بصورة غير مباشرة، لأنها تقوم في الأصل على تحكيم الذوق في العناصر الفنية التي تسري في داخل قصائدها. إذ ليس مدار الأمر فيها على التتبع والتقصي والاكتفاء بالرصد والتسجيل بل على اصطفاء الأجمل وانتقاء الأفضل واختيار الأمثل. وهذا منطلق النقد وأساس الحكم الأدبي. ومن هنا أيضاً كان للمفضليات شأنها وكان الحماسة أبي تمام منزلتها. ومن هنا أيضاً كانت أمثال هذه المختارات أشمل في دلالتها على روح عصرها وأبلغ في الكشف عن ذوق صاحبها.

ولم يؤثر عن العرب قبل تصنيف هذه المجموعات من الاختيار إلا ما يروى من استحسانهم لبيت أو لمجموعة من أبيات وما يروى من تنازعهم على أفخر بيت للعرب وأهجاه وأغزله، وما يروى عن اختيار مبكر في العصر الجاهلي للقصائد المعلقات.

الحرص على الشعر القديم:

مما هو جدير بالملاحظة أن عناية الرواة الأوائل اتجهت في بادئ الأمر إلى رواية الشعر القديم وبخاصة الجاهلي حتى كادت تقصر جهدها عليه. وهذه ظاهرة طبيعية تجاه نتاج أدبي حافل طال عليه الأمد قبل أن يحظى بالجمع والتدوين، ومع ذلك فقد تعرض جانب كبير منه للضياع قبل أن يتدارك أولئك الرواة ما تبقى منه، وكان ذلك منهم عملاً جليلاً. فعلى الرغم من ان طبقة جديدة من الشعراء المحدثين الذين عرفوا بالمولدين عاصرت أبرز رواة الشعر والأخبار ابتداء من القرن الثاني، فانهم لم يحظوا باهتمام اولئك الرواة والمدونين الذين كانوا منصرفين بدأب إلى جمع القديم واستيعابه ثم حفظه في الصحائف والمدونات. وهذا أمر طبيعي ومألوف في تأريخ الآداب: إذ كيف يجنح الرواة والمدونون إلى جمع نتاج معاصريهم من المتأخرين على حين يبقى نتاج الرواد والسابقين مبدداً. إن عملية تأريخ الأدب بطبيعتها تالية لمرحلة النتاج الأدبي والإبداع الفني، وكان لا بد من انقضاء أمد حتى تنجلي الأمور وتهدأ المنازع وتتضح المعالم، وحتى يقوم الزمن بغربلة النتاج ويتسنى للناس التمييز بين الغث والسمين مما صار إليهم من قرائح الأدباء.

يضاف إلى ذلك أن الناس في كل زمان ومكان درجوا على قلة الاحتفال بأمر النوابغ من معاصريهم، وقلما يبلغ الأحياء ما هم أهل له من الشهرة ونباهة الذكر، على حين يفطن إليهم الناس بعد إغفال، ويذكرونهم بعد نسيان. وقد ينسجون حولهم هالة من الاكبار والتعظيم ويبعثونهم من مراقدهم في كثير من الإجلال.

ولذلك قلما وقعنا في تلك المجموعات الشعرية المختارة على شعر محدث، على كثرة الشعراء المحدثين الذين عاصروا أولئك الرواة في إبان العصر العباسي. يؤيد ذلك ما تضمنته مجموعات المفضليات والأصمعيات وكتب الحماسة وسائر المختارات. حتى إن أكثر من صنف في الشعر عصرئذ كان سلام وابن المعتز حصر اهتمامه في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دون أن يتعداهم إلى الشعراء العباسيين. وقد غالى بعضهم في إيثار ذلك الشعر القديم وبالغ في الاحتفال به، على حين أشاح بوجهه وأعرض عن الشعر المحدث، وبلغ ذلك من العلماء حد التعصب لكل قديم والإزراء بكل جديد.

على أنه لم يكن أمام هذا الاندفاع إلا أن يتئد، فتقر المنازع وتتضامن، فلا تلبث موجة التعصب والمغالاة أن تنحسر وبخاصة بعد أن أنبت الشعر المحدث قوته ومضارعته للقديم حين نبغ في العصر العباسي عدد من الشعراء الفحول الذين أضافوا أمجاداً طارفة إلى تالد الشعر العربي. وكان الأدب القديم قد دون في جملته، ثم آن للعلماء أن يلتفتوا إلى الشطر الآخر من التراث المتعاظم.

وقد صدرت أول بادرة من بوادر الاهتمام بالشعر المحدث وإنصافه عن علم من أعلام الرواية في الشعر القديم هو أبو عمرو ابن العلاء ، فقد راح يقول : " لقد كثر هذا الشعر المحدث وحسن حتى لقد همت بروايته"[54]. ولم تترجم هذه

[54] ابن قتيبة الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف ، القاهرة 1966، 63/1 .

الرغبة إلى حقيقة علمية إلا بفضل ابن قتيبة في القرن الثالث حين نظر« بعين العدل على الفريقين » ، « إذ لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم» [55].

على أن كسر طوق التعصب للقديم لم يكن أمراً ميسوراً لتغلغل مكانة القديم في النفوس وتمكن جذوره لدى الأجيال العربية الأولى. كما لم يكن من اليسير ان يحدث هذا الانعطاف في ظل الأعراف السائدة وتحت وطأة تقديس الماضي التليد. وهكذا كان الأمر شاقاً، حتى إن ابن قتيبة نفسه حامل لواء التسوية بين الشعراء، قدماء كانوا أم محدثين، لم يستطع .عن قصد أو غير قصد . ان يخرج بآرائه تلك من حيز النظر إلى حيز التطبيق ، وذلك حين جعل كتابه مقتصراً على الشعراء الجاهليين والإسلاميين دون أن يتعداهم إلى المحدثين فكان شأنه في هذا المجال كشأن سواه من الرواة والمصنفين .

ثم أعقب ذلك جيل من العلماء أخذوا يعنون برواية الشعر المحدث ونقده وتحليله عنايتهم بالشعر القديم. ولم يمض أمد قصير حتى مال الكثيرون إلى الشعر المحدث من مثل أبي بكر الصولي والحسن بن بشر الآمدي وأبي الحسن الجرجاني، ويحيى بن علي التبريزي وابن جني وابن خالويه. حتى إن بعضهم راح يقصر جهده على شعر المحدثين في مقابل ما كان من أمر أسلافهم تجاه شعر الأقدمين. ومن أبرز هؤلاء الأدباء والمؤلفين أبو منصور الثعالبي وابن بسام الأندلسي. وبرز جيل آخر من العلماء الذين أخذوا يواكبون من يعاصرونهم من الشعراء ويحرصون على صناعة دواوينهم ورواية أخبارهم و شرح أشعارهم.

وجملة القول أن الشعر – بحق- ديوان العرب وترجمان أفكارهم ومعرض نبوغهم وعنوان مفاخرهم. وهو إلى ذلك المرآة الصادقة لحياتهم والصورة الحية لنزعاتهم وأفكارهم وآلامهم ومطامحهم. وهو الذي حفظ على العرب مجدهم الأدبي وتجلت فيه قدرتهم على البيان وبراعتهم في فن القول. ولسنا نعرف أمة تغلغل الشعر في حياتها تغلغة في العرب. ونظرة واحدة إلى ترأنا الأدبي تجعلنا نخال أن جميع العرب شعراء. فمن لم يمتلك موهبة نظم الشعر لا بد أن يتذوقه ويطرب له ويستشهد به. ولهذا حظي الشعر بعناية مبكرة من قبل العلماء وأقبلوا على روايته وتدوينه واتخاذه عمدة في تفسير آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وغير ذلك من ضروب المعرفة. حتى غدا محور علوم العربية بما تشتمل عليه من لغة وصرف ونحو وبلاغة وعروض..

[55] المصدر نفسه، 1/ 64 .

1 - المفضليات

لا نعلم أحدًا قبل المفضل الضبي المتوفي سنة 168 هـ ، 687 م أقدم على أن يصنع للناس اختيارًا من الشعر. وعلى ذلك يكون كتاب " المفضليات " رائد المصنفات في هذا المجال. ويعود تأليفه إلى وقت مبكر نسبيًا. وذلك حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة. والمفضل علامة رواية للأخبار والآداب وأيام العرب موثق في روايته. وأحد القراء البارزين. وهو كوفي. قال عنه ابن سلام الجمحي: " أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي "[56].

أما سبب تأليفه الكتاب فتتحدث عنه كتب التراجم في قصة ذات صلة بالأحداث التاريخية في أوائل العصر العباسي. وفحواها أن المفضل كان في جماعة إبراهيم بن عبد الله من ولد علي بن أبي طالب وخرج معه ثائرًا فيمن خرج على الخليفة المنصور. وقد ظفر به أبو جعفر بعد ذلك بعد أن وقع بيده أسيرًا. ثم عفا عنه. وألزمه المهدي ابنه ليكون مؤدبا له. وللمهدي اختار هذه القصائد. وفي رواية أخرى أوردها أبو الفرج الأصفهاني أن المفضل نفسه قال: " كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متواريًا عندي فكنت أخرج وأتركه. فقال لي: إنك إذا خرج ضاق صدري. فأخرج إلي شيئا من كتبك أتفرج به. فأخرجت إليه كتبًا من الشعر. فاختار منها السبعين قصيدة التي صدرت بها اختيار الشعراء ثم أتممت عليها باقي الكتاب "[57] .وذكر أبو علي القالي في كتابه " الأمالي " : " أن المفضل أخرج من القصائد ثمانين للمهدي. وقرئت بعدُ على الأصمعي فصارت مائة وعشرين "[58]. ثم اختار أصحاب الأصمعي قصائد أخرى اختاروها وضموها إلى المفضليات. وفي رواية أخرى أوردها الأنباري في مستهل شرحه للمفضليات أن الخليفة المنصور هو الذي تقدم إلى المفضل في قصائد للمهدي.

ومهما يكن من أمر. فإن هذه الأخبار تتفق في جوهرها على أن المفضل الضبي هو مَن تنسَب إليه لك المجموعة الرائدة. وتبلغ قصائدها 128 قصيدة. وقد تنقص عن ذلك قليلًا أو تزيد فتصير 130. كما أن بعضها قد يتقدم أو يأخر على حسب الرواية. والرواية المعتمدة هي التي رواها ابن الأعرابي عن المفضل.

أما تسمية المجموعة بـــ " المفضليات " فيغلب على الظن أنها لم تطلق من قبل المفضل نفسه وإنما نسبت إليه وعرفت بذلك من بعده.

وتبوأ المفضليات منزلة رفيعة بين مجموعات الشعر القديم. فهي بالإضافة إلى قيمتها التاريخية وإبقائها على جانب هام من الشعر الجاهلي الذي كان عرضة للضياع وأنها أقدم مجموعة شعرية. تمتاز أيضًا بأن قصائدها قد أثبتت فيها كاملة لم يتجزئ منها المفضل قليلًا ولا كثيرًا. وأنها أيضًا تحتوي نخبة من أشعار المقلين. والشعراء جلهم جاهلي وقليل منهم مخضرم وإسلامي ويبلغون سنة وستين شاعرًا. روي لهم في هذه المجموعة من الأشعار نحو 2700 بيت. نذكر من بينهم تأبط شرًا. ومتمم بن نويرة. والحصين بن الحمام المري. والمزود. والشنفرى وسلامة بن جندل والمرقش الأكبر

---

[56] ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. ص234.

[57] أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني. 187/9.

[58] أبو علي القالي. الأمالي. ص62.

والمرقش الأصغر والمثقب العبدي وذا الإصبع العدواني، وبشر بن أبي خازم،وعامر بن الطفيل وأبا ذؤيب الهذلي ... وغيرهم.

وقد حظيت المفضليات بعناية عدد من الشراح القدامى في مقدمتهم الأنبارى – (305 هـ) وشرحه أقدم الشروح وأهمها وأوفاها، ومنهم ابن النحاس – (338هـ)، والمرزوقي – (421 هـ)، والتبريزي – (502 هـ)، والميداني- (518 هـ)...

كذلك لقيت المفضليات اهتمام العلماء في عصرنا هذا فاهتمّ بنشرها وضبط نصوصها وتحقيق أصولها نخبة من المستشرقين ومن العرب.

2 - الأصمعيات

يعد الأصمعي في الطليعة من العلماء الأقدمين، كان قوي الذاكرة غزير المحفوظ متمكنًا في اللغة عالمًا بأنساب العرب وأيامها وأخبارها وأشعارها وأرجازها وصفة المبرد بأنه "بحر في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية ". ومن كتبه العديدة، مجموعته الشعرية المعروفة بـ" الأصمعيات ".

والأصمعيات هي المجموعة الشعرية الثانية بعد المفضليات وعد متممة لها. وقد أطلق عليها هذا الاسم من قبل تلاميذ الأصمعي شأنها في ذلك شأن المفضليات قبلها تميزًا لها من مجموعة المفضل. ومع ذلك وقع الاختلاط بينهما وحدث التداخل بين بعض أشعارها. وكثيرًا ما جمع الوراقون في القديم بين المفضليات والأصمعيات في كتاب محظوظ واحد. فالتبس الأمر على بعضهم فعد قصائد من المفضليات على أنها أصمعيات.

كذلك اقتصرت مجموعة الأصمعيات على الشعر القديم وبخاصة الشعر الجاهلي وجانب من شعر المخضرمين والإسلامين. وكثير من الشعراء نجدهم أيضًا في المفضليات ولكن في قصائد أخرى. وممن اختار لهم الأصمعي دريد ابن الصمة وعروة بن الورد وعمرو بن معد يكرب ومهلهل بن ربيعة والمتلمس والمنخّل والسموءل ومالك بن نويرة... وبلغ عدد هؤلاء الشعر اثنين وسبعين شاعرًا كانت قصائدهم اثنين وتسعين قصيدة ومجموع أبياتها 1439 بيتًا.

نشرت الأصمعيات أول مرة في ليبزيغ بألمانيا سنة 1902 ثم نشرت في طبعة علمية محققة بالقاهرة سنة 1955 [59].

3 –المعلّقات:

المعلّقات هي القصائد الشهيرة لسبعة من فحول الشعر المتقدمين في العصر الجاهلي. وتعرف أيضًا باسم السبع الطّوال وبعضهم يدعوها السبعيات أو المذهبات أو السموط...

والشائع أن الرواية حماد بن ميسرة هو الذي جمع هذه القصائد. وكان حماد معاصرًا للمفضل الضبي، ويعد من أعلم النّاس بالشعر وأرواهم له.

والآراء تتضارب عند القدماء وعند المعاصرين على السواء حول أصل تسمية هذه القصائد بالمعلقات، فبعضهم ينكرها وبعضهم يثبتها. ومما جاء في العقد الفريد قول ابن عبد ربه " بقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال مذهبه

[59] عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ص46.

امرئ القيس ومذهبة زهير والمذهبات السبع "[60]. ولا يخرج ما قاله ابن رشيق في كتابه (العمدة) عن ذلك. وقال البغدادي: "ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد. حتى يأتي مكة موسم الحج فيعرضه على أندية قريش. فإن استحسَنُوه رُوي وكان فخرًا لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه. وإن لم يستحسنوه طرح ولم يُعبأ به. وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس"[61].

وبعضهم ينسب إلى حماد بن ميسرة جامع المعلقات وراويها أنه هو أيضًا أول من أطلق عليها اسم المعلقات. أما ابن النّحاس (أحمد بن محمد – 338) فهو يعتقد بأن حمادًا هو الذي جمع السبع الطوال ورواها. غير أنه يشك في قصة تعليقها على الكعبة.

والحق أن أعلام المتقدمين كالجاحظ والمبرد وابن قيبة وأبي الفرج لم يذكروها بهذا الاسم ولم يوردوا قصة تعليقها. ما عدا أبا زيد القرشي. فهو يذكرها باسم المعلقات في مجموعته الشعرية (جمهرة أشعار العرب) دون أن يعلق على تسميتها بشيء أو يشر إلى أمر تعليقها أيضًا في مقدمته المسهبة. كما أن كبار الشراح الذين تصدوا لتفسير القصائد السبع لم يذكروا قصة تعليقها. نذكر منهم الأنباري وابن النحاس والزوزني والتبريزي ...

وسواء علقت أم لم تعلّق فقد كانت هذه القصائد في نظر الأقدمين فخر العرب في الجاهلية ومن عيون الشعر المختار. وبعضهم يصل بها إلى عشر قصائد معلقات.

وقد لقيت المعلقات لشهرتها عناية بالغة من اللغوين والنقاد قام بشرحها كثيرون. لعل أقدمهم الأنباري شارح المفضليا. وهو شرح مسهب ينم على فضل صاحبه وغزارة علمه. فهو يشرحها من زوايا اللغة والنحو والتّاريخ والأنساب ويعالجها معالجة وافية تعتمد على المقارنة الجيدة. بإيراد الشواهد النادرة. وتحرص على إيضاح ما له صلة فنية بأسلوب القرآن والحديث[62]. وثمة شروح أخرى أقل إسهابًا وتمتاز أيضًا بالتركيز والوضوح أشهرها شرح التبريزي وشرح الزوزني. ولهذين الشرحين شيوع بين أيدي الدارسين.

4 - جمهرة أشعار العرب .

تنسب هذه المختارات الشعرية " جمهرة أشعار العرب " إلى أبي زيد القرشي. محمد بن أبي الخطاب. وهو شخصية غير معروفة لدينا. وتاريخ حياته وهويته يحيط بهما الغموض لأن الأقدمين لم يترجموا له فلم نعرف عنه أكثر مما عرفنا. وينجح بعض الباحثين إلى أنه توفي نحو سنة 170 هـ [63]. أي أنه من الجيل الذي عاصر المفضل أو أدركه. بدليل ما يرويه عنه مباشرة خلال مقدمة كتاب الجمهرة. والمرجح أن أبا زيد عاش بعد ذلك وأنه من رجال القرن الثالث. وذلك لأن القرن الثاني لم يعرف فيه المؤلفون مثل هذه النزعة إلى التنظيم والتبويب وكتابة المقدمات التي نلاحظها في كتاب القرشي. فضلًا عما يعتقده بعض المحققين من أن في مقدمة الكاب خلطًا وقع فيه النساخ بين المفضل الضبي وبين المفضل المجيري فحصل التباس في بعض الأذهان.

---

[60] ابن عبد ربّه. العقد الفريد. ص269.

[61] عبد القادر بن عمر البغدادي. خزانة الأدب. 61/1.

[62] الأنباري. شرح القصائد السبع الطوال. تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار المعارف. القاهرة. 1963.

[63] عمر الدقاق. مصادر التراث العربي. ص50.

وقد شاعت التسمية بالجمهرة خلال هذا القرن الثالث وما بعده كما شاعت تسمية مصنفات أخرى بالأمالي، فكانت أيضًا جمهرة اللغة لابن دريد ثم جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وجمهرة أنساب العرب لأبي الفرج...

ويمتاز كتاب جمهرة أشعار العرب عما تقدمه من الكتب في موضوعه بأمرين: مقدمه النقدية المسهبة وتبويبه الدقيق المحكم.

أما المقدمة فلا نعرف كتابًا انطوى عليها فيما تقدم من الكتب المماثلة كالمفضليات والأصمعيات ... ويمكننا أن نتبين فيها ثلاثة أقسام:

أ. استهل أبو زيد كتابه بقوله : " هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام الذين نزل القرآن بلغتهم، واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد في معاني القرآن وغيرب الحديث من أشعارهم، وأسندت الحكمة والآداب إليهم... " ثم يقارن المؤلف بين لغة الشعر ولغة القرآن مظهرًا أن القرآن لم يأت العرب بلغة جديدة وأن ما فيه من مجاز غيرب استعمله العرب في شعرهم.

ب. الكلام في أول من قال الشعر، ونسبة أبيات من ذلك إلى آدم وإبليس والملائكة والجن والعمالقة وبعض العرب البائدة كعاد وثمود...

ج. إيراد رأي النبي ﷺ في الشعر وأنه كان يسمعه ويجيزه. ثم الإسهاب في تعيين طبقات فحول الشعراء والمفاضلة بينهم وإيراد طرف من أخبار متقدميهم.

قسم اللغة العربية وآدابها

والمقدمة خطوة رائدة في مضمار النّقد الأدبي بالنسبة إلى عصرها. غير أنها مشوبة بهذه الاعتقادات التي تنسب الشعر إلى قوى خارقة للطبيعة أو إلى أناس موغلين في القدم دون إدراك واعٍ لسنة نشوء اللغات وتطورها.

أما صلب الكتاب وهو مجموع المختار من شعر الأقدمين فقد جعله مؤلفه في سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد لسبعة من الشعراء. وهذه الأقسام هي: المعلقات، المجهرات، المنتقيات، المذهبات، المرائي، المشوبات، الملحمات. وأكثر هذه الأسماء صفات للقصائد، فالمعلقات هي التي علقت أو تستحق أن تعلق على أستار الكعبة، والمجمهرات في الأصل النوق القوية المتداخلة الخلق كأنها جمهور من رمل، وقد شبه بها القصائد في متانة سبكها وقوة حبكها. ومن هذا القبيل الملحمات أي القصائد التي تلاحمت أجزاؤها. والمنتقيات والمذهبات تشيران إلى جودة الشعر، والمشوبات تعني أن أصحابها من المخضرمين أي الذين شابهم الكفر قبل أن يسلّموا.

ومن الملاحظ أن أكثر هذه التسميات ليس في حقيقته إلا صفا متشابهة لا تتمايز قصائدها فيما بينها في قليل أو كثير، باستثناء المرائي التي يؤلف بينها جامع مشترك في وحدة موضوعها. وهذا يعني أن تقسيم أبي زيد لمادة كتابه لا يعتمد على أساس واضح معلل، ولكنه على كل حال محاولة لا تنكر في مجال التنظيم والتبويب.

على أننا نجد هذا التبويب في جملته مصطنعًا لأنه التزم التقسيم السباعي. وما من ريب في أن أبا زيد تبنى ما تعارفت عليه العرب من قبل في جعل المعلّقات سبعًا ثم ما كان من استحسانهم سبعًا غيرهن، بدليل ما أورده في مقدمة الكتاب ناقلًا عن شيخه المفضل قوله: " امرؤ القيس وزهير والنابغة، ثم الأعشى ولبيد وطرفة وعمرو بن كلثوم أشعر الناس، وهؤلاء أصحاب السبع الطوال... وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعًا ما هن بدونهن، وهن المجمهرات

.." ثم يمضي أبو زيد على هذا النحو في تقسيمه سائر قصائد المجموعة تقسيمًا سباعيًا دون سبب معقول، وإلا فما معنى كون المرائي أو سواها سبعًا لا تزيد ولا تنقص ؟ ولم أيضًا كان للشاعر قصيدة واحدة فحسب أي أن في المجموعة تسعة وأربعين شاعرًا لهم تسع وأربعون قصيدة ؟ يغلب على الظن أن هذا التقسيم السباعي قد اسهوى المؤلف فالتزمه. ولا يخفى ما للعدد من منزلة في الفكر العربي والإسلامي.

على أننا أيضًا نستشف من وراء هذا التقسيم نزعة نقدية تتم على مبدأ الطبقات الذي ذاع أمره بعد جيل أبي زيد. وبوسعنا أن نستنتج هذه الملامح مما أورده المؤلف في مقدمته حول إجماع العرب على تقديم فئة من فحول الجاهلين، وهم أصحاب المعلقات الذين جعلهم طليعة كتابه، ثم كلامه على " أن بعدهن سبعًا ما هن بدونهن "، وهو يجعل المجمهرات في مجموعة تالية للمعلقات. وفي هذا تصنيف طبقي واضح يقوم على فكرة التفاضل بين فئات من الشعراء. غير أن معالم هذا التفاضل لا تلبث أن تغيب في سائر الشعراء الذين أورد أبو زيد قصائدهم بعد ذلك، إذ لم يعد يعني هذا أن المرائي في منزلة أعلى من المثوبات أو أن الملحمات في منزلة أدنى من المشوبات أو المرائي. وهذه خطوة أخرى خطاها الكتاب وإن لم تكن كاملة في مضمار النقد الأدبي والتصنيف الطبقي.

وتبقى " جمهرة أشعار العرب " مجموعة قيمة من الشعر المختار تعد مكملة للمفضليات والأصمعيات، وتنفرد بقصائد لا توجد في مصدر سواها. وقد نشرت أول مرة في مصر بمطبعة بولاق سنة 1308 هـ/ 1890م، ثم تلتها طبعات أخرى [64].

قسم اللغة العربية وآدابها

5 - الحماسة لأبي تمّام .

أبو تمام علم كبير من أعلام الشعر العربي، امتاز من شعراء عصره بنزعته إلى التجديد في معاني الشعر وصوره وعرف بسعة ثقافته وغزارة محفوظه وحدة ذائه. وقد طار صيته بعيدًا منذ أن ألف مختاراته الشعرية المعروفة بالحماسة.

وأبو تمام أول شاعر عربي مارس التأليف. ومختاراته الشعرية هذه تختلف عن المختارات التي تقدمته، لأن اختيار المرء كما يقال دليل على عقله. لقد كان المفضل الضبي راوية واسع الاطلاع، وكان الأصمعي وحماد وسواهما أيضًا من هذا القبل، وكلهم كان لغويًا عالمًا بالشعر يؤثر فيه الفصيح الجزل. غير أنَّ أبا تمام كان من طبيعة أخرى، فهو شاعر لطيف الحس مرهف النّفس حسن الثّقافة حافظ لقديم الشعر. وجدير بمثله أن يكون ذواقة للأدب بصيرًا به، وقادرًا على التمييزبين غثه وثمينه. فقد جعل الجمال الفني رائده في اختيار الشعر بالإضافة إلى ما كان يتوخاه فيه من فصاحة وجزالة. وهكذا حكَّم ذوقه فاختار ما اختار وأهمل ما أهمل، فكانت مختاراته تبعًا لذلك أسير على الألسنة.

ويبدو أن نزعة أبي تمام الفنية في تجويد الشعر وتنقيحه ظهرت أيضًا في مختاراته، وهذا بارز في أمرين:

أ. أنه كان قلما يثبت القصيدة كاملة، بل يختار معظمها أو أقلها محكمًا في ذلك ذوقه الشخصي، على حين لم يجنح الضبي والأصمعي إلى مثل ذلك.

ب. أن أبا تمام كان يلمح لنفسه في بعض الأحيان ان يتصرف تصرفًا جزئيًا فيما اختاره من شعر الآخرين كأن يستبدل لفظًا بآخر لم يعجبه، أو يحل عبارة محل أخرى يراها أجمل في النفس وأوقع في الأذن. وقد أشار إلى

---

[64] المرجع السابق، ص54.

ذلك المرزوقي في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام فقال: " ... حتى أنك تراه ينهي إلى الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده "[65]. وهذه الهمة، تهمة أبي تمام بتغيير النصوص التي اختارها يدعمها المرزوقي في أثناء شرحه بما يظهرها ويقويها. وقد لا يتوافر بين أيدينا من النصوص المقارنة ما يسمح لنا باستنتاج دليل قوي على ذلك وبمعرفة طبيعة هذا التغيير ومداه، كما أن ذلك قد يكون أحيانًا من أوجه روايات الشعر المتعددة. ونحن نرجح صحة ما ذهب إليه المرزوقي، فهو، من جهة، أقرب الشراح إلى عصر أبي تمام، ثم إن ذلك التدخل من قبل أبي تمام يتفق مع مذهبه الفني بصورة عامة في إيثاره المعاودة والتنقيح. ومثل هذا التصرف في بعض الأشعار وغن بدا محدودًا فقد كان جديرًا بأن ينزل بقيمة "الحماسة" عند العلماء باعتبارها نصوصًا يستشهد بها في علوم اللغة العربية. وكان حريًا بالنقاد الأوائل في ذلك العصر وجلّهم من اللغويين المتشددين الذين يجلّون الشعر الموروث أن ينكروا على أبي تمام تصرفه الشخصي في نصوص الآخرين على هذا النحو. غير أنهم قبلوا ذلك منه واسملحوه ثقة منهم بذوقه وتقديرًا لشاعريته. وكانوا مجمعين على تزكية الحماسة ونصوصها. بل يعدون صنيعة في الحماسة داعية إلى الوثوق بشعر أبي تمام نفسه والاستشهاد به، وفي ذلك يقول الزمرخشي في صاحب الحماسة : " وهو وإن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه"[66]. وهو أمر غريب أن يرفض العلماء ما كان يفعله حمّاد الرواية في القرن الثاني ويقباونه من أبي تمام في القرن الثالث والمُهِمّ في خماسة أبي تمام فضلًا عن أن عمله فيها ركن هام في حركة جمع الشعر إنما هو تبويبها. فقد جعل المؤلف مجموعة مختاراته في عشرة أبواب هي:

باب الحماسة، باب المراثي، باب الأدب، باب النسيب، باب الهجاء، باب الأضياف والمديح، باب الصفات، باب السير والنعاس، باب الملح، باب مذمة النساء.

والحق أننا لم نر أحدًا قبل أبي تمام قسم الشعر هذا التقسيم، فقد كان الجمع والاختيار يجريان اتفاقًا ودونما قاعدة أو نسق، كما هو الحال في المفضليات والأصمعيات. و واضح أن هذا التقسيم مستمد من طبيعة موضوعات الشعر نفسه وتفرعه إلى أغراض متعددة. وبذلك خلا تقسيم الخماسة من الافتعال وكان أقرب إلى حال الشعر العربي، ولا غرو في ذلك فأبو تمام شاعر في طليعة شعراء المعاني، وقد غدا في كتابه رائد من ألفوا وصنفوا في المختارات على حسب المعاني الشعرية.

أما اسم الحماسة فأغلب الظن أن أبا تمام نفسه قد أطلقه على مجموعته المختارة، وإن كان بعضهم يجنح إلى أن التسمية لحقت بها بعد وفاة أبي تمام. وكان مألوفًا لدى العرب إطلاق البعض على الكل وتسمية الشيء باسم الجزء على غرار ما كان عليه بعض سور القرآن كالبقرة والأنعام والنّمل. ثم انتشرت عادة تسمية الأشياء بأوائلها مثل "العين" للخليل الفراهيدي. وباب الخماسة أول الأبواب وأعظمها ويقارب نحوًا من ثلث الأشعار في المجموعة. وقد عرف كل من القصائد والمقطعات بعد ذلك باسم الخماسية ويبلغ مجموع هذه الحماسيات في المجموعة 881 حماسية.

---

[65] أبو تمام، الحماسة، شرح المرزوقي، المقدمة، ص8.

[66] ينظر: البغدادي، خزانة الأدب، 4/1.

وأبو تمام، شأنه في ذلك شأن المفضل والأصمعية وأبي زيد وحماد... كان في اختياره متجهًا إلى الشعر القديم وبخاصة الجاهلي إلا قليلًا مما أورده لبعض الشعراء المحدثين كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية ودعبل الخزاعي. وكان لشعراء طيئ قبيلته نصيب وافٍ من تلك الأشعار.

وممّا تقدم يبدو لنا أبو تمام في اختياره الشعر على هذا النّحو من تحكيمه ذوقه فيه واختياره بعضه وتركه بعضه الآخر، ثم في تعديله وتنقيحه لما يأنس فيه حاجة إلى تعديل أو تنقيح، بالإضافة إلى فرزه لموضوعات الشعر وتصنيفه إياها في كتابه على حسب أغراضه... كل ذلك يجعل أبا تمام في نظرنا ناقدًا وذواقة أكثر منه جامعًا لقصائد الشعر أو مسجلًا لطائفة من نصوصه، على الرغم من أن مثل هذا النّقد تأثري محدود يرتكز إلى التّذوق وحده دون أن يشفع برأي معلل.

وقد أطنب القدماء من قبل في منزلة كتاب الحماسة وأشادوا بفضل أبي تمام فيه. وفيه قال المرزوقي "وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطعات أنقى مما جمعه أبو تمام، ولا في المقصدات أوفى مما دوّنه المفضل" [67]. وبلغ الأمر ببعضهم كما يروي التبريزي أنهم كانوا يقولون:" إن أبا تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره " [68].

ونتيجة لاستفاضة شهرة هذا الكتاب وذيوع فضله فقد غدا نموذجًا يحتذى في موضوعه، حتى إن اسم الحماسة أصبح رمزًا للشعر المختار عامة بعد أبي تمام. وقد جنح الكثيرون على أثر ذلك إلى تأليف كتب مماثلة في هذا المجال وهم يبلغون بضعة عشر رجلًا كلهم حذا حذو أبي تمام في حماسته وآثر لكتابه اسم الحماسة.

أما شراح الحماسة فكانوا أكثر من ذلك وتجاوزوا العشرين عددًا، أشهرهم المرزوقي والتبريزي، ومنهم أبو بكر الصولي وابن جني والآمدي وأبو هلال العسكري والأعلم الشنتمري، وأبو العلاء المعري وابن سيده والعكبري ...

وقد يكون للواحد من هؤلاء شروح متعددة كما هو شأن التبريزي الذي تصدى لمجموعة الحماسة في ثلاثة شروح متفاوتة: موجز ومفصل ثم وسيط، والأخير هو المتداول بين أيدينا.

ويعد شرح المرزوقي أفضل الشروح التي بين أيدينا، وذلك من وجوه عديدة، فهو من أقدم الشروح وأقربها إلى عصر أبي تمام، كما أنه من أوفى هذه الشروح وأكثرها تقصيًا. وهو برغم سبقه لشرح التبريزي يفضله بعبارته الرصينة المخيرة وباهتمامه بالجانب النّحوي في النّصوص لغرض تفسيرها، وأخيرًا يمتاز بمقدمته النقدية القيمة. على حين أفاد التبريزي من شروح متقدميه وفهم المرزوقي نفسه وعني بالاشتقاق واللغة وبمسائل التصريف، وإيراد جانب من أخبار الشعر ومناسباته التاريخية، والكلام على أسماء الشعراء واشتقاق أعلامهم. ويمكن القول إن المرزوقي كان أديبًا محلِّلًا بينما كان التبريزي مفسرًا مُدّقِقًا.

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

6 - دواوين القبائل :

ديوان الهذليين:

---

[67] عمر الدقاق، مصادر التراث العربي، ص61.

[68] المرجع نفسه، ص61.

كانت القبيلة في العصر الجاهلي المظهر البارز لحياة العرب الاجتماعية. وكانت لها شخصيتها المتميزة التي تعتمد على رفعة النسب وعراقة الأصل وتتجلى أمجادها في الكرم والوقائع. كذلك كان للقبيلة شعراؤها الذين تباهي بهم سائر القبائل وتتخذ منهم درعًا واقية لأحسابها وأعراضها.

وهكذا عني الرّواة الأوائل بجمع أيام القبيلة كما عنوا أيضًا بجمع أشعارها ويعد أبو عمرو الشيباني. في طليعة من تصدى لهذه الغاية جاعلًا شعر كل قبيلة في ديوان خاص. حتى إن استطاع أن يجمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة. وجمع أبو سعيد السكري أشعار نحو من خمس وعشرين قبيلة. وكان من هذا القبيل ابن الأعرابي والأصمعي....

ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا من ذلك كله سوى مجموعة واحدة هي "ديوان الهذليين" ولو حفظت لنا سائر أشعار القبائل لتكشفت لنا ملامح كل قبيلة ولهجتها وخصائصها مما يساعد على القيام بدراسات مقارنة اجتماعية ولغوية قد تلقي كثيرًا من الضوء على جوانب ما تزال غامضة من تراثنا.

وهذيل قبيلة عربية تمت بأواصر القربي إلى قبيلة قريش. وكانت تسكن في ربوع مكة والطائف. وقد عرفت بفصاحتها وسلامة لغتها من الشوائب لأنها تعيش في وسط الجزيرة بعيدة عن مجاورة الأعاجم. واشتهرت هذيل بكثرة شعرائها حى فاقت في ذلك سائر القبائل ومن هنا غذا الشعر الهذلي موضع اهتمام كبار الرّواة كأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي. وأماثل الأئمة كالشافعي. وصدور المؤلفين كأبي سعيد لسكري وأبي الفرج الأصفهاني. ولعل عراقة هذيل بالشعر أصل عناية الرواة بجمع أقوال شعرائها واعتماد العلماء على شواهد من شعرها. والعلماء لشدة حرصهم وتوخيهم الدّقة في جمع اللغة والحفاظ على بنيتها لا يستشهدون على سلامة التعبير بما تنطق به عامة القبائل وإنما كانوا يخصون ولا يعمون. فلم يأخذوا عن لخم وغسان لماورة المناذرة والغساسنة بلاد الفرس والروم. كما لم يأخذوا عن تغلب وإياد وقضاعة والنمر. على حين كانوا يأخذون العربية عن قريش وقيس وأسد وتميم وهذيل وبعض كنانة وطيء... وهذيل في الطليعة فصاحة وبيانًا وتمت إلى قريش بالنّسب والمصاهرة والجوار وهم يرجعون جميعًا إلى مضر بن نزار.

والذين رووا شعر الهذليين عديدون منهم أبو عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي. غير أن ما وصل إلينا من هذا الشعر كان في معظمه برواية أبي سعيد السكري عن الأصمعي. كما أن السكري تولى شرح هذه الأشعار. غير أنه لم يصل إلينا من شروحه إلا شذور.

ويضم "ديوان الهذليين" تسعة وعشرين شاعرًا من شعراء هذيل يتفاوتون في شاعريتهم وفي عدد أشعار كل منهم غير أن أبا ذؤيب أكثرهم شهرة وأغزرهم شعرًا. وبأشعاره تبدأ المجموعة الشعريةنكما أن أولى القصائد فيها عينته المشهورة في رثاء أولاده.

جامعة باجي مختار - عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

المحاضرة رقم 09 : المجامع الأدبية القديمة :

1-البيان والتبيين للجاحظ (ت 255 هـ)

شهرته الجاحظ، وكنيته أبو عثمان، واسمه عمرو بن بحر، ولد بالبصرة عام 160 هـ ، والبصرة يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب، ومركز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي كله. وفيها أمضى طفولته شقية، فقد توفي والده وهو بعد صغير، وخلّفه بلا ثروة يعيش منها. إلّا أنَّ جوّ المدينة الثقافي جعل من ذهابه إلى الكُتاب ضرورة، وفيه أظهر الصبى ذكاء خارقًا، ونهما حادًا إلى المعرفة، فلما اشتد ساعده أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم، يبيع الخبز والسمك في الأسواق، ثم يغشى المساجد، يلقى علماءها يسمع منهم أو يجادلهم، ويتردد على سوق المربد، قرب البصرة، وإليه يختلف الشعراء والخطباء.

كان الجاحظ نَهَمًا إلى القراءة، لم يقع في يده كتاب إلّا أتى عليه، كان يكترى حوانيت الورّاقين ويبيت فيها للدّرس والمطالعة، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية، فأكسبه ذلك معرفة واسعة، وثقافة منوعة، بين دينية وأدبية،عربية، ويونانية، فارسية وهندية. وعاش في عصر طافح بالقمم في كل فنّ، فعاصر من رجال الفقه والحديث مالكا والشفاعي وأحمد بن حنبل والبخاري ومن الكتّاب ابن المقفع وابن قتيبة والمبرد وابن الزيات. ومن علماء اللّغة الخليل وسيبويه ومن الشّعراء بشاربن برد وأبا نواس وأبا تمام والبحتري وابن الرّومي. ودرس على الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأخفش.وإلى جانب العلم المقروء كان صاحب رحلة، أمضى حياه متنقلا بين البصرة وبغداد، ورحل إلى دمشق، وزار أنطاكية، وثمة احتمال بأنه جاء مصر. فأكسبه التنقل، وتنوع البيئة وتباين العيش، عمقا في التجربة، وشمولافي النظرة، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والنّاس.

ما لبثت البصرة أن ضاقت بالجاحظ، أو لعل الجاحظ أحسن أنه أكبر منها، فرحل عنها إلى بغداد، وفيها مثّل دور الطّالب من جديد، فتردد على مجالس العلماء والأدباء، ووجد عند شيوخها ما لم يجده عند أساتذته في البصرة. وفيها استطارت شهرته، وسمع به المأمون فأراد ان يفيد منه، وكان قد قرأ له كتاب (الإمامة) وأعجب به، فسأل الجاحظ أن يكتب رسالة على مستواه في (العباسية) والاحتجاج لها، وأسند إليه ديوان الرسائل، فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة، تركه بعدها هاربًا بعقله وحريته، لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم الدواوين وتقاليدها، وما تقتضيه من وقار مصطنع،ولم يتحمل دسائس الذين خافوا على مناصبهم من علمه وذكائه، والذين لا يعملون شيئا ويؤذى نفوسهم أن يعمل الآخرون، ففارق أكبر وظيفة في ديوان الخلافة غير آسف.

كان الجاحظ نابغة عصره، وكل عصر، ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال: ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن البصري، والثالث أبو عثمان الجاحظ. وقد صنف أبو حيان التوحيدي كتابًا في تفريط الجاحظ، وبين مكانتهم، ومن تقديريه له أنه كان يسلك مسلكه في تصانيفه، ويشتهى أن ينتظم في سلكه، وقرنه آدم متزفي كتابه (عصر النّهضة في الإسلام) بفولتيرVoltaire أديب فرنسا الكبيرفي القرن الثامن عشر الميلادي. وبعض كتبه كالبخلاء، من أوائل المؤلفات التي اضطلع اليونسكو بترجمتها إلى اللغات الأجنبية.

وفـــــاته:

وندع المبّرد صاحب كتاب (الكامل) يصف أيام الجاحظ الأخيرة، وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه، ووهنت أمامها قواه، وأصيب بفالج نصفي، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه، ومهبط ذكرياته، يحتمي ببيته وأمسه، يقول: دخل على الجاحظ في آخر أيامه، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزَّ بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقوس لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها). ولم يمت الجاحظ ضحية المرض، وإنما ذهب شهيد الكتب، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به، وهو جالس بينها يقرأ، فانهالت عليه وقتلته، ولحدته ميتًا، بعد أن كانت شاغل حياته، وسلوة عقله، عام 255 هـ

مؤلفـــاته:

لم تصلنا مؤلفات الجاحظ كاملة، وضاع معظمها في عهد مبكر، فنحن لا نعرف شيئًا مثلا عن كتابه (نظ القرآن) إلا ما أورده هو عنه في كتابه (الحيوان) وما لدينا من بقيَّة مخطوطاه تتقاسمه خزائن الكتب في العالم بأجمعه، وقد طبع معظمها، وبقيتْ منها قلة لن يبعد بها الزَّمن حتى تطبع، فأدب الجاحظ يجد من الباجثين عناية ومن القرئين إقبالًا. ويطول بنا تعداد رسائله المطبوعة.أمَّا كتبه، فأشهرها: البخلاء والحيوان والبيان والتبيين وهو موضوع دراستنا.

ألَّف الجاحظ البيان والتبيين في أخريات حياته، حين علت به السن وقعد به المرض، وأهداه إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وإذا عرفنا أن صلته به توثقت بعد مقتل ابن الزيات عام 233 هـ=847 م، وأن ابن أبي دؤاد صُرِف عن القضاء لفالج أصابه، وأن الجاحظ لزمه في هذه الأيام حتى وفاته عام 240 هـ = 854 م يمكن القول إن كتاب (البيان والتبيين) اتخذ شكله النهائي خلال هذه الأعوام. وطبقًا لرواية ياقوت كان لدى النَاسفي عصره نسختان من الكتاب، الثانية منهما أصح من الأولى وأجود، وفيها يبدو أعاد الجاحظ صياغة الأولى رغم كراهيته تصحيح مؤلفاته. فكانت الأخرى بمثابة الطبعة الثانية للكتاب في عصرنا الحديث، تحمل آخر أفكار المؤلف وتصويباته، وارتأى المستشرق الفرنسي كليمان أوار Clement Huart (1854 – 1927 م) في كتابه: الأدب العربي La 56itterateur Arabe أن أصل عنوان الكتاب (البيان والتّبيُّن) لان كلمة (التبين) تشير إلى النقد والتحقيق أكثر من كلمة (التبيين) وابعه في رأيه بعض الباحثين العرب المحدثين. ولم يسق المستشرق الفرنسي بين يديه حججا تعتمد على النّقل، مكتفيًا بأدلته العقلية، " وفيها من التمحكّ أكثر مما فيها من العلم، لأن عناوين الكتب لا يبحث فيها عما هو أولى وأنسب، وإنما نلتزم بإزائها النص والرواية، وبخاصة إذا كانت تدعمها شهرة مستفيضة " [1].

منهجه في تأليف الكتاب:

دأب الجاحظ في (البيان والتبيين)، وغيره من مؤلفاه، أن يرسل نفسه على سجيتها، لا يتقيد بنظام يترسمه، ولا بمنهج يلتزمه، يبدأ الكلام في قضية ثم يدعها أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى، ثم يعود إلى ما أسلف، حتى ليصعب الاهتداء في جنبات مؤلفه إلى الفكرة والرأى لمن يبحث عنهما، وكان الجاحظ يشعر بذلك، ويعتذر عنه أحيانًا. فإذا تكلم عن (البيان) بعد حديث طويل عن العجز والعيّ وحال قريش في بلاغة المنطق، مهدّ له بقوله: (كان في الحق أن يكون

[1] الطاهر أحمد مكّي، دراسة في مصادر الأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط، 1999، ص178.

هذا الباب في أول الكتاب، ولكنّا أخرناه لبعض التّدبير). وأدى ذلك إلى تكرار النّصوص، والحديث عن الموضوع الواحد في أكثر من مكان، وقد يكون التكرار في (الباب) نفسه، وقد يكون في الكتاب في الجزء نفسه أو في جزء آخر منه. كالحديث عن البلغاء وأخبارهم، والخطباء ومواقفهم، والحمقى ونوادرهم. وعلل الجاحظ استطراده بأنه صنع ذلك ليدفع السأم عن نفس القارئ، وعلله الآخرون بأنه جاء نتيجة علمه الكثير يتدافع عليه. وأراه وليد تكوين الجاحظ الثقافي، القائم على معرفة كل شيء، ومن أن الكتاب لم يُؤلف مرة واحدة، وإنما كتب فصولا متفرقة، في أزمنة متباعدة، فاستحال أن يربطه خيط فكرى واحد.

وعلى غير عادة معاصريه واجه موضوعه مستعيذًا من التكلّف لما لا يحسن، ومن العجب بما يحسن، ومن السلاطة والهذر، ومن العيّ والحصر، وكانت هذه الاستعاذة مقدمة الكتاب، وكانت موضوعه، فلم يقدم بين يدي كتابه منهجا التزمه، ولا خطة شرحها، ولا قصدا حدّده.

تحدَّث الجاحظ تحت عناوين ثلاثة، البيان والبلاغة والخطابة، عن قضية واحدة هي الكلام الجيد، خطبة أو جدلا، أو حوارًا أو قصصًا.

فالبيان عنده كل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، فبأي شيء بلغت الأفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان. وجميع أصناف الدلالات على المعاني، من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:

اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط والحال.

والبلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وحسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وهي وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وكل من أفهمك حاجة من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ. فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق، وزيْن ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدّلة، واللهجة نقيّة، فإن جامع ذلك السنّ والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تمّ كل التمام، وكمل كل الكمال.

وفي الخطابة ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقاما، حى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

وقف الجاحظ كتابه على الأدب الشفاهي بألوانه المتعددة، وإذا عرض لغيره ففي مقام الاستدلال أو المقارنة، ولم يقصر بحثه على الأدب وحده، وإنما تعداه إلى الأديب نفسه، فدرسه تشريحًا وثقافة وتاريخًا، فأفاض القول في الخطابة، وما تتطلبه من الجهر بالقول وترفيع الصوت، وفي الدمامة وتأثيرها في قدر الخطيب، وفي اكتمال أسنانه ونقصها أو سقوطها، وسعة شدقه أو ضيقه، وأثر ذلك في مخارج حروفه، وما يجب أن يكون عليه أثناء الكلام، من استخدام الإشارة، وارتفاع الصوت، أو سكون الجوارح وهدوء النبر، وعدة الخطيب: (شدّة العارضة، وقوة المنة وظهور الحجة، وثبات الجنان). وخص العصا كلازمة للخطيب بفصل خاص.

وعَبْرَذلك كله، قدم لنا معلومات ضافية، عن البلغاء والخطباء والفقهاء والأمراء، وهو لا يهتم بتراجمهم الشخصية وأخبارهم، بقدر ما يركز على تصوّرهم للبلاغة، أو تفوّقهم في مجال القول. وبسط القول عن علماء المعتزلة فما منهم إلا وأورد عنه خبرًا، أو ذكر له نادرة، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وعيسى بن حاضر، وبشر بن المعتمر، وعرض في حياد للصراع الذي كان بين بشار بن برد الشاعر وواصل بن عطاء، وترجم لبعض علماء الخوارج وخطبائهم في إيجاز، كالقاسم بن عبد الرحمن ابن صُديقة، والضحاك ابن قيس، وعمران بن حطان، ولم يتردد في الثناء على من عرف منهم، فيقول عن استاذه أبي عبيدة معمر بن المثنى، مولى تيم بن مرة: (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه)،وأورد لخطبائهم نصوصا متعددّة.

والبيان ليس خطابة وحسب، فقد يكون رسائل ووصايا، ويخيل إليّ أن الجاحظ وهو يتكلم عن الأولى، كان يضع عينه على الرسائل الشفوية أيضا، وقد يكون حُكما في منافرة، أو فصلا بين خصومٍ، أو وعظا لقوم، أو قصة تحدَّث في جمع، فاعتنى بذلك كله، وأورد منه نصوصًا كثيرة، وعرض لمشاهير القصاص والنساك والزهاد، والكهان، وكل حديثهم أدب مسجوع.

ولم يخص الشعر كفن مستقل، ويورد قول أبي عمرو بن العلاء: (إن الشاعر كان مقدّما في الجاهلية على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويَفخم شأنهم، ويهوّل على عدّوهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى اعراض النّاس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر) ويحتج لقلة النثر الجاهلي: (ما تكلمت به العرب من جيد المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره) ولا يعني ذلك أن الشعر في كتابه قليل، فهو لا يكاد يبدى رأيًا أو يورد خبرًا إلا وشحه بالبيت أو البيتين أو القصيدة كاملة.

وإذا كانت المقابلة تزيد الأمر وضوحًا، فلا يعرف الشيء إلا قرين نقيضه تحدّث الجاحظ عن الصم والعيّ، والحمق، والتشادق والإغراق والفضول، واللحن ونوادر الأعراب والألغاز، والمجانين، وأخطاء العلماء ومزدوج الكلام والإيماء، وهو حديث فضلا عن تجليته لقضية البيان، كما يراه الجاحظ، فيه ترويح عن نفس القارئ له، ونفع له في بيانه وعبارته كيلا يضلّ السبيل.

وكانت دراسة المسلمين للحديث في عصر الجاحظ وبعده، قائمة على نقد الإسناد، دون تعرض للمتن نفسه، أما الجاحظ فخرج على هذه القاعدة، وعندما روى حديث يمس (البيان) رفضه ورد عليه: " زعمتم أن رسول الله ﷺ قال: شعبتان من شعب النفاق: البذاء والبيان، وشعبتان من شعب الإيمان: الحياء والعي. ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ورسول الله يحث على العي، وعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصَّر عن المقدار، فالعي مذموم، والخطل مذموم، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي "[1].

وفي الكتاب مادة موفورة لدراسة عادا وتقاليد المجتمع الإسلامي في بغداد والبصرة على أيام الجاحظ، لأنه يغترف مما حوله، ويلتزم الدقة في إيراده، حتى الألفاظ العامية يوردها كما هي، وشكا من أن الرسم العربي غير كاف لتصوير

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، 2/ 179 .

كل الأصوات التي يريد كتابتها، فهو مصدر لعالم اللغة، حين يبحث في تطور الكلمات، وتوزّع اللهجات، وظواهر اللحن، وخصائص القبائل، وفروق الدلالات، والحروف الأكثر دورانًا، والألفاظ الأكثر توافقًا، وتطور المصطلحات في مختلف مجالات العلوم.

وضمَّن الكتاب بعض خواطر معاصريه وسابقيه في الشعر العربي، وهي خطرات ذهن، ولفتات فيها من الذكاء واللماعية، أكثر مما فيها من التأمّل والقاعدة، ولا تجد في (البيان والتبيين) أية إشارة تدل على أنه كان يعني (بالبلاغة) المعنى الذي ستعرف به فيما بعد عصره بقليل، ومع أنه استخدم في الكتاب كلمات: الإيجاز والحذف والسجع والازدواج والتشبيه والإطناب إلا أن حديثه عنها كان حديثًا فضفاضًا.

لكن استطراد الجاحظ وترسله إذا أخذ بلب القارئ، فإنه في الوقت نفسه، يجعل مهمة الباحث عسيرة، لأن معرفة ما في الكتاب وما يراد من روايته وهي جزء من فهم النّص، تتطلب أناة في القراءة، ومعاودة لها، وتحليلًا دقيقًا لمدلولات كل لفظ. وأيًّا ما كان الأمر فقد أصبحت هذه الطريقة جزءًا من الجاحظ وأدبه، وانعكاسًا لنفسيته ومزاجه، وقد حاول كثيرون تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها من الاستطراد، وما حوته من الاستشهاد، فانتهى بهم الأمر إلى العجز، أو يعود الكتاب في أيديهم جثة هامدة، لا شيء فيها من روح الجاحظ وفنه.

كان كتاب (البيان والتبيين) موضع تقدير القدامى، فقال عنه المسعودي المؤرخ، إنه أشرف ما كتب: " لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم، وغُرَرَ الأشعار ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به "[2]. وكان من الكتب المحببة إلى أبي بكر الخوارزمي، المتوفى عام 383 هـ = 993 م، يقول: " وضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان، وعن يسارى كتاب (البيان والتبيين)، وبين يديّ فصول بزرجمهر بن البختكان، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب بن عاد ".

وأوجز أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) فضائل الكتاب وعيوبه، وهو يتحدث عن كتب البلاغة فقال: " وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفائدة، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلّا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفّح الكثير "[3]. وجعله ابن خلدون واحدًا من أركان الأدب الأربعة: أدب الكاب لابن قتيبة، والكامل للمبرّد، والأمالي لأبي على القالى، والبيان والتبيين للجاحظ. وقد أفاد منه كثيرون ممن جاءُوا بعده فنقل عنه ابن قتيبة في (عيون الأخبار) والمبرّد في (الكامل)، وابن عبد ربه في (العقد الفريد)، وأبو هلال العسكري في (الصناعتين)، والحصرى في (زهر الآداب)، وابن رشيق القيرواني في (العمدة في صناعة الشعر ونقده).

[2] المسعودي، مروج الذهب، ص 176.

[3] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 211.

2- الكامل في اللغة والأدب للمبرّد (ت 285 هـ) .

وُلد المبرد في البصرة، يوم الاثنين غداة عيد الأضحى 210 هـ. ودرس على جلّة من علماء عصره، قرأ كتاب سيبويه في النحو على الجرمي، وختمه على المازني، ويُعد حُجة ثبتًا في أمور اللغة. وقد أظهر المبرد نبوغًا مبكرًا، ونال شهرة واسعة، وحدث يومًا أن الخليفة المتوكل قرأ بحضرة الفتح ابن خاقان قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 09- 10]، بفتح همزة أنها، فقال له الفتح: يا سيدي، إنها بكسر الهمزة، فتبايعا على عشرة آلاف درهم، أو دينار، وتحاكما إلى يزيد بم محمد المهلبي، وكان صديقًا للمبرد، فقال: والله لا أعرف الفرق، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم، ولا أعرف أحدًا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد. فأمر المتوكل فجئ به إلى سُرّمن رأى (سامراء) سنة 246 هـ . فحضر مجلس الخليفة ونال عطاياه. فلما قُتِل المتوكل بعد ذلك بعام، رحل المبرد إلى بغداد واستقر فيها.

وفي بغداد، غريبًا فقيرًا مجهولًا، كان عليه أن يشق لنفسه، بجهد بالغ، مكانًا في دنيا العلم والنّاس، وحين اختل أمره وأدركته الحاجة توخى شهود صلاة الجمعة، فلما قُضيت الصّلاة، أقبل على بعض من حضره، وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له في القول، فلم يكن عندهم من عِلْم، حينئذ رفع صوته، وطفق يفسر، يوهِم بذلك أنه قد سُئِل، فصارت حوله حلقة عظيمة، فتشوف ثعلب أحمد بن يحيى، إلى الحلقة، وكان كثيرًا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر، فيتكلمون ويجتمع النّاس حولهم، فإذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يقاتشهم، فإذا انقطعوا عن الجواب انفض النّاس عنهم.

فلما نظر ثعلب إلى منْ حوْل أبي العباس المبرد أمر الزجاج وابن الخياط، من تلاميذه، بالنهوض إليه، وقال لهما: فُضّ حلْقة هذا الرّجل، فنهض معهما من حضر من أصحابه، فلما صاروا بين يديه قال له الزجاج: أتأذن – أعزك الله – في المفاتشة؟ فقال: سلْ عمّا أحببت، فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعة فنظر الزجاج في وجوه أصحابه متعجبًا من تجويد أبي العباس للجواب، ثم سأله عن أخرى، وأخرى، حتى بلغت مسائله أربع عشرة، وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى، فلما رأى ذلك الزجاج قال لأصحابه: عودوا إلى الشيخ فلست مفارقًا هذا الرجل، ولا بد لي من ملازمته، والأخذ عنه فعاتبه أصحابه وقالوا له: تأخذ من مجهول لا تعرف اسمه وتدع من قد شُهِرَ علمه، وانتشر في الآفاق ذكره؟ (فقال لهم لست أقول بالذكر والخمول، ولكني أقول بالعلم والنظر). وقد دامت الخصومة بين العالمين الجليلين زمنًا طويلا وأصبح لكل منهما كتابا. ولزم ابن دُرستويه والزجاج جانب المبرّد، وردّ كل منهما على ثعلب وأعوانه بكتاب.

فلما اطمأن النّاس إلى علمه بدأ يعلم بأجر، كان حسن المحاضرة، مليح النادرة، خفيف الروح، كثير النوادر، صاحب ظرْف ولباقة، غزير المادة، كثير الحفظ، حسن الحظ، انتهى إليه العلم بالعربية بعد طبقة الجرمي والمازني، وكان على صلة بالجاحظ استمرت حتى آخر أيام حياته. ويُنسَبُ إليه شعر قليل موزع في مصادر الأدب له خصائص شعر العلماء، من نظم ورتابة، أكثره في المدح والغزل والإخوانيات، وقد تتلمذ عليه جلة من العلماء، من بينهم الزجاج، والأخفش عليُّ بن سليمان، وأبو بكر بن السراج، ومحمدبن جعفر الصيدلاني، وكانت إمامته في النحو واللغة مُعْترفًا بها ومقدرّة، ومدحه من الشعراء البحتري، وخصه ابن الرّومي بقصيدة طويلة قاربت أبياتها المائة.

وقلما ظفر نحوي بقصيدة مدح طويلة، من شاعر كبير معاصر له وتوفي المبرد في بغداد، في شوال عام 285 هـ، على أرجح الروايات، أيام خلافة المعتضد، بعد عمر حافل بالعلم والدّرس والتأليف.

علمه ومؤلفاته:

كتب المبرّد فيما كان يشغل علماء عصره، من نحو ولغة واشتقاق وشعر، يختاره أو يشرحه أو يعلق عليه. وبعض مؤلفاته لا نعرف منه غير عنوان الكتاب، جاء عرضًا في مصادر الأدب، فالبغدادي في (خزانة الأدب) يشير إلى كتاب له، اسمه (الاعتنان) وموضوعه بيان أسباب التهاجي بين جرير والفرزدق، وذكر الصوليّ في أخبار (أبي تمام) أنه قرأ على المبرّد كتابه (الفتن والمحن)، وعرض المبرّد نفسه لقصة جذيمة الأبرش الأزدي، والزباء التي قتلته، وعقّب على الحديث: (وله قصص تطول، وقد شرحنا ذلك في كتاب [الاختيار].

وأورد ابن النّديم في (الفهرست) وياقوت في (معجم الأدباء)، أسماء كتب أخرى لا نعرف عنها شيئًا غير عناوينها، وربما كانت رسائل صغيرة، وجلها في النّحو والصّرف والعروض وشرح الشّواهد وإعراب القرآن، وبعضها (كأدب الجليس) و(الحث على الأدب والصّدق) يوحي عنوانها بأنها طرائف وحكايات ذات صبغة أخلاقية.

أما مؤلفاته المنشورة فهي: (الفاضل والمفضول) و(ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد) و(نسب عدنان وقحطان)، و(أعجاز أبيات) و(شرح لامية العرب) و(المقتضب) ورسالة أورد فيها الحجج التي تثبت أفضلية الشعر ثم كتاب (الكامل) وهو موضوع دراستنا.

كان الكامل آخر ما ألف المبرّد من كبريات كتبه، فكان خيرها جلال قدر وعميم نفع، وتمثلت فيه بوفاء وصدق ثقافة المبرد بكل جوانبها (اللغوية أو النحوية والأدبية).

دراسة الكتاب:

- أوجز المبرّد في مقدمة الكتاب مادتّه، والمنهج الذي سوف يسير عليه، يقول " هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شؤيفة ورسالة بليغة...
- والنيّة أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى، مستغلق، و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحًا وافيًا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيًا "[4].

وعبر الكتاب تحدث في إشارات مختصرة عن الشعراء المحدثين، أو المولّدين بلغته، ويعنى بهم، أولئك الذين عاصروه من شعراء الدولة العباسية فخصهم بباب قدم له بقوله: " هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين، حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل بالدّهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات، والخطب والكتب " وأوضح في مكان آخر: " وليس لقدم العهد يُفَضّل القائل.

[4] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ص 85 .

ولا لحدثان عهده يُهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق "[5]. ويعلق على شعر ابن مُناذر بقوله: كان رجلا عالماً شاعرًا مُفلقًا وخطيبًا مِصْقعًا، وفي دهر قريب، فله في شدة شعره كلام العرب بروايته وأدبه، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته)، وبحديثه عن القدامى والمحدثين مهد القول لابن قتيبة، لكي يزيد الأمر تفصيلا ووضوحًا في كتابه (الشعر والشعراء).

- يحمل كتاب (الكامل) طابع العصر الذي أُلِّف فيه، فهو يميل إلى الاستطراد، وينتقل من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة، وتجاوز دَوْرُهُ في النّصوص الأدبية الجمع والاختيار، إلى الشرح اللغوي، والتصويب النحوى، وتتبع دلالات اللفظ الواجد في وجوهها المختلفة، عند جمهرة الأدباء والشعراء.

وكان الأخفش الصغير، رواية الكتاب، يمدُّ عقله داخل كتاب شيخه، فيشرح من الكلمات اللغوية ما يراه صعبا ولم يفسره المؤلف، أو يعرف بمن يراه نادرًا وغريبًا من الأعلام، أو يصحح له روايته، أو يزيد عليها، ينسب التصحيح إلى نفسه، أو يتكئ فيه على ثعلب خصم المبرّد العنيد، وهو يشير إلى اسمه كاملًا أحيانًا فيذكر: (قال أبو الحسن الأخفش ... أو أبو الحسن ...) ويكتفى من فحسب بحرف الشين أحيانًا أخرى: (قال ش)، ويهمل اسم المصحّح قليلا، فلا نعرف من هو، وأظن أنه الأخفش نفسه، ترجيحًا لا يبلغ اليقين.

- والمبرّد عربي أزدي يماني، والكامل يمثل هذه المعاني تمثيلا صحيحًا، فما فيه ثقافة عربية خالصة، فلا نجد عنده ما نجده عند الجاحظ من ألوان الثقافات الأجنبية أيًّا كان مصدرها[6].

وهو مصدر أصيل لما أصاب الإسلام من فتن عاتية، منذ سقط الخليفة عثمان شهيدًا، وتأجج الخلاف بين علي ومعاوية، وموسوعة قيمة للأدب الذي عبّر عن هذا الصّراع، من خطب ورسائل ومنافرات وهجاء، وقصص وشعر وأنساب، وللرجال الذين شاركوا في هذه الأحداث، وخص الخوارج من بينهم بحديث مفصّل طويل، في باب مستقل وعبر الأبواب الأخرى، وأطنب في ذكر نشأتهم وأخبارهم وفرقهم، وخطبائهم وقوادهم وأبطالهم، على كثرهم ونفاذ بصيرتهم، وتوطين أنفسهم على الموت، وأفسح لأدبهم من مؤلفه مكانًا واسعًا، وحسنٌ وأنت تقرأ روايته لأخبارهم أنه يشعر نحوهم بشيء من العطف، حتى أن ابن أبي الحديد، وهو شيعي، في شرحه لكتاب (نهج البلاغة) للإمام علي، اتهمه بالميل إلى رأي الخوارج، لإطنابه في سيرتهم، واعتداله في الحكم عليهم. والحق أن ميل المبرّد إليهم كان إنسانيا وأدبيًا أكثر من سياسيًّا، فللخوارج من ألوان البطولة الخارقة والمقاومة المؤمنة العنيدة ما يهز النّاس جميعًا في عصرهم وبعد عصرهم، وفي أدبهم من الصّدق والقوة والجمال ما يثير إعجاب المبرّد، وغير المبرد، وكان أبو العباس في حديثه عنهم مستجيبا لكلا العاملين، فأورد من تاريخهم ما يجعل من (الكامل) أصحّ مرجع لكابته، وسجّل من نصوصهم الشيء الكثير، فهو أوفى مصدر لدراسة أدبهم.

والكتاب معرض حافل بألوان من اللغة في مختلف جوانبها، من اشتقاق ونحو وصرف ودلالات، مبثوثة خلال ما أحسن اختياره من نصوص.

---

[5] المصدر السّابق، ص 86 .

[6] الطاهر أحمد مكيّ، دراسة في مصادر الأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط8، 1999، ص223.

وأكثر الأبيات الشعرية، والحكم والأمثال التي أوردها، أعرب ما هو غامض من جملها، مستقصيًا أوجه الإعراب المختلفة، لمن يرضى من العلماء، وما يرضى من مذاهب النّحاة. وما ارتآه هامًّا من قواعد النّحو أو الصّرف خصَّه بباب مستقل.

وهو يجري على سنن المدرسة البصرية، فينكر متشدّدًا روايات النّحو أو اللغة التي تخالف القياس العام، ويرى (أن القياس المطرد لا تعترض عليه الرّواية الضعيفة)، حتى قال عنه ابن ولادّ: (هذا رجل يجعل كلامه في النّحو أصلا، وكلام العرب فرعًا، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله).

جاء المبرد وكتاب سيبويه في انّحو المرجع والأستاذ، منه يؤخذ العلم والشّاهد فدرّسه واحتفظ لنفسه بنسخة ثمينة منه، كان يضنّ بها على من يريد نسخها، وعُرف عنه أنه خير من يفسر الكتاب ويشرحه وإليه يُرْحل لسماعه، لكن شخصيته لم تتضاءل أمام سيبويه، فخالفه في مسائل كثيرة، رجع عن بعضها واعتذر منه بأنه (شيء كنا رأيناه في أيام الحداثة، فأما الآن فلا) وبقي على رأيه في بعضها الآخر حتى آخر حياته. فأثار هذا عليه عددًا من العلماء، فعلى بن حمزة، في كتابه (التنبيهات على أغاليط الرواة) يقول عنه: (لو تشاغل أبو العباس بمُلح الأشعار، ونُتف الأخبار، وما يعرفه من النّحو لكان خيرًا له من القطع على كلام العرب، وأن يقول: (ليس كذا من كلامهم، فلهذا رجال غيره، وياليتهم أيضًا يسلمون) .

وخلال القضايا النحوية تعرض المبرد للقراءات القرآنية، وأبدى رأيه فيها، ترجيحًا أو تهوينًا، وضعف بعضها حتى ولو كان من القراءات السبع المشهورة.

وكتاب الكامل كمحاضرات يدرسها الطلاب بلغ الغاية في بابه، لأن تعليم النحو واللغة عن طريق الأدب، من خلال النصوص الجيّدة، أفضل ما يشير به هُرَبّ عارِفٌ، ودراسته كتاب مثله يمكن أن تحقق أكثر من هدف في وقت واحد، تعلم النحو، وتربى الذوق، وتربط النظرية بالتطبيق.

لم تقتصر تعليقات المبرد على النحو واللغة، وإن كانت مناط اهتمامه الأوّل، فتعرض لعدد من مسائل البلاغة، دون أن تأخذ شكل قاعدة علمية محددّة، فتكلم عن الكناية وأقسامها، والمجاز وأنواعه، والاستعارة وألوانها، والالتفات والتجريد، وأطنب القول في التشبيه، وعقد له بابًا خاصًّا، و بيَّن أن العرب تشبِّه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير، ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام، وأعطى لكل ذلك أمثلة من جيد الشعر، وخصّ الإيجاز، ويسميه الاختصار، ويقيده بالمُفْهَم، والإطناب ويصفه بالمُفخَّم، بباب آخر أورد فيه ألوانًا من ألفاظ العرب البينة، القريبة، المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف.

لكن حظَّ النقد من كتابه محدود، فهو يروي الشعر، يفسّر لغوياته ويعرب كلماته، ويحلل جمله، ولكنه لا يعترض لمناحي الجمال فيه، وإن أبدى رأيه ففي إيجاز لا يتعدى تقديم البيت أو القصيدة بقوله: " ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره ".

أما تعليل ذلك وتفصيله وردّه إلى أسبابه فلا يعرض له ويتعرّض أحيانًا قليلة للسرقات الأدبية، دون أن يعطها هذا الاسم، يورد البيت من الشعر ثم يشير إلى من تناول المعنى نفسه، ومن أجاد منهم أو تخلف، ومن ابتدع المعنى أو نقله عمن سبقوه، وهو في ذلك يقابل بين الشعر والنثر على السواء.

وعقد للشعراء المولّدين بابًا صدّره بقوله: " هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل لأنها أشكل بالدّهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب ". وعنى بالمولّدين معاصريه من الشعراء العباسيين، فأورد أشعارًا لطائفة منهم، بعضهم معروف مرموق ، معروف لدراسة الأدب المتخصصين فحسب، مثل: أشجع. وفي آخر الكتاب عقد لهم بابًا آخر جعل عنوانه: " هذا باب طريف من أشعار المحدثين " أورد فيه شعرًا لمطيع بن إياس، وأبي عبد الرحمن العيني، ويزيد المهلّبيّ،ولم يضمن كتابه شيئًا من شعر البحتري، على ما كان بين الرجلين من ألفة وود.

ومن لوازم المبرّد في الشرح أن يتبع قوله بكلمة (يا فتى) مما يوحي بأن الكتاب في الأصل أمالي ألقاها على طلابه، وأن يُقّيد وعوده بالمشيئة، حتى أن بعض العناوين جاءت مقرونة بها: " باب الحروف التي تكون استفهامًا وخبرًا، وسنذكرها مفسّرة في أبوابها إن شاء الله ".

تأثير الكامل في معاصريه والذين من بعدهم:

لقى (الكامل) تقديرًا كبيرًا من العلماء، واحتذاه بعضهم في تآليفه، فألف إبراهيم بن مَاهَوَيْه الفارسي كتابًا عارض به المبرّد في (كامله)، وألّف محمد بن جعفر، أوب الفتح المراغي، المتوفي عام 371 هـ كتابًا أسماه (البهجة على نمط االكامل). واهتم آخرون بتتبع سقطاته وأغاليطه، فألف أبو القاسم على بن حمزة البصري، المتوفي عام 375 هـ . كتابه (التنبيهات على أغاليط الرواة) نبّه فيه على الأخطاء الواردة في عدد من مؤلفات علماء عصره، من بينها كتاب (النبات) لأبي حنيفة الدينوري، و (الفصيح) لثعلب و (التنبيهات على ما في المقصور والممدود) لأبي العباس بن ولّاد و (الكامل) للمبرّد، وكتب أخرى. وقد أخذ على المبرّد ما عدّه أخطاء في تفسير عدد من الكلمات، وفي رواية أبيات من الشعر ونسبته لقائله أو شرحه وأغاليط تتصل بالنّحو والتّاريخ.

وصادف (الكامل) هوى في نفوس الأندلسيين بخاصة، فأقبلوا على درسه، وعنوا بشرحه، وبينهم من كان يستظهره.

وشرحه منهم القاضي أبو الوليد هشام بن أحمد الوقّشيّ (ت 489 هـ) من أهل طليطلة، وكان – كما يقول ابن بشكوال – " ضليعًا في النحو واللغة، ومعاني الأشعار، وعلم العروض، وصناعة البلاغة، وكان شاعرًا متقدمًا، حافظًا للسنن، وأسماء نقلة الأخبار، بصيرًا بأصول الاعتقادات وأصول الفقه، نافذًا في علم الشروط والفرائض، متحققا بعلم الحساب والهندسة، مشرفًا على جميع آراء الحكماء، حسن النقد للمذاهب " [7]. وتسَمَّى شرحه " نُكت الكامل"،ولم يصلنا هذا الكتاب، لكن جلال الدّين السيوطي، من علماء القرن العاشر الهجري، أشار إليه في كتابه (بغية الوعاة)، وتردّد ذكره في كتاب (خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ) [8].

والأخير من هذه الشروح الأندلسية صنعه محمد بن يوسف بن مرونَجوش السرقسطي، المتوفى عام 539 هـ- 1144 م ، ولم يذكره أحد من الأندلسيين ممن قرأت لهم، ولكن حاجي خليفة المتوفي في عام 1066 هـ = 1656 م، أشار إلى هذا الشرح في موسوعته: " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ".

[7] المرجع السابق، ص232.

[8] المرجع السابق، ص232.

وشرحه في عصرنا الحديث سيد علي المرصفي، ألقى شرحه دروسا في الأزهر، في مطلع القرن 20 ، عندما اصطفاه الإمام محمّد عبده للتدريس فيه، ثمّ نشر شروحه في كتاب أسماه: " رغبة الآمل من كتاب الكامل "، جاء في ثمانية أجزاء، وطبع للمرّة الأولى عام 1927 م.

3- العقد الفريد لابن عبد ربه (328 هـ) .

المؤلف : ابن عبد ربه .

هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، ولد في قرطبة عام 246للهجرة، وبها نشأ وتعلّم. درس الفقه والتفسيروالحديث والأدب والتاريخ واللغة. ألّف هذا الكتاب ليختصر ما كتبه المتقدمون في الأدب ولينتقي ويختار من كل باب أجوده فيكون جامعًا حاويًا كافيًا.

كتابه : العقد الفريد .[9]

قسمه إلى خمسة وعشرين كتابا . كل كتاب يمثل موضوعا بعينه . ثم تصوره عقدا مؤلفا من خمس وعشرين جوهرة . اثنتا عشرة جوهرة في جانب واثنتا عشرة جوهرة في الجانب الآخر المناظر له . وجعل للعقد واسطة . لكنه لم يسمّ إلا الاثنتي عشرة الأولى : اللؤلؤة . الفريدة . الزبرجدة . الجمانة . المرجانة . الياقوتة . الجوهرة . الزمردة . الدرة . اليتيمة . العسجدة . المجنبة . أما الاثنتا عشرة التي في الجانب الآخر . فهي نفس الأسماء مكررة مع إضافة صفة الثانية : اللؤلؤة الثانية ...

الكتاب الأول: اللؤلؤة في السلطان :

جمع في هذا الكتاب الأصول المتعلقة بأحوال السلطان، فابتدأ بالكلام على نصيحته ولزوم طاعته، ثم بيّنَ الطبيعة النفسية للسلطان حتى لا يغتر مُصاحِبه برضا أو سخط، وساق نصائح لكلّ مَن أراد أن يصاحبه، وجعل فصلًا يُرشد فيه السلطان كيف يختار عامليه، ثم سبح في بيان ما يجب وجوده لقيام المملكة، من عدل وردّ مظلمة وصلاح إمام وصفاته، إلى أن ختم الباب بالكلام على الوفاء والغدر والولاية والعزل وبعض أحكام القضاة .

الكتاب الثاني: الفريدة في الحروب ومدار أمرها :

يُبيّن صفات الحروب من حيث هي، ثم يُبيّن ما يجب أن يكون عليه المُحارب من صفات نفسية وبدنية، مثل الصبر والإقدام والأناة، ثم مثّل بأشهر فرسان العرب وما كانوا عليه، ولا ينسى الإشارة إلى أنّ الحرب مكيدة، ويسرد لنا وصايا الأمراء للسائرين في الحروب، ثم يذكّر بحق المستجير، وبقبْح الجبن والفِرار، ثم جعل حديثًا عن الخيل والسلاح وصفاتهما، وختم بالكلام على مداراة العدو والتحفظ منه، ثم بشيء من خبر الأزارقة الخوارج.

الكتاب الثالث: الزبرجدة في الأجواد والأصفاد :

بسط الكلام هنا على مدح الكرم والجود وذم البخل، ويُفرِد فصلًا للحديث على العطاء قبل السؤال، واستنجاح الحوائج واستنجاز المواعيد، ثم ينصحك إذا ما اضطررتَ لسؤال سلطان كيف تسأل، وتطرّق إلى شكر النعم وإلى أنّ

---

[9] الطاهر أحمد مكي دراسة في مصادر الأدب ، ص 279 .

الكرام قلة إذا ما قُورنوا باللئام، ويختم بالكلام على أجود أهل الجاهلية، ويقدّم في ذلك نماذج، إلى أن يصل إلى أجود أهل الإسلام مع الإشارة إلى أعيان منهم.

الكتاب الرابع: الجمانة في الوفود :

خصّص هذا الباب للكلام على مقامات الفضل ومشاهد الحفل، وهي عند قدوم الوفود على النبي -ﷺ- والخلفاء والملوك، لِما يُتَخيَّر لها الكلام، وتُستَهذب لها الألفاظ، وتُستَجزل المعاني، فذكر من أخبار ذلك شيئًا كثيرًا، لا سيّما ما يكون بين الوافد والموفود عليه من خطاب وشعر ونُكت، فكل وفد يقدِّم أفصحهم وأفطنهم وأشعرهم وأكثرهم هيبة ووقارًا، فكان من الأنباء المنقولة ما يُسلي ويعطي كل وافد عين الحكمة.

الكتاب الخامس: المرجانة في مخاطبة الملوك .

هذا الباب هو لمناسبَة مع الباب السابق، فكان في هذا الباب الكلام على البيان باللسان وتعظيم السلطان، وبيَّن حال قبلة يد السلطان، وأنّ من الأمراء من يكرهها، وجعل فصولًا متتالية عن التزلف للسلطان، والتنصل والاعتذار، والاستعطاف والاعتراف، وتذكير الملوك بالعهد والكفالة، ثم أتى بالكلام على فضيلة العفو والترغيب، إلى أن ختم الباب بفصل عقده في مراسلات الملوك .

الكتاب السادس: الياقوتة في العلم والأدب .

لقد أطال النَّفَس في هذا الباب أكثر من الأبواب السابقة، بل هو أطول أبواب كتابه جميعها، فأتى بالكلام على فنون العلم، والحضِّ على طلبه وضبطه والتثبت فيه، ذاكرًا مع ذلك فضله العظيم، وشرائطه وما يصلح له وما لا يصلح، وأن العلماء يجب تبجيلهم ورفعهم، ثم يختم كلامه في العلم بأخبار العلماء، ثم يطيل في الأدب وما يتعلق به من مباحث كثيرة مهمة بادئًا بالحكمة والعقل مرورًا بآداب النبيّ -ﷺ-.

الكتاب السابع: الجوهرة في الأمثال .

نجد هنا الكلام على الأمثال ابتداء ممّا قاله -صلوات ربي وسلامه عليه- ثم ما قاله العلماء، مع ما ضربه الناس مثلًا "أسخى من حاتم"، إلى أن يدخل في أمثال العرب التي تناولت أمورًا كثيرة كحفظ اللسان والصمت، ثم يختم بأمثال الرجال على اختلاف أحوالهم، إلى أن يصل آخر فصل وهو الأمثال في ذوي القربى، فذكر من الأمثال الواردة العطف عليهم وصلتهم وما يتعلّق بهم، وتحت ذلك أمثال في مواضيع كثيرة.

الكتاب الثامن: الزمردة في المواعظ والزهد .

يتكلّم هذا الباب عن أهل الزهد وما في ذلك من معانٍ، ويأتي لنا بمواعظ الأنبياء والآباء والأدباء والحكماء، وما يكون من عظة بين العلماء والخلفاء، فبدأ بمواعظ الله ثم ثنّى بمواعظ الأنبياء، وهكذا مرورًا بمقامات أهل الورع والزهد والعظة إلى أن يصل صفة الدنيا فيرغبك بالآخرة بما أشار إلى خوف ورجاء وتوبة وبلاء، ثم يختم الباب بفصول متتالية عن الدعاء، جاعلًا آخر فصل عمّا جاء من آثار الاستعاذة وألفاظها.

الكتاب التاسع: الدرة في التعازي والمراثي .

جعل هذا الباب لترقيق القلوب القاسية وتفجير الدموع الجامدة من خلال ذِكر المراثي والتهاني والتعازي ممّا وقف عليه المؤلف من فطن ذكية وألفاظ شجية. فبدأ بما ينبغي أن يُوجَّه له من في سياق الموت كالتلقين، ويذكر لنا من أخبار الجازعين من الموت والباكين على الموتى، لينشد لنا بعد ذلك مرثيات تنوعت وتعددت تأخذ من القلب محلًا من الحزن، ثم يختم الباب بفصل عن التعازي وما ورد في ذلك من أخبار.

الكتاب العاشر: اليتيمة في النسب وفضائل العرب .

أطال الكلام والأخبار هنا ولم يستوفِ ذلك، فهذا الباب فيه أصول أنساب البشرية عمومًا ثم العرب خصوصًا، فتكلّم عن أنساب القرشيين وأفخاذهم وفضل أشرافهم حتى ختم بفضل العرب، ليَلِج بعد ذلك في علماء النسب، ثم يكمل الكلام في أنساب كثيرة من حيث أصلها وكيف ترتبط وتلتئم مع غيرها، ويختم الباب بالكلام على المتعصبين للعرب، وساق لذلك آثارًا كثيرة، فهذا الباب يُعتبَر موردًا مهمًّا لكلّ مَن أراد أن يشتغل بعلم الأنساب.

الكتاب الحادي عشر: العسجدة في كلام الأعراب .

هذا الباب للأعراب خصوصًا من حيث كلامهم، ولا غرابة في ذلك، فكلامهم شريف مرونق من غير كلفة ولا تكليف، فبدأ بقول الأعراب عند الدعاء، وكما قيل إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمعه من الأعراب، ثم يُكمل في كلامهم في المدح والذم والغزل والخيل والغيث والبلاغة والإيجاز والإعراب والدِّين والنوادر والمِلَح، ثم يختم الباب بأخبار عن أعيان من الأعراب كأبي مهدية وأبي الزهراء.

الكتاب الثاني عشر: المجنبة في الأجوبة .

هذا باب نفيس جدًّا، يتحدّث عن الجوابات التي تكون عقِب سؤال يفجأ السامع، فما عساه أن يجيب والوقت ضيّق يسير، والسائل لبيب عسير، لا سيّما أن الجواب إن كان بعد فوات الحاجة فهو كاللغو مكروه مطروح، فذكر من أخبار أجوبة عقيل وابن عباس ما ذكر، ثم عرَّج على أجوبة بني هاشم وبني أمية، إلى أن يصل إلى مجاوبة الأمراء والرد عليهم، ثم يختم بأجوبة الهزل والفخر والتفحش.

الكتاب الثالث عشر: الواسطة في الخطب .

لا يقل هذا الباب أهمية عن الباب السابق، فهو يتناول الخطب بتنوّع مقاماتها، وقد افتتحه بأعظم خطبة، وهي خطبة رسول الله-ﷺ- في حجة الوداع، ثم جمع لنا كَمًّا مفيدًا من خطب الخلفاء الراشدين على تعدّد مقامات تلك الخطب، ثم خطب بني مروان، وخطب يزيد بن الوليد وبني العبّاس، ليجعل خاتمة الباب في خطب الخوارج لقوتها ومتانتها، ثم خطب النِكاح لشدة الداعي لها، وأخيرًا خطب الأعراب .

الكتاب الرابع عشر: المجنبة الثانية في التوقيعات .

إنّ هذا الباب في أخبار توقيعات الكتابة وفصولها وصدورها وأدواتها وما يكون من أخبار الكتّاب، مع التنبيه على فضل الإيجاز، فابتدأ بأوّل من وضع الكتابة، ثم باستفتاح الكتب وعنونتها وختمها، ثم يبيّن المؤلف هنا شرف الكُتّاب

وفضلهم، وأنّ لهم أحكامًا كأحكام القضاة، ثم يذكر لنا أبرز مَن اشتهر من الكَتَبَة، ويمرّ على البلاغة وتوقيعات الخلفاء والأمراء، ثم يأتي بفصول متتالية في العتاب والتنصل والشكر، ثم يختم بصدور متنوعة .

الكتاب الخامس عشر: العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم .

هذا الباب للحديث على الخلفاء المسلمين من حيث أيّامهم وأخبارهم وما يتعلّق من تواريخ مهمة، كما يُشير إلى حجّابهم وكتّابهم، لكنه صدّر بالكلام على رسول الله-ﷺ- من حيث نسبه ونسب أبيه وأمه، ومن حيث مولده وصفته، ونحو ذلك مما يتعلق به، ثم ينتهي بوفاته، وبعدها يبتدأ بالخلفاء من أبي بكر إلى خلفاء بني أمية في الأندلس، ذاكرًا بين ذلك أهم الوقائع وأمور انتقال الحكم .

الكتاب السادس عشر: اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

خصّص هذا الباب لأربعة، هم: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، والطالبيين، والبرامكة، وقد أزال المؤلف العجب فأجاب على سؤال: ما الأمر الجامع بينهم؟ فقال: "إذ كان هؤلاء الذين جرّدنا لهم كتابَنا هذا قُطبَ المُلك الذي عليه مدار السياسة، ومعادنَ التَّدبير، ويَنابيعَ البلاغة، وجوامعَ البيان. هم راضوا الصِّعاب حتى لانت مقاردُها، وخَزموا الأنوف حتى سكنتْ شواردُها، ومارسوا الأمور، وجرّبوا اَلدُّهُور فاحتملوا أعباءَها، واستفتحوا مغالقها، حتى استقرت قواعدُ الملك، وانتظمت قلائدُ الحكم، ونَفذت عزائم السلطان". ثم بسط الكلام على الدولة العباسية .

الكتاب السابع عشر: الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم .

يرجع بنا هذا الباب إلى العرب في الجاهلية تحديدًا، ليبسط لنا الحديث على أهم أيامهم وما كان يجري في الوقيعة من حوادث، فابتدأ من حروب قيس يوم بطن عاقل، وهكذا في فصول متتالية كيوم داحس والغبراء ويوم البسوس، والعشرات العشرات من الوقائع والأيام، باسطًا الكلام على أهم ما جاء فيها بسطًا غير مملّ ولا مخل.

الكتاب الثامن عشر: الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .

يتجوّل بنا هذا الباب في بساتين الشعر على اختلاف الأزمان والطبقات ممهّدا لذلك بفضائل الشعر وأهميته ووزنه، فيبدأ باختلاف الناس في أشعر الشعراء، مرورًا بشعراء الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين، مخصّصًا مساحة للكلام على شعر الغزل والهجاء وما يعاب من الشعر وما لا يعاب، ونحو هذه الموضوعات حتى يصل فصلًا فيما استُدرِك على الشعراء وفيما له وجه، ثم يختم بأشعار الرقة والنحول والتوديع والحمام وطيب الحديث والرياض.

الكتاب التاسع عشر: الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي .

هذا الباب مقسم لجزأين رئيسين تحتهما عشرات الفصول الفرعية، هما: جزء الفرش وجزء المثال، فأما الأول فهو في أعاريض الشعر وعلله وزحافه من حيث الحسن والقبح، كما تكلم في الشطور التي قالت عليها العرب والتي لم تقل من حيث انفكاك دوائرها، وجعل ذلك في نثر ونظم ليسهل حفظه، وأمّا في جزء المثال فقد جعل له ثلاثًا وستين قطعة على ثلاث وستين ضربًا من ضروب العروض.

الكتاب العشرون: الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه .

لقد وقع الخلاف بين الناس في الألحان بين كاره له ومحبّب فيه، فالمؤلف رأى أن يخصّص الباب له هنا، مع الدخول لعلم الألحان دخولًا علميًّا تلذذيًا، فبدأ بفصل في الصوت الحسن، ثم أصل الغناء ومعدنه، مع سرد أخبار المغنين، ويدرج المؤلف أخبار من استحسن الأصوات تأثروا بها، حتى يختم بفصل في رقائق الغناء وما يدخل في ذلك من أخبار وأحوال .

الكتاب الواحد والعشرون: المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن .

الباب مُخَصص للحديث عن النساء من حيث صفاتهن وعشرتهن، وكل حديث المؤلف محصور بالزوجة لا غيرها، فبدأ بأخبار قولهم في المناكح، ثم ثنّى بصفات النساء وأخلاقهن، وثلّث بصفة المرأة السوء، مرورًا بالنجيبات من النساء وأخبارهن، ثم يورد أخبار الطلاق لا سيما من طلق فتبعته نفسه، ويجعل فصلًا في مكر النساء وغدرهن، ثم يذكر من أخبار السراري والهجناء والأدعياء، خاتمًا الباب في الباه وما قيل فيه.

الكتاب الثاني والعشرون: الجمانة الثانية في المتنبئين والممرودين والبخلاء والطفيليين .

هذا من أكثر الأبواب تسلية، فقد اشتمل على أخبار مدّعي النبوة وطرائفهم، وكذلك حوى أخبار المجانين والممرورين والبخلاء وأهل التطفل، وبين كل هذه يمر على قصص الحمقى من الأشراف رجالًا ونساء، ويذكر في ذلك أخبار أشعارهم أو أشعارًا قيلت فيهم، ففي هذا الباب ترويح عن النفس وتسلية.

الكتاب الثالث والعشرون: الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان .

نستطيع تصنيف هذا الباب بأنه مختص بعلم الاجتماع، فهو يغوص في أعماق طباع الإنسان والحيوان وتفاضل البلدان، فيبدأ بأنواع الأنفس وما يتعلق بها، ويتحدث عن بعض أنواع الحيوان، حتى يصل البلدان والعمران ثم يكمل رحلته إلى المسجد الحرام والكعبة والمسجد النبوي والمسجد الأقصى لكونها خير البقاع، ثم يجعل فصولًا في نتف من الأخبار وعلم الطب والحجامة والسحر، فيختم بفصل في الهدايا.

الكتاب الرابع والعشرون: الفريدة الثانية في الطعام والشراب .

نستطيع تصنيف هذا الباب بأنّه مختص بعلم الغذاء طعامًا وشرابًا، فافتتح بذكر أخبار أطعمة العرب ثم بأسماء الطعام، ليصل إلى تأثيرات الأطعمة في النوم والسمنة والحركة، ثم يجعل فصولًا متتالية في أنواع الأطعمة من حيث لطافتها وغلظها وحرها وبردها ويبسها ورطبها وما كان منها قليل الفضول وكثيره، ثم يكمل في فصول متتالية - أيضًا- في ذكر الأطعمة ذات الغذاء الكثير والقليل، مبيّنا بعد ذلك التأثيرات المختلف لبعض الأطعمة على المعدة .

الكتاب الخامس والعشرون: اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح .

يختم المؤلف كتابه بباب أخير عقده ليجمع فيه أبرز الفكاهات المِلَح التي كانت في ثنايا الأبواب المتقدمة من هذا الكتاب، فقطف لنا من كل باب أظرفه، ومن كل خبر أملحه، ليزه النفس ويجلب السرور والراحة، وقال علي -ﷺ عنه- : "أجموا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان، والنفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهوينى،

جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة للعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها".

المحاضرة رقم 10 : المجامع النقدية القديمة :

1 - الشعر والشعراء لابن قتيبة (276 هـ) .

المؤلف : ابن قتيبة :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، من أصل فارسي، نشأ ببغداد. وتولى القضاء في بلدة الدينور لذلك لقب بالدينوري، وقد كان له اتصال وثيق بالوزير محمد بن عبد الله بن طاهر، الذي كان يكرم العلماء ويجود عليهم، وقد كان زعيما لأهل السنة، حيث كان يدافع عن مذهبهم ضد علماء الكلام إلى أن وافته المنية سنة (ت 276هـ).

وقد روى ابن قتيبة عن مشاهير عصره ومن ضمنهم: والده مسلم بن قتيبة، وقد أشار إلى ذلك في كتابه "عيون الأخبار" حيث قال: "حدثني أبي عن أبي العتاهية". وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت 231هـ) صاحب "طبقات فحول الشعراء". وأبو يعقوب بن راهويه، وهو إمام جليل في الفقه والحديث، صاحب الإمام الشافعي، وعنه قال أحمد بن حنبل: "لا أعرف لإسحاق بالعراق نظيرا". ومن أساتذته أيضا: أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت: 248-255هـ)، وأبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي (تلميذ سيبويه والأصمعي)، (ت: 249هـ)، ثم أبو عثمان الجاحظ (ت: 255هـ) وغيرهم.

وله مصنفات كثيرة بلغت عدتها كما يقول المعري خمسة وستين مصنفا منها: كتاب الوزراء، صناعة الكتابة، غريب الحديث، وفضل العرب والتنبيه على علومها، وعيون الأخبار، وأدب الكاتب، والمعاني الكبير، وعيون الشعر، والشعر والشعراء موضوع دراستنا... وغيرها من الكتب.

عموما فما أنتجه ابن قتيبة في القرن الثالث الهجري، يعد علامة مميزة له ولعصره، حيث ساهم بذلك الزخم في إغناء الخزانة العربية بتراث فكري رائع.

كتابه : الشعر والشعراء . [10]

لم تشر كتب التاريخ والآداب إلى سنة تأليف ابن قتيبة لكتابه الشعر والشعراء، إلا أن كتابه كان بلا شك نقلة أدبية في القرن الثالث الهجري. فبالنظر إلى موقع الكتاب في هذا القرن، نجده واحدا من أبرز مصادر الأدب العربي، التي تزخر بها الخزانة العربية. وهذا الكتاب طبع عدة طبعات، كان أولها في ليدن سنة 1875، وأعيد طبعه سنة 1902 بتحقيق دي غويه، كما طبع طبعات أخرى، كان آخرها الطبعة التي صدرت سنة 1966 بتحقيق أحمد محمد شاكر.

عموما، فمهما تعددت طبعاته، فإنه كتاب عمدة في مادته المتميزة، كما يعتبر من مصادر الأدب التي لا غنى لباحث الأدب عنها، والتي يشهد لها بالريادة. ألفه إمام لغوي، وأديب ألمعي، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، على غرار أستاذه ابن سلام الجمحي.

وقد صاحب تأليف هذا الكتاب مناخا متميزا عرفه القرن الثالث الهجري وتميز به باعتباره القرن الذي سالت فيه أقلام العلماء آنذاك، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- ابن سلام الجمحي (ت: 231هـ): من خلال كتابه طبقات فحول الشعراء الذي صنف فيه الشعراء إلى طبقات معتمدا في ذلك معايير من أبرزها الجودة والكثرة.

- الجاحظ (ت 255هـ): هذا الكاتب وخزانته تغني عن التعريف به. فقد كان إماما للأدباء والمتكلمين، وله آراء كثيرة في النقد الأدبي، خصوصا في مسألة الطبع والتكلف، وكذا مسألة اللفظ والمعنى.

---

[10] الطاهر أحمد مكي دراسة في مصادر الأدب . ص 279 .

- المبرد (ت 285هـ): كل ما كتبه المبرد من كتب تعبر عن ثقافة عصره من نحو وشعر ولغة. ومن خلال كتابه "الكامل" مثلا نجده قد حدد موقفه من الصراع الأدبي الذي نشأ في أوائل العصر العباسي بين أنصار الشعر القديم، وأنصار الشعر الجديد.

وبذلك فكتاب "الشعر والشعراء" لم يكن بدعا في المؤلفات وإنما كان مجاريا لحركة التأليف التي شهدها القرن الثالث الهجري، إلى جانب كل من ابن سلام والجاحظ والمبرد وغيرهم.

والغرض من هذا الكتاب هو التأريخ للشعر ونقده، فقد أرخ ابن قتيبة فيه إلى نحو مائة وثمان وتسعين شاعرا، بدءا من العصر الجاهلي حتى حدود العصر العباسي الأول. كما تضمن الكتاب ما يقرب من ألفي لفظة من الغريب أتى ابن قتيبة على شرحها وبيان أوجه استعمالها.

وطبيعي في عصر هذه سماته، أن ينصب اهتمام العلماء، على دراسة الشعر لما له من أثر بليغ في الحياة الإنسانية عامة، والعربية منها على وجه الخصوص.

وغير خاف على ذوي الألباب، أن "أشعار العرب" هي مضرب الأمثال: في الفصاحة وحسن التركيب وقوة الدلالة. وهي المصدر والسند الذي أقيمت عليه أصول النحو والبلاغة العربيين.

آراء العلماء في الكتاب:

في هذا المبحث، سنعرض لآراء بعض الباحثين، المحدثين في كتاب الشعر والشعراء، وهم على التوالي:

أ- محمد زغلول سلام: يرى هذا الباحث أن الجزء الثاني من الكتاب ليس سوى جرد لآراء السابقين كالجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وابن سلام في "طبقات فحول الشعراء".

ب- إحسان عباس: يرى هذا الناقد أن طبيعة المقدمة يفصلها عن طبيعة الكتاب بون شاسع، فبينما تهدف هي إلى تصوير موقف ابن قتيبة من الشعر يأتي الكتاب تأريخا وترجمة للشعراء .والحق أن ابن قتيبة حاول الفصل بين الشعر والشعراء، بدءا من عنوان الكتاب "الشعر والشعراء".

ج- محمد رمضان الجربي: يرى هذا الباحث أن مقدمة الكتاب مقدمة نفيسة تدل على عبقرية ابن قتيبة الفذة وشخصيته المتميزة وفكره المتحرر وآرائه الفاطنة والوجيهة في النقد. يقول: "... مقدمة نفيسة تدل على عبقريته [ابن قتيبة] وقوة شخصيته وحرية فكره وآرائه القيمة في النقد، وفطنته للمقاييس الفنية، والقيم الجمالية منذ ذلك الوقت المبكر".

د- عبد العزيز عتيق: يرى أن الكتاب مرجع من مراجع تاريخ الأدب العربي الأساسية، ذلك أنه اشتمل على أخبار الشعراء وعصورهم وأشعارهم .

هـ- حسن تميم: يقول: "... هو كتاب عمدة في مادته وفحواه، ويعتبر من مصادر الأدب الأولى، ألفه أحد أئمة اللغة والأدب، الذي يستشهد بقوله، ويرجع إلى نقله، عرض فيه تراجم مشاهير الشعراء الذين تتداول أسماءهم كتب الأدب والبلاغة، والذين أسهموا بإنتاجهم الشعري في إغناء أدب العرب. والذين يقع الاحتجاج بشعرهم في علوم النحو والغريب، وفي معاني كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ" .

وعلى الرغم من تباين مواقف هؤلاء الباحثين من كتاب الشعر والشعراء، إلا أن ابن قتيبة يبقى علما بارزا من أعلام القرن الثالث الهجري وآية من آياته. ويظل كتابه أبد الدهر شاهدا على منجزه النقدي.

فما هي إذن تجليات ذلك المنجز النقدي داخل الكتاب؟

المنهج النقدي في الكتاب :

منذ البداية يعترف ابن قتيبة أنه خص بكتابه هذا: الشعراء (أخبارهم، وأزمنتهم، وأقدارهم، وأحوالهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم...)، والشعر (أقسامه، وطبقاته، والوجوه التي يختار عليها ويستحسن، وعيوبه...).

قال أبو محمد: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عزوجل، وحديث رسول الله ﷺ. فأما من خفي اسمه وقل ذكره وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ولا أعرف لذلك القليل أيضا أخبارا. وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان أو نسب أو نادرة أو بيت يستجاد أو يستغرب".

الظاهر أن ابن قتيبة ترجم للمشهورين من الشعراء الذين يحتج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عزوجل، وحديث نبيه ﷺ، في حين لم يبد أي اهتمام بمن قل ذكره وكسد شعره لجهله بأخبارهم، ولأنه يرى أن القارئ في غنى عن ذكر أسماء دون ذكر أخبار وأزمان وأنساب وأشعار أصحابها. وأغلب الظن أنه سار على منهج سابقيه في تمييز الشعر والشعراء. ومن بينهم ابن سلام الجمحي: فإذا عدنا إلى الطبقات نجده هو الآخر اقتصر على المشهورين من الشعراء، والدليل على ذلك قول ابن قتيبة نفسه: "... ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعرا إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها".

ويقول: "ولعلك تظن رحمك الله أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعرا قديما ولا حديثا إلا ذكره، وذلك عليه وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد. والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف. ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال..."

وكأن بابن قتيبة يريد أن يقول لنا إنه لا طائل من استقصاء كل الشعر. فمهما بلغ الباحث لا يستطيع أن يحصي ويلم بكل شعراء قبيلة واحدة، ولو أنفذ في ذلك كل عمره، ما بالك بكل القبائل العربية وربما أن في ذلك أيضا إشارة إلى أن سابقيه حاولوا في هذا المضمار فلم يصلوا إلا إلى القليل من الشعراء الذين صار ذكرهم أكثر من نار على علم.

إن غاية ابن قتيبة في كتابه أن يعرض لمن غلب عليه الشعر لا غير، كما فعل ابن شبرمة القاضي وسليمان بن قتيبة التيمي المحدث. ذلك لا لقصر جهد ابن قتيبة وباعه في المسألة، وإنما أراد أن يتخصص.

يقول ابن قتيبة: "... لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه، فإني رأيت في علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله..." . إن النص يعكس بجلاء مذهب بن قتيبة النقدي، فقد كان بن قتيبة عادلا منصفا في التمييز بين هذا الشاعر وذاك، وهذا الشعر وذاك، فالمحك عنده جودة الشعر بغض النظر عن الأقدمية والحداثة أو تقدم قائله أو تأخره، فهو لم يتعصب لقديم لقدمه، ولا لحديث لحداثته، كما فعل ابن الأعرابي والأصمعي وأبو عمرو بن العلاء مع شعراء العصر العباسي، خاصة جرير، والأخطل، والفرزدق، وأبو نواس وأبو تمام... عندما عدوهم من المحدثين، وعدوا شعرهم بالفاسد والرديء والأقوال كثيرة في هذا الباب.

المسائل النقدية في الكتاب:

أضرب الشعر:

استطاع ابن قتيبة أن يؤسس مقاييس للشعر انطلاقا من ركنيه (اللفظ والمعنى)، يقول: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب". فكلمة تدبرت تدل على أن هناك تفكيرا وإمعان نظر وتدقيقا، وبصفة عامة هناك مقومات النقد. فابن قتيبة كان على وعي تام بمعاني الشعروألفاظه، ما مكنه من الاهتداء إلى هذا التقسيم، وهذه الأضرب هي:

- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه:
- ضرب منه حسن لفظه وساء معناه:
- ضرب جاد معناه وساء لفظه:
- ضرب ساء معناه ولفظه:

ومهما كان هذا التقسيم، فهو تقسيم علمي إلى حد بعيد، يرمي إلى تحديد درجات الشعر.

وما يجعل عمل بن قتيبة هذا عملا نقديا متميزا، هو كونه أتى على كل ضرب بما يوافقه من أمثلة متعددة.

الطبع والتكلف:

التكلف: الشاعر المتكلف عند ابن قتيبة هو كل شاعر قام بتجويد شعره، ونقحه وأعاد النظر فيه، كزهير والحطيئة، وقد استند في ذلك إلى قول الأصمعي الذي كان يقول: "زهير والحطيئة وأشباههما من عبيد الشعر" إلا أنه في موضع آخر من الكتاب يريد بالتكلف معنى آخر وهو المشقة والعناء، إذ "كان الفرزدق يقول أنا اشعر تميم وربما أتت على ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت".

ومن الأسباب التي أدت إلى ذيوع هذا النمط من الشعر (شعر التكلف) هي "الطمع" بمعنى شيوع شعر التكسب.

الطبع: يقول ابن قتيبة عن الشاعر المطبوع: "والمطبوع من سمع بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه وفي فتحه قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر".

ومراد هذا النص أن المطبوع من الشعراء، هو من يقول الشعر على طبيعته ولا يجهد نفسه أثناء قوله. ومعنى "لا يتلعثم إذا سئل" أي لا يتردد في قول الشعر. إذ يبادر إلى ذلك منذ الوهلة الأولى. وفي هذا يختلف الشعراء، وذلك لأن المطبوعين من الشعراء يختلفون من غرض إلى غرض آخر. وقد صنفهم ابن قتيبة إلى أربعة أصناف:

- شاعر يسهل عليه المديح.
- شاعر يعسر عليه الهجاء.
- شاعر تتيسر عليه المراثي.
- شاعر يتعذر عليه الغزل.

ورغم هذا التفريق بين التكلف والطبع إلا أن وصف ابن قتيبة لمنقحي الشعر بالتكلف لا يمكن الأخذ به مبدئيا، وهذا حكم ينم إلى حد بعيد عن عدم التمييز بين التكلف والتنقيح.

إن المعترف لابن قتيبة من خلال هذا المنجز النقدي، أنه سلك مسلك ابن سلام في جوانب عدة وابتدع لنفسه مسلكا جديدا تميز به عن أستاذه، تجلى أساسا في تلك المقدمة النقدية التي تعد في نظرنا تمهيدا لابد من الاطلاع عليه قبل سبر أغوار الكتاب.

فالقضايا التي تبرزها المقدمة هي قضايا معيار: حيث يبين فيها الكاتب المعايير التي اشتغل عليها في ترجمته للشعراء، وهذا أدل على أن عمل ابن قتيبة لا يخبط فيه خبط عشواء، وإنما كان عملا منطقيا علميا صرفا، بحيث لا يحكم على شعر شاعر حديث لحداثته، ولا قديم لقدمه، وإنما المعيار عنده – كما سبق – هو الجودة والشهرة بغض الطرف عن الزمن الذي قيل فيه . وقد استطاع من خلال عمله هذا أن ينال الحظوة إلى جانب ابن سلام وابن المعتز، باعتبارهما الأقرب إلى مجاله.

2- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (471 هـ) .

المؤلف : صاحب كتاب دلائل الإعجاز هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (400 - 471هـ) : نحوي وَمتكلم، وُلِد في جرجان لأسرةٍ رقيقة الحال، نشأ ولوعًا بالعلم، مُحبًّا للثقافة، فأقبل على الكتب يلتهمها، وخاصةً كتب النحو والأدب.

الإمام عبد القاهر هو أحد المؤسسين لعلم البلاغة العربية . ويعد كتاباه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وقد قيل عنه: كان ورعًا قانعًا، عالِمًا، ذا نسك ودين، كما ألف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" . حققها مع رسالتين أخريين للخطابي والرماني في نفس الكتاب كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، وهي من أفضل ماكُتِب في الإعجاز . نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيدًا كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة. توفي عبد القاهر الجرجاني سنة 471 هـ.

-كتابه : دلائل الإعجاز [11]

وقد بدأ الإمام عبد القاهر كتاب دلائل الإعجاز بمقدمة تحدث فيها عن مكانة العلم، وعن الشعر والنحو، ومهّد للكلام في الفصاحة والبلاغة وفي إعجاز القرآن، وتحقيق القول في البلاغة والفصاحة، ثم انتقل إلى الكناية والاستعارة والتمثيل بالاستعارة، ورجّح الكناية والاستعارة والتمثيل على الحقيقة، وانتقل إلى الحديث عن تفاوت الكناية والاستعارة والتمثيل، ليبدأ القول في نظم الكلام ومكان النحو منه، عارضًا مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض، مشيرًا إلى أنه في النظم يتّحد في الوضع ويدق فيه الصنع.

وجاء الباب الأول في التقديم والتأخير مكونًا من مدخل، تحدّث فيه عن مواضع التقديم والتأخير في: الاستفهام، النفي، الخبر، ثم انتقل إلى الحديث عن تقديم النكرة على الفعل وعكسه.

ولَمّا كان للكلام ترتيبٌ منطقيٌّ معيّنٌ رأى الجرجاني أن تقديم كلمة على أخرى أو تأخيرها يساعد المتلقي على فهم المعنى المراد إيصاله له، وقد تحدّث هنا عن:

أ- تقديم اسم على آخر أو تأخيره عنه.

ب- تقديم الفعل أو الاسم وتأخيرهما.

ت- الحرف وتعلّقه بالاسم أو الفعل.

ثم جاء الباب الثاني في الحذف مكونًا من مدخل، ثم تحدّث عن حذف المبتدأ، فالمفعول به وخلص إلى نتيجة، لينتقل بعدها إلى الباب الثالث الذي عنونه بـ(الفروق في الخبر"تقسيمه"): ضمّ الباب مدخلًا تحدّث بعده عن الفروق

[11] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: تعليق محمد رشيد رضا ، ص 7 وما بعدها .

في الخبر: (الاسم والفعل في الإثبات، التعريف والتنكير في الإثبات، القصر في التعريف، نكت أخرى للتعريف، التعريف بالذي)، لينتقل بعدها إلى الحديث عن الفروق في الحال.

والحذف هو الخطوة التي تلي التقديم والتأخير، ويتمّ من خلاله تعديل وتنسيق الكلام بطريقةٍ أقرب إلى ذهن المتلقيّ، ففصّل فيه:

أ- حذف الاسم وذكره.

ب- حذف الفعل.

ت- حذف الحرف.

تحدث عن الفروق فهي تختص بالخبر، ويميّز فيه بين خبر المبتدأ في الجملة الاسمية، وبين الخبر الذي يعدّ زيادةً في خبرٍ آخر سابق له، فتناول:

أ- الجملة التي يكون الاسم المكوّن الأساس لها.

ب- الجملة التي يكون الفعل المكوّن الأساس لها.

ت- الجملة التي يكون الحرف المكوّن الأساس لها.

أما الباب الثالث والأخير فهو بعنوان الفصل والوصل وهو المرحلة الأخيرة في عملية إنشاء الكلام، إذ يميّز الجرجاني بين الوصل والفصل بين الجمل، وبين الوصل والفصل بين الكلمات داخل الجملة الواحدة، فتناول بالحديث: (الوصل والفصل الاسمي، الوصل والفصل الفعلي، الوصل والفصل في شبه الجملة).

ثم أورد خاتمة تلها فصول ملحقة بالكتاب.

واطلاعنا على كتاب دلائل الإعجاز يمكننا من معرفة المنزلة الرفيعة التي ينالها الإمام عبد القاهر الجرجاني، إذ أنّ علم البلاغة بدأ مع الجاحظ، ثمّ مع ابن المعتز واضع الأسس البلاغية، ثمّ توطدت أركان البلاغة مع أبي هلال العسكري الذي خصّ البلاغة وجعلها علمًا مكتمل الأركان وقائمًا بذاته. ثمّ جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي كان أفضل من أدرك علم البلاغة ولطائفه، فاستخدمه لإدراك جماليات الشعر والأدب.

كما مزج التنظير بالتطبيق، فكان مثالًا يحتذى لا يدانيه أحدٌ في صنيعه، وعلى الرغم من أن الزمخشري كان تلميذًا للإمام عبد القاهر الجرجاني، إذ تابع عمله ونهجه في كتابه الكشاف، لكنّ كل اللاحقين لهما لم يسيروا على نهج الإمام عبد القاهر الجرجاني، فأصبحت القواعد البلاغية قواعدَ جافة ، خالية من التذوق الجمالي.

وربما نستطيع القول إن الإمام الفخر الرازي أول من قعّد البلاغة، وجعل لها قوانين صلبة تخالف طبيعتها، ومن ثم أتى السكاكي ليقسمها إلى ثلاثة أقسام: البيان والمعاني والبديع؛ ليصبح تقسيمه هو الأكثر شيوعًا في الدراسات البلاغية.

جعل الإمام الجرجاني العلوم البلاغيّة مفاتيحًا، يطبقها على الشعر والأدب والقرآن، فهو عدّ تلك العلوم مفاتيحَ تذوقيّة تنطلق من الشعور الجمالي في النفس، وتتزامن مع تموجات الخاطر ومع الخيال وأبعاده.

بهذه العزيمة التحليلية، مضى الإمام عبد القاهر الجرجاني يستنتج القاعدة البلاغية من النص، أو يدمج التطبيق بالتنظير بعد طول درايةٍ وتحليلٍ.

فالإمام الجرجاني يبحث عن الجمال في النص الأدبي، لا يهدف من وراء ذلك إلى زيادة التسميات البلاغية، ولا يسعى لتأسيس قاعدة بلاغية، ممّا جعله على رأس الهرم البلاغي حتى يومنا هذا. فالإمام سار على هديٍ من التأمل التذوقي والجمالي.

إذ سعى إمام البلاغة يتحدّث عن ألوان البديع ذاكرًا الأمثلة الكثيرة، مبينًا مواطن الشاهد ومفسرًا وموضحًا له، ثمّ يأتي بأمثلة ليقارنها به، فيظهر جماله أو قبحه، مركزًا على السجيّة وما يناسب الطبع، وكانت المعاني هي المنطلق الأساسي الذي استند عليه الإمام عبد القاهر الجرجاني في قراءة الألفاظ والتراكيب، فالسمة الأساسية التي اتسمّ بها تحليل عبد القاهر الجرجاني هي البحث والكشف عن مكامن الجمال في النص الشعري، إذ يحلل ويركب ويناقش ويستنتج، ويصل إلى مكامن الجمال ومن ثمّ يوصلنا إليها. وفي تحليلات الجرجاني لا نشعر أنّ البلاغة هي عبارة عن قواعد جامدة، بل إن تقسيماته فرضها العقل والذوق كذلك.

1-مؤلفات أحمد أمين :

أحمد أمين: أحد أعلام الفكر العربي والإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين، وأحد أبرز مَن دعَوا إلى التجديد الحضاري الإسلامي، وصاحب تيار فكري مستقل قائم على الوسطية، وهو والد المفكر الكبير «جلال أمين.«

وُلد «أحمد أمين إبراهيم الطباخ» في القاهرة عام ١٨٨٦م، لأبٍ يعمل مُدرسًا أزهريًّا. دفعه أبوه إلى حفظ القرآن الكريم، وما إن أتم الطفل ذلك الأمر حتى التحق بمدرسة أم عباس الابتدائية النموذجية، وفي الرابعةَ عشرةَ من عمره انتقل إلى الأزهر ليكمل تعليمه، وبالرغم من إبدائه التفوق في دراسته الأزهرية، فإنه فضَّل أن يترك الأزهر وهو في السادسةَ عشرةَ من عمره ليلتحق بسلك التدريس: حيث عمل مُدرسًا للُّغة العربية في عدة مدارس بطنطا والإسكندرية والقاهرة، تَقدَّم بعدها لامتحانات القَبول بمدرسة القضاء الشرعي، فاجتازها بنجاح وتخرَّج منها بعد أربع سنوات، وعُيِّن مُدرسًا فيها.

بدأ «أحمد أمين» مشواره في التأليف والترجمة والنشر؛ حيث قادته الأقدار في عام ١٩١٤م إلى معرفة مجموعة من الشباب ذوي الاهتمامات الثقافية والفكرية، كانت تهدف إلى إثراء الثقافة العربية: حيث قدَّموا للقارئ العربي ذخائر التراث العربي بعد شرحها وضبطها وتحقيقها، كما قدَّموا بدائع الفكر الأوروبي في كثيرٍ من حقول المعرفة.

وفي عام ١٩٢٦م اختِير «أحمد أمين» لتدريس مادة النقد الأدبي بكلية الآداب بجامعة القاهرة بتوصية من «طه حسين»، كما انتُخب عميدًا للكلية فيما بعد، على الرغم من عدم حصوله على درجة الدكتوراه، إلا أن انتخابه عميدًا للكلية شغله بمشكلاتٍ عديدة أثَّرت على سَير مشروعه الفكري، ففضَّل الاستقالة من العِمادة في عام ١٩٤٠م. وقد حصل بعدها بثماني سنوات على الدكتوراه الفخرية.

كتب في العديد من الحقول المعرفية، كالفلسفة والأدب والنقد والتاريخ والتربية، إلا أن عمله الأبرز هو ذلك العمل الذي أرَّخ فيه للحركة العقلية في الحضارة الإسلامية: فأخرج لنا «فَجر الإسلام» و«ضُحى الإسلام» و«ظُهر الإسلام»، أو ما عُرِف باسم «موسوعة الحضارة الإسلامية». وقد ظل «أحمد أمين» مُنكَبًّا على البحث والقراءة والكتابة طوال حياته إلى أن انتقل إلى رحاب الله عام ١٩٥٤م، بعد أن ترك لنا تراثًا فكريًّا غزيرًا وفريدًا، راكَم عليه مَن جاء بعده من الأجيال.

كتابه : النقد الأدبي [12]

ألف أحمد أمين هذا الكتاب ليكون كتابًا مرجعًا، حيث تطرق فيه إلى الكثير من القضايا ذات الصلة بالنقد الأدبي، فتحدث عن أصول النقد ومبادئه، ونظرياته، والأسس التحليلية التي تستند إليها هذه النظريات، والغرض من دراستها، وارتباطها بالفن والعلم، كما تناول المؤلف الجانب التاريخي الخاص بالنقد الأدبي عند العرب والغرب، فاستعرض تاريخ النقد الأدبي الغربي، وتطرق إلى عوامل انحلال المدرسة الكلاسيكية الحديثة، ووضْع النقد الأدبي بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرومانتيكية، هذا بالإضافة إلى تطرقه لتاريخ النقد الأدبي في الحضارة العربية بدءًا من العصر الجاهلي مرورًا بالعصر الأموي وانتهاءً بالعصر العباسي.

[12] بدر العبد القادر: الفكر اللغوي عند أحمد أمين ، الدار المتوسطية للنشر، أريانة ط1 ، 2019 ، ص 188 .

الأدب مرآة الحياة. تلك كلمة صادقة تنطبق على تاريخ الأدب كله، وهي أشد صدقًا في العصر الحديث الذي يمزج مزجًا شديدًا بين شئون الحياة المختلفة. فلا يدع شيئًا منها بمعزل عن بقية الأشياء.

وصدق تعبير الأدب عن الحياة أمر طبيعي، مادام يعبر عن النفس البشرية والنفس البشرية تتأثر بالحياة الخارجية تأثرًا لا تملك الهروب منه ولا الوقوف بمعزل عنه. وإنما تختلف الاستجابات باختلاف الطبائع. وطريقة كل شخص في تلقي المؤثرات والتفاعل معها. كما تختلف كذلك طرق التعبير عن التفاعلات الفردية. ولكنها كلها في آخر الأمر صدى للحياة الخارجية وصور منها مختلفة الألوان والاتجاهات.

وقد كانت الحياة الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين مسرحًا لحركات فكرية عنيفة. تتجه كلها لحل المشكلات الاجتماعية التي تأزمت في تلك الفترة من تاريخ البشرية. بسبب ما أحدثه التقدم الصناعي من رد فعل في الاقتصاد والاجتماع.

وكان طبيعيًا أن يدخل الأدب المعركة. ويكون سلاحًا من أسلحتها الفعالة لأن الأدباء لم يكونوا يملكون أن ينعزلوا في أبراجهم العاجية. بعيدين عن معترك الطبقات المتصارعة والأوضاع السريعة التحول. ولو فعلوا ذلك لانصرف قراؤهم عنهم. بحثًا عمن يحدثهم عن آلامهم. ويشاركهم التفكير في مشكلاتهم.

لذلك نجد معظم الإنتاج الأدبي في هذه الآونة — على اختلاف ألوانه من مسرحيات وروايات وشعر ومقالات — يتخذ المشكلات الاجتماعية موضوعًا له. ويحاول بطريقته الخاصة أن يشير إلى وسائل العلاج. ولعل أبرز الأمثلة لهذا الاتجاه برناردشو. وهـ. ج. ولز اللذين وقفا إنتاجهما على مثل هذه الموضوعات.

وإن كان هناك غيرهما من النقاد. ولكنا نكتفي بهما لدلالتهما على غيرهما.

هـ. ج. ويلز :

يعتبر ويلز من أكثر الكتاب المحدثين إنتاجًا. وأوفرهم نشاطًا. وقد عمر إلى ما فوق التسعين. فلم توهن السن نشاطه ولا مقدرته العقلية الفائقة. وظل ينتج إلى أخريات أيامه. ولم يكد يمر عليه عام واحد لا يخرج فيه كتابًا. وربما كتابين أو ثلاثة.

كان ويلز يؤمن بالعلم. وبالتقدم الآلي الصناعي في المستقبل ولعله متأثر في ذلك بدراسته الصيدلة في صدر شبابه. ولكنه كان في الوقت ذاته يرى أنه لا بد من تنظيم اجتماعي عادل. ليمكن الإفادة من التقدم العلمي في إسعاد البشرية. وإلا نتج عنه الدمار والخراب.

وكانت كتاباته — القصصية خاصة — تهدف إلى عرض هذين الموضوعين أو هذا الموضوع ذي الشعبتين. فهو يشرح النظريات العلمية الحديثة. وما ينتظر لها من نجاح عملي واسع في المستقبل. في عرض قصصي شائق يجعل قراءه يلمون بتلك الموضوعات العلمية الصعبة دون شعور بصعوبتها. ولا ملل الدراسة العلمية الجافة.

وفي الوقت ذاته كان يدعو في هذه القصص إلى حياة اجتماعية عادلة. تستغل فيها نتائج التقدم الصناعي لخير الجميع. لا لخير طائفة بمفردها. تستغل غيرها من الطوائف. وتوردها موارد الهلاك لمجرد أن تزداد هي غنى ومتعة وشعورًا بالسلطان.

وهو لا يفصل بين هذين الهدفين في كتابته، ولا تحسن أنت في الوقت ذاته أنه معلم قد وقف في المعمل يشرح نظرية علمية، أو محاضر وقف يلقي موعظة اجتماعية على جمهور من المستمعين، بل هو يضمن ذلك كله قصة إنسانية عاطفية، تشعر بالتعاطف مع شخصياتها فتحبها أو تكرهها، وتتمنى لها التوفيق، أو تنتظر أن تحيق بها نتيجة ما تبثه من شرور، فهو من هذه الوجهة يختلف عن برناردشو، الذي يجعل مسرحياته ستارًا رقيقًا لدعوة الإصلاح الاجتماعي التي يدعو إليها، فلا يهتم برسم الشخصيات والخلجات النفسية الدقيقة اهتمامه بأن يضع في فم شخصيته آراءه في المشكلات وفي طريقة العلاج، وإن كان يشبهه في الاهتمام بالمباحث الاجتماعية، والاشتراك في عضوية جماعة الفابيين، وتوجيه النقد اللاذع للأحزاب القائمة وبرامجها، والنظام البرلماني الفاسد.

ولكن ولز مع براعته القصصية، وموهبته في رسم الشخصيات وتصوير العواطف البشرية لم يكن يلقي باله كثيرًا إلى تنميق العبارات وتحلية الأسلوب. ولذلك تحس أحيانًا بشيء من الجفاف في أسلوبه، وإنما يعوض هذا الجفاف براعته في رسم الجو القصصي وتشويق القارئ إلى تتبع أحداث القصة.

وليست القصة هي الإنتاج الوحيد لهذا الكاتب الفذ، وإن كانت قد استغرقت جزءًا كبيرًا من نشاطه الأدبي، فهو قد كتب مئات من المقالات في الصحف السيارة، وكان لها أثرها في توجيه الاهتمام إلى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في العصر الحديث، ولكن أهم إنتاج له بجانب المقالات والقصص هو كتابه في تاريخ العالم، وترجع أهميته إلى النظرة الجديدة التي نظر بها ولز إلى تاريخ البشرية، فهو لم ينظر إليه باعتباره أحداثًا فردية، ولا تاريخ دول تتناحر، أو أفذاذًا يسطرون بأعمالهم سطور التاريخ، وإنما نظر إلى الإنسانية كلها كوحدة متصلة يؤثر بعضها في بعض، ولا ينقطع هذا التأثير على مدار الأجيال، وإنما هو كالأمواج المتلاحقة لا تستطيع أن تمسك بموجة واحدة فتقول: إنها مستقلة عما قبلها أو ما بعدها، أو أن لها وجودًا منفصلًا متميزًا، وكل تقدم أصابته البشرية كان تقدمًا لها جميعًا، لا للدولة ولا للشخص الذي تم على يديه التقدم، وكل كارثة تصيب البشرية هي كذلك كارثة الجميع دون فواصل ولا حدود.

وقد كانت هذه النظرة جديدة حقًّا بالنسبة للتاريخ الذي اعتاد الكتاب أن يقسموه أقسامًا واضحة حاسمة، كما اعتادوا أن يرجعوا أحداثه إلى أفراده البارزين، وهي تلتقي مع الاتجاه الاجتماعي والفكري الذي كان قائمًا في تلك الفترة في أوروبا خاصة، فقد كانت كتابات علماء الاقتصاد والاجتماع تتجه إلى إبراز دور الشعور في التقدم البشري، وتعد الطبقات الكادحة، وهي الأغلبية العظمى من البشرية، صاحبة الحق في السيادة، وفي البروز إلى مسرح الأحداث، وعدم الاكتفاء بدورها المغمور وراء الكواليس.

ومما يتمشى مع هذا الاتجاه عند ولز محاربته لفكرة الوطنية الصغيرة، والقومية الضيقة، ورغبته القوية في أن تستبدل بها الشعوب نظرة إنسانية واسعة لا تقف عند حدود إقليم ضيق، ولا تقيم الحواجز الجمركية أو الثقافية بين شعوب الأرض، لتتاح لها فرصة التفاهم والتعاون، بدل الحرب والخصام، ولعله في ذلك متأثر بفكرة الحكومة العالمية كما بشر بها دعاة الاقتصاد الحديث في نهاية القرن التاسع عشر، ولكنه دون شك قد يتأثر كذلك بطبيعته الخاصة كفنان تؤثر فيه آلام البشرية، ويرجو لها الخلاص من العذاب.

وربما حدث بعض التبدل في اتجاهاته الإنسانية بين الحين والحين، حين يرى أن وطنه الخاص — إنجلترا — في خطر فيعود يبشر بالقومية والوطنية والحواجز الجمركية! ولكنه بصرف النظر عن تلك الملابسات الخاصة ينحو في قصصه ومقالاته إلى الفكرة العالمية الواسعة.

وقد تفقد بعض قصصه سحرها وتشويقها حين تتحقق بالفعل تنبؤاته العلمية البارعة التي كانت في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر أحلامًا أقرب إلى الخيال، فصارت اليوم أقرب إلى الحقيقة الواقعة، أو ربما زاد الواقع

الذي وصل إليه العلم عن خيال الحالين منذ خمسين عامًا. ولكن ولزرغم ذلك لن يفقد مكانته الأدبية ومكانه من التاريخ.

جورج برناردشو :

من ألمع الكتاب الذين ظفربهم القرن التاسع عشروالقرن العشرون، ومن أقوى الشخصيات التي أثرت في محيط الأدب، وكان لها القدرة على التوجيه والتغيير.

وإن أشد ما يتميزبه برنارد شوهو سخريته اللاذعة التي لا يعفي منها أحدًا حتى نفسه! ولكن هذه السخرية جديرة بأن نقف لديها لحظة لنعرف طبيعتها، وما هو الطريق الذي اتخذته. إن السخرية عنوان واسع يشتمل على أبواب كثيرة وألوان متعددة، كل منها يدل على مزاج خاص وطبيعة متفردة فهذا شخص يسخربالناس والحياة والأشياء لأنه ساخط عليها حاقد على موقفها منه، إنه يتخذ السخرية متنفسًا لما يعتمل في نفسه من غل وضغينة، وهذا شخص آخر يسخر لأنه مطبوع على رؤية ما في الأشياء من تناقض، موهوب في الكشف عن هذه المتناقضات، فهو لا يحمل لأحد ضغينة، ولا تمتلئ نفسه بالأحقاد، ولكنه «تسلى» بإبراز ما في الكون من شذوذ وتنافر، ولا هدف له بعد ذلك إلا الترويح عن نفسه ونفوس الآخرين، وذلك شخص ثالث يسخر، لا ضغينة شخصية لأحد، ولا حبًّا للتسلية والترويح عن النفس، ولكن لأن له من وراء سخريته هدفًا اجتماعيًّا أوفكريًّا، يريد أن يصل إليه، فيتخذ من السخرية وسيلة لهدم العوائق التي تقف في سبيل هذا الهدف، أو تشويهها وتسخيفها في نظر الناس حتى يكونوا أكثر ميلًا إلى الإيمان بالمذهب الذي يدعوهم إليه.

ومن هذا النوع الأخير كان برناردشو.

ولكي نتعرف طبيعة السخرية في نفسه، نوازن بينه وبين سومرست موم ملا، وكلاهما كاتب ساخر لاذع لا يكاد يترك من أوضاع الحياة شيئًا إلا سخربه، إنك تلمس في كتابات موم أنه يسخر، لأنه يجد لذة عميقة في كشف مخازي الناس، وفي إزالة القناع البراق الذي يخفون به مساوئهم الحقيقية فقط، أو هذا على الأقل هو أكبر أهدافه! إنه لا يؤمن بالإنسانية الرفيعة المثالية، ولا يؤمن بالمشاعر البيضاء، ولذلك نذر نفسه لكشف الدنايا النفسية أمام أولئك المخدوعين الذين يؤمنون بالمثل والأحلام، ولكن برناردشو شيء آخر، إنه يسخر وينتقد لأن هناك أوضاعًا فكرية واجتماعية لا تروقه، إنه لا يوافق على استغلال بشر لبشر آخر لأن ذلك يتنافى مع الحرية الإنسانية ومع الكرامة الإنسانية. إنه إذن يؤمن بالإنسانية يؤمن بالحياة إيمانًا عميقًا، ومن ثم يؤمن بكل حي، حتى الحيوانات يعطف عليها ويأبى أن يأكل لحومها، ويعد ذلك وحشية واستغلالًا لا يجوز!

وهذا الهدف الذي نصب نفسه مدافعًا عنه وهو الحرية الإنسانية والعدالة الاجتماعية لم يكن فكرة يتاجربها، أو مذهبًا يدعو إليه لنيل الشهرة والبروزعلى طريقة المشتغلين بالسياسة، ولكنه كان شيئًا يؤمن به إيمانًا عميقًا، يملك عليه كل مشاعره، وقد تعرض لسخط الدولة، بل سخط الجماهير أنفسهم أكثر من مرة، ولكنه لم يكن يبالي سخط الناس أم رضوا، وإنما يعنيه أولا وقبل كل شيء أن يدفع رأيه إلى الناس في صراحة وجرأة وإصرار، وكان يعرف أن ما يسخط الناس اليوم لأنه سابق لتفكيرهم، سيرضيهم غدًا حين تنضج أفكارهم ويدركون الأمور على وضعها الصحيح.

هو إذن داعية اجتماعي، تلك حقيقته التي تظهرمن خلال كتاباته جميعًا، من مسرحيات ونقد ومقالات؛ كما تظهر بوضوح في خطبه السياسية والاجتماعية التي ثابرعليها فترة طويلة من الوقت، وكذلك من انضمامه لجماعة الفابيين واشتراكه في إعداد برامجها وتحرير نشراتها.

بل إن فنه المسرحي لم يكن هو الغاية المقصودة لذاتها، إنه مجرد أداة للتعبير وهو لم يكن ينظر إليه إلا على هذا الأساس. فهو لا يؤمن بالمبدأ القديم الرومانتيكي الذي يقول الفن للفن، وإنما يؤمن بأن الهدف الاجتماعي هو الغاية التي ينبغي أن يكون الفن أداة مسخرة لها، وكان هذا طبيعيًا مع نمو الحركات الاجتماعية في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ومبادئ القرن العشرين، حتى غلبت على كل حركة فكرية أو سياسية، وأدخلت الفن كذلك في نطاقها، فقد بلغت الحالة الاقتصادية والاجتماعية من السوء مبلغًا جعل المفكرين يتجهون بكل نشاطهم لإصلاح ما فيها من سوء، وجرف التحمس لها كل المبادئ والنظريات المعارضة بما فيها من مثاليات، فأصبحت كلمة «الفن للفن» لا تثير أي صدى لا عند الجماهير الساخطة ولا عند المفكرين والنقاد، واتجه الجميع إلى ما سموه «الواقعية»، بمعنى دراسة الأحوال الواقعية واستخلاص الحلول العملية للمشكلات.

وكما كان كارل ماركس وفردرك إنجلز رائدي الحركة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، كان إبسن رائدها في المسرح، وقد تأثر به شو تأثرًا عميقًا وتتلمذ له ولطريقته، فكان مسرحه امتدادًا وبلورة لمسرح إبسن الواقعي الذي يدرس المشكلات الاجتماعية القائمة ويشير بطريقة علاجها.

لذلك كله لم يكن شو يهتم بمسرحه على أنه معرض للقدرة الفنية في ذاتها وللبراعة في الحوار وتصوير الخلجات النفسية كما كان يصنع شكسبير مثلًا، بل كان يعتبر المسرح معرضًا لأفكاره، وأبطال رواياته ممثلين لهذه الأفكار، فالمسرحية في نظره «مناظرة» بين وجهات نظر متباينة، يتبين في نهايتها أصوب الآراء وأولاها بالاتباع.

وقد عاب عليه نقاده هذا الأمر، وقالوا: إن رواياته مجرد دعاية لأفكار اجتماعية كان يمكن أن يقولهـــــا في خطبة أو محاضرة أو في كتاب علمي!

ولكن الواقع أنه — وإن كان لم يهتم بالمسرح إلا كأداة من أدوات التعبير عن آرائه — إلا أن ذلك لم يمنع موهبته المسرحية من الظهور في صورة فن خالص، يحتفظ بطابعه الفني الإنساني بصرف النظر عن الملابسات الاجتماعية القائمة، أو الدعوة للأفكار المؤقتة .

النقد في العصر العباسي :

إذا وصلنا إلى النقد في العصر العباسي رأينا إمعانًا في الحضارة وإمعانًا في الترف ورأينا الشعر والأدب يتحولان إلى فن وصناعة بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة، حتى لنرى كثيرًا من الكتاب والشعراء من الموالي الذين عدوا عربًا بالمربى، ورأينا الثقافة تعظم وتتسع وتشمل فروع المعرفة كلها لا تقتصر على الثقافة الدينية والأدبية، ورأينا الثقافات الأجنبية تتدفق على المملكة الإسلامية من فارسية وهندية ويونانية ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة والأدب والنحو والصرف .

فكان طبيعيًا أن يتحول الذوق الفطري إلى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة، وأن يتأثر النقد الأدبي بهذه الثروة العلمية والأدبية الواسعة.

لقد كان مما عمله العلماء أن جمعوا ما استطاعوا من أشعار الجاهليين والإسلاميين، فكانت المادة الأدبية التي ينقدونها أغزر وأوفر، وجمعوا مادة اللغة، واطلعوا على أقوال النقاد السابقين كما نقلت إليهم أقوال الفرس والهند واليونان في معنى البلاغة وشروطها.

كل هذا أفسح لهم مجال النقد ومكن لهم من رقي الذوق كما مكن لهم من أن يحوروا النقد القديم غير المعلل الذي لا يعدو أستحسن أو استهجن إلى نقد معلل يبين فيه سبب الاستحسان والاستهجان.

ولو تتبعنا ما روي لنا من النقد في هذا العصر لرأيناه متجهًا اتجاهين أو سائرًا على نمطين: نمط منه هو امتداد النقد الجاهلي والإسلامي مع ما اقتضته البيئة من تحول؛ من ذلك أن العلماء باللغة والأدب من العباسيين أمثال الخليل والكسائي والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء، والنضر بن شميل، وابن الأعرابي، كانوا يستعرضون الشعراء السابقين من جاهليين وإسلاميين ويتذوقون شعرهم ويبدون فيه رأيهم، فيقولون: إن شعر النابغة قوي الصياغة شديد الأسر، وشعر امرئ القيس غزير بالمعاني التي لم يسبق إليها، وشعر جرير أسهل وأرق، وشعر الفرزدق أقسى وأصلب إلى غير ذلك.

ويقول أبو عمرو بن العلاء في ذي الرمة: إن شعره نقط عروس تضمحل عما قليل، أو أبعار ظباء لها شم في أول شمها، ثم تعود إلى أرواح الأبعار، يريد أن يقول: إن لشعره حلاوة ولكن لا تبقى.

وكان هؤلاء العلماء يتنازعون في أفضلية الشعراء، فكان المفضل الضبي يقدم الفرزدق على جرير، وأبو عمرو بن العلاء يقدم الأخطل ثم جريرًا ثم الفرزدق.

وكان علماء الكوفة مثلًا يقدمون الأعشى على من في طبقته، وعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الحجاز يقدمون النابغة وزهيرًا.

وكان لهذا الاختلاف في التفضيل أسباب؛ من ذلك أن بعض العلماء كان يحب الغريب من الألفاظ فيقدم من الشعراء من يستعمل الغريب، ومنهم من يحب الغزل فيقدم أكثرهم غزلًا، ومنهم من يحب النحو فيقدم الفرزدق لإكثاره من تقديم وتأخير ونحو ذلك.

ووازنوا بين الشعراء، فقال أبو عمرو بن العلاء في أوس بن حجر: إنه كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه. وقال: إن عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري معها.

واستعرضوا الشعراء وأبانوا موضع نبوغهم وموضع ضعفهم، فقالوا: طفيل الغنوي أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها، وامرؤ القيس يحسن وصف المطر، وعنترة يحسن ذكر الحروب، وأمية بن أبي الصلت يحسن ذكر الآخرة، وعمر بن أبي ربيعة يحسن ذكر الشباب، وشبهوا جريرًا بالأعشى والفرزدق بزهير، والأخطل بالنابغة.

واستعرضوا الشعراء الذين تواردوا في شعرهم على معنى واحد ففضلوا قولًا على قول، ففضلوا في الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة:

يغار علينا واترين فـــــــيشتفى   بنا إن أصبنا أو نغير على وتــر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة   فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وقالوا: أجود بيت قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايــــا   وأندى العالمين بطـــــون راح

إلى غير ذلك.

وهذا نمط يشبه النمط الذي رأيناه في العصر الأموي، ولكنه أوسع وأعمق لما ذكرت من أن المادة عندهم أصبحت أغزر وعلمهم بالشعر أوفر، وهم قد تفرغوا لهذا الضرب من العلم وأصبح صناعتهم، وفي صميم حياتهم لا على هامش حياتهم كما كان الشأن من قبل، وهم إذا نقدوا عللوا ولم يكن قولهم مجرد حكم كما كان من قبل، فيونس يفضل الفرزدق ويعلل ذلك بأنه أكثرهم عدد قصائد طوال جياد، ولم نجد للأخطل عشرًا بهذه الصفة، ووجدنا لجرير ثلاثًا بهذه الصفة، وخلف الأحمر يفضل قصيدة مروان بن حفصة التي مطلعها:

طرقتك زائرة فحي جمالها　　بيضاء تخلط بالجمال دلالها

على قصيدة الأعشى التي مطلعها:

رحلت سمية غدوة أجمالها　　فأصاب حبة قلبه وطحالها

قال خلف: والطحال ما دخل في شيء قط إلا أفسده، وأما قصيدة مروان فسليمة كلها، وهكذا من الأحكام المبنية على التعليل . أما النمط الآخر الذي كان جديدًا لم يسبق إليه فهو النمط العلمي في النقد، نمط التأليف ووضع الكتب لا تتعرض إلا للنقد وما يتصل به . ولعل أسبق البلدان في ذلك هي البصرة، فقد كانت الحركة العلمية فيها على أتم ما يكون من نشاط، وكان فيها أول حركة للاعتزال، والمعتزلة هم واضعو أصول البلاغة إذا كانوا هم المحتاجين إليها في الدعوة وإقامة الحجج، فوضع منهم بشر بن المعتمر الصحيفة الخالدة في البلاغة، وجاء بعده الجاحظ، وهو ما هو في البلاغة وفنونها .

لقد كان في البصرة علماء من النمط الأول كأبي عمرو، ويونس، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبي عبيدة، فجاءت الطبقة التي بعدهم وفلسفت النقد وفلسفت الكلام من قبل وجعلته علمًا وألفت فيه كتبًا.

ولعل أقدم ما وصل إلينا من كتب النقد كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وهو أيضًا بصري، كانت له معارف واسعة في اللغة، والأدب، والنحو، والأخبار، حصلها من علماء عصره: حماد، وخلف، وأبي عبيدة، والأصمعي، وغيرهم، وأخذ أفكارهم وآراءهم المبعثرة ونظمها تنظيمًا علميًّا، ونقل النقد خطوة جديدة كالخطوة التي خطتها اللغة من كلمات مبعثرة إلى معجم منظم، أو كنقل الأبحاث النحوية المفرقة إلى كتاب ككتاب سيبويه ونحو ذلك.

لقد تعرض ابن سلام في كتابه لنقد المتن، أعني أنه رفع صوته بأن الشعر الذي يروى لنا عن الجاهليين والإسلاميين ليس كله صحيحًا بل كثير منه موضوع، وأن هناك أسبابًا حملت الرواة، أن يتزيدوا من الشعر، ويتقولوه على القبائل، وينسبوه إلى غير قائله، فيعرض ابن سلام لكثير من الشعر ينقده، ويقيم البراهين على فساده، فيعيب على ابن إسحاق أنه أورد في سيرته شعرًا كثيرًا مصنوعًا، بل ذكر شعرًا لعاد وثمود، ويبرهن على فساده بأن اللغة العربية بهذا الشكل لم تكن موجودة في عهد عاد، وأن عادًا من اليمن ولليمنيين لغة حميرية غير اللغة المضرية، وأن ما روى ابن إسحاق لعاد قصائد، والقصائد متأخرة التاريخ لم تعرف إلا في عهد عبد المطلب بن هاشم، إنما كان الشعر قبل ذلك أبياتًا تقال في حادثة خاصة، وهكذا يمضي في تدليله ويبين الأسباب التي حملت على الوضع. ثم يذكر المشهورين من الشعراء شاعرًا شاعرًا، ويذكر ما يصح أن يكون له بحق وما لا يصح.

ثم يعرض لشيء آخر هام وهو تقسيم الشعراء إلى طبقات، وكثيرًا ما يذكر رأيه ورأي العلماء في كل شاعر فيما أجاد وفيما لم يجد، ويوازن بين الشعراء، فيقول مثلًا: «كان لكثير في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه في النسيب، والشماخ بن ضرار كان شديد متون الشعر، أشد أسرًا في الكلام من لبيد، وفيه كزازة ولبيد أسهل منه منطقًا».

وقد تعرض للشعراء الجاهليين فجعلهم طبقات حسب تفوقهم، وعدد كل طبقة، وعلل ما فعل. ثم تعرض للشعراء الإسلاميين وفعل بهم ما فعل في الجاهليين، وهو في كل ذلك ينقل عمن سبقه ويرتب أقوالهم، ويزيد عليها من آرائه الشخصية وفي ثنايا كل منه نظرات صائبة تدل على صدق النظر، كتعليله سهولة شعر عدي بأن كان يسكن الحيرة ومراكز الريف، فكان لذلك لين اللسان سهل المنطق، وكتعليله قلة الشعراء بالطائف بأن الشعر إنما يكثر بالحروب التي بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو بين قوم يغيرون ويغار عليهم، ولم يكن من ذلك شيء في ثقيف.

ولكن كتابه على فضله ككل كتاب يعد طليعة في فن ينقصه الترتيب المحكم، والنظام الدقيق. فيأتي من بعده من يكملون نقصه، ويحكمون نظامه؛ وكذلك كان. فقد أتى مؤلفو النقد بعده يوسعون نظرياته ويزيدون كلًّا منه شرحًا وتعليلًا، ودقة وتفصيلًا.

ولا بأس أن نذكر هنا ظاهرة حدثت في أوائل العصر العباسي خاصة بالنقد وهي انقسام الناس إلى معسكرين يصح أن نسميهما: حزب الأحرار، وحزب المحافظين.

لقد جاءت الدولة العباسية بشعراء مجددين كبشار، ومسلم بن الوليد ونحوهما، وكان لهم تجديد في المعاني، وتجديد في الأسلوب، فجاء النقاد يختلفون فيهم، فمنهم من تعصب للقديم لا يرى شعرًا سائغًا سواه، ولا شعرًا يصح أن يروى ما عداه كابن الأعرابي، ومنهم من كان يرى أن الشعر فن وصناعة فيجب أن يقاس بمقياس الفن والصناعة، فما أظهر المقياس ضعفه ضعف ولو كان قديمًا، وما أظهر جودته حكم بجودته ولو كان حديثًا.

وكان لابن قتيبة في أول كتابه «الشعر والشعراء» الفضل الأول في عرض الرأيين، وتسخيف من يفضل القديم لقدمه، وتأييد نظرية الأحرار.

وكان لكل من المحافظين والأحرار أثر بين في الأدب، فأثر الأحرار ميل بعض الشعراء إلى التحرر من القديم والحملة عليه كما يظهر في بعض قصائد أبي نواس، وأثر المحافظين تخوف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة فيثيروا سخطهم ونقدهم، وهكذا في كل شأن وعصر، محافظ وحر، والتقدم المتئد وليد الحركتين، ونتاج الحزبين.

على كل حال كان النقد مستندًا على الذوق وحده في العصر الجاهلي والأموي فلما جاء العصر العباسي تحول النقد من اعتماد على الذوق إلى علم بقواعد وأصول. وكان من أوائل النقاد في العصر العباسي الأول ابن سلام الجمحي، في كتابه طبقات الشعراء، فله فيه نظرات لامعة، واتجاهات دقيقة. قال فيما يجب على الناقد من ثقافة: «قال قائل لخلف: إذا سمعت أنا الشعر واستحسنته، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. قال له خلف: إذا أخذت أنت درهمًا فاستحسنته، فقال لك الصراف، إنه رديء. هل ينفعك استحسانك له؟» ويقول أيضًا: «للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت: لا يعرفان بصفة أو وزن، دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون، ولا مس، ولا طراز ولا حس ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومقررها، ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه، واختلاف بلاده وتشابه لونه ومسه وزرعه، حتى يضاف كل صنف منها إلى بلده الذي أخرجه. وكذلك الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة المثال، واردة الشعر، فتكون بهذه الصفة بمئة دينار ومئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار أو أكثر، لا يجد واصفها مزيدًا على هذه الصفة. وابن سلام في هذا لا يخرج عن الاعتماد على الذوق، ولكنه يريد ذوق الخبراء الممارسين الدارسين ذوي البصر بالشعر، فيكون حكمهم على الجيد والرديء أتم وأصح من حكم من عداهم. وشأنهم في ذلك شأن أهل الصناعات الأخرى، فمنهم عاديون لا يؤبه كثيرًا بقولهم، ومنهم حذاق مهرة ينظرون إلى الشيء فيحكمون عليه حكمًا دقيقًا صحيحًا، وذلك كخبراء الصوف، والجواهر وغيرهم، فلم

لا يكون للشعر والأدب نقاد من هذا القبيل يرجع إليهم عند الاختلاف في قطعة أدبية أهي جيدة أم رديئة؟ وقد كان ابن سلام نفسه من هذا الصنف الخبير الماهر، فقد استطاع بدقة شعوره ورقة ذوقه، وطول دربته أن يميز بين صحيح الشعر الجاهلي ومنحوله، بل يميز ما كان منه لقبيلة دون أخرى، وفهم أن تسابق القبائل إلى التفاضل بينهم جعل كل قبيلة تنتحل أشعارًا ليست لها، وكان دقيقًا في تعليله أن الشعر ليس كثيرًا في مكة، لأنه على حد تعبيره لم يكن هناك ما يستثير شعراءها من دواعي الحرب وأمثالها، وهو على حد تعبيرنا اليوم «إنه لم يكن لديها بواعث تهيج العاطفة: وهو تعليل كما ترى دقيق، وكان من مميزاته محاولة ترتيب الشعراء وجعلهم طبقات».

وجاء بعده ابن قتيبة وكان له ميزتان كبيرتان، الأولى أنه دعا إلى عدم التفريق في الوزن بين قديم ومحدث، فالشعر القديم قد يكون جيدًا وقد يكون رديئًا، والمحدث قد يكون جيدًا وقد يكون رديئًا، وعلى رأيه كل قديم كان حديثًا في زمنه.

قال: «ولم أسلك فيما ذكرت من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم، بعين الجلالة لتقدمه، وأعطيت كلًّا حظه، ووفرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره، وكل شريف خارجيًا في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل، وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدَثُ وحسُن، حتى لقد هممت بروايته، ثم صار هؤلاء قدماء عندما بعُد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخُرَيمي والعتَّابي، والحسن بن هانئ وأشباههم، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف: لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» ا.هـ

وهذه نظرة صادقة ربما سبقت زمانها، ولكن مع الأسف يقول في موضع آخر: «وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر، والرسم العائر، أو يرحل على حمار أو بغل، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد

المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن و الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والعرار». فهذه نظرة رجعية تناقض نظرته السابقة. فلماذا لا يكون جميلًا قول علي بن الجهم:

عيون المها أين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ندري ولا ندري

بل هو أجمل من قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

بل نرى على العكس من ذلك أبا نواس دعا إلى أنه ليس من الصدق أن تبكي على الأطلال ولا أطلال، أو نبكي على قيس وتميم ولا قيس وتميم. فيقول:

صفة الطلول بلاغة الفَدْم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وإذا وصفت الشيء متبعًا لم تخل من غلط ومن وهم

ويقول:

فمن تميم ومن قيس وغيرهما ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكنه مع الأسف لم يثبت على نظريته، ولم يستمر على دعوته، بل رجع عنها، فبكى الطلول، واستعمل الغريب، وقلد الجاهليين في شعرهم عند مدحه للأمين.

والثانية أنه فرق بين الروح العلمية، والذوق الأدبي، وأن اشتغال الأديب بالمصطلحات الفلسفية، لا يفيده في الأدب، بل هو يضعف ذوقه وإنما الذي يربي ذوقه حفظ النماذج الأدبية وتقليدها. قال في كتابه «أدب الكاتب»:

«إن هناك من يعجب بنفسه فيزري على الإسلام برأيه، ولا ينظر في كتاب الله وأخبار رسوله، وينحرف عنه إلى علم له منظر يروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الكون والفساد، وسمع الكيان والكيفية والكمية، راعه ما سمع وظن أن تحته كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعه لم يحز منه بطائل. وهذه كلها تكون وبالًا عليه، وقيدًا للسانه، وعيًّا في المحافل، وغفلة عند المنتظرين»، وهذه أيضًا نظرة صادقة في التفرقة بين العلم والأدب، وجناية الأساليب العلمية على الذوق الأدبي.

وكان من رأيه في موضع آخر أن اللفظ في خدمة المعنى، وأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بألفاظ مختلفة بعضها جيد، وبعضها رديء.

•••

وجاء بعد ذلك ابن المعتز! وألف في ذلك كتابه «البديع» فلفت الناس إلى أن البديع كان موجودًا في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنه كان مفرقًا يأتي عفوًا، فجاء بشار وأبو تمام ومن بعدهما، فأكثروا منه وقصدوا إليه.

وكان مما صنعه هو وضع مصطلحات لأنواع البديع المعروفة في زمنه، ونقد ما أتى معيبًا من كل نوع، ولكن على كل حال لم يكن ابن المعتز من حيث تاريخ النقد بذي خطر، إنما خطره من حيث جودة شعره وحسن تشبيهه.

وجاء بعده قدامة بن جعفر، وألف كتابيه المشهورين في نقد النظم ونقد النثر وهما إلى البلاغة أقرب، وهو المسئول الأول عن جمود المصطلحات البلاغية وتحجرها، وفقد روحها، كما أنه المسئول الأول أيضًا عن تسرب بعض آراء أرسطو وأمثاله من اليونانيين في البلاغة اليونانية إلى البلاغة العربية وأدبها، فقد عرف الشعر وذكر محسناته، ثم ذكر عيوبه.

وهو لم يزد في النقد شيئًا ولا في وضع قواعده: إلا أشياء شكلية ومصطلحات رسمية، وقد تأثر به علماء البلاغة الذين جاءوا بعده أمثال السكاكي صاحب مفتاح العلوم، وسعد الدين التفتازاني.

ووجد أثرًا لخصومة الأدباء على أيهما أفضل: أبو تمام، أو البحتري مدرستان عنيفتان: إحداهما تفضل أبا تمام لغزارة معانيه، وطائفة تفضل البحتري لاتصاله كما يقولون بعمود الشعر، فجاء على أثر ذلك مؤلفان جليلان هما: الصولي، والآمدي، وكان ضلع الصولي مع أبي تمام وضلع الآمدي على ما يظهر مع البحتري، فألف في ذلك الصولي أخبار «أبي تمام» وألف الأمدي كتابه «الموازنة».

وقد سارا في نقدهما على الموازنة بين الشاعرين في ذكر كل مزايا صاحبه، وعيوبه، وسلك الآمدي مسلكًا في الموازنة باختياره قصيدتين في موضوع واحد وروي واحد ثم النص على أيهما أجود وأيهما أرذل، وهي موازنة بدائية، والموازنة الصحيحة هي أن يعرف الناقد عناصر الأدب من عاطفة وخيال ومعنى وأسلوب، ثم يعرض عليها شعر كل منهما، فمن كان حظه منها أكثر كان أشعر، وإذا زاد أحدهما على صاحبه في عنصر منها، كأن يزيد أبو تمام في المعنى، ويزيد البحتري في الأسلوب، أمكنه أن يعرف هل زاد الآخر في العناصر الأخرى زيادة تفوقها أو لا، وهكذا ...

هذه هي الموازنة الصحيحة التي لم يصل إليها كل منهما، وإنما كانا إذا اتفقا في معنى واحد، أو مطلع واحد، نظر بذوقه إلى أيهما أشعر، والنظر الكلي الصحيح هو أن يضع كل شعر أبي تمام في كفة، وشعر البحتري كله في كفة، ثم ينظر أيهما أرجح ... ولكن الحق أن الآمدي هذا كان إذا عرض لنقد أبي تمام أو البحتري في عيب من عيوبهما، أو ميزة من ميزاتهما، كان عادلًا، وكان الصولي يتعصب لأبي تمام تعصبًا سافرًا، فيقول: إن خصوم أبي تمام أحد رجلين: رجل جاهل عجز عن فهمه فعابه، ورجل معاند ساقط يريد أن يتخذ من تجربته لأبي تمام سبيلًا إلى المجد، وإذا سمع أن أحدًا عاب على أبي تمام شيئًا رد عليه بأن هذا الخطأ وقع فيه الشعراء الأقدمون، وهذا ليس دفاعًا صحيحًا، فإن الخطأ لا يبرر الخطأ.

أما الآمدي فمفضل للبحتري متحجب، يفضله في خفاء، وقد قال في صدر كتابه: «إنه يبدأ الموازنة بين البحتري وأبي تمام بأن يورد حجج أنصار كل شاعر وأسباب تفضيلهم له، ثم يأخذ في دراسة سرقات أبي تمام وأخطائه وعيوبه البلاغية، وبفعل مثل ذلك مع البحتري، موردًا سرقاته وخصوصًا سرقاته من أبي تمام، ثم أخطاءه وعيوبه، وأخيرًا ينتهي إلى الموازنة التفصيلية فيما قاله كل منهما في كل معنى من معاني الشعر». وهي من غير شك دراسة عميقة، وقد طبق مبدأه في دقة تقريبًا، وكان من محاسنه أنه أرجع تفضيل بعض الناس لأبي تمام وبعضهم للبحتري إلى المزاج.

فمن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق، فالبحتري عنده أشعر، ومن كان يميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة، فأبو تمام عنده أشعر، وهكذا خرج من مأزق المفاضلة بينهما، وجعلها في عنق القارئ ومزاجه.

نعم: إن الآمدي لم يصرح بتفضيله البحتري على أبي تمام كما صرح الصولي بتفضيل أبي تمام على البحتري، ولكن ذا الحاسة الشمية يشم منه ميله إلى تمجيد البحتري وتفضيله على أبي تمام.

ومن محاسنه تعرضه لسرقات الشاعرين وموقفه منها، وعدله في رأيه، فمن رأيه أن سرقات المعاني ليست من كبير مساوئ الشعراء، وخاصة المتأخرين منهم، وأن هذا باب قل أن يسلم منه أحد، وليس يعاب على الشاعر أن يأخذ من هذا معنى، وهذا معنى، وإنما الذي يعاب عليه هو أن يعمد إلى شاعر مخصوص، فيسرق منه كثيرًا من معانيه، وعلى هذا المبدأ درس سرقات كل منهما دراسة دقيقة.

والقارئ لموازنة الآمدي يرى أن له نظرًا أدبيًا رقيقًا، وذوقًا أدبيًا رفيعًا، وقد خطا بالنقد الأدبي خطوة واسعة.

هذا إلى حسن تعبير، ومعرفة بالنفس البشرية، واطلاع واسع على كلام من سبقه، وذوق حساس يذوق به الجيد من الرديء، وعفة في النقد حتى لا يكاد يخرج أحدًا منهما، بل لو استطاع أن يمجدهما جميعًا لفعل، كما يظهر عليه أنه رجل متدين، يرى الحكم على أحدهما كحكم القاضي في نزاع على مسألة هامة، بقدر مسئولية الحكم، ويخشى الله ويرجوه.

وخبت نار الخصومة بين أبي تمام والبحتري، ثم ما لبثت أن اشتعلت بمجيء أبي الطيب المتنبي؛ فقد كان في شعره نوع من التجديد، وكان متكبرًا، وكان محسدًا، فاختلف الناس فيه فرقتين: فرقة تستسمجه وتحط من شأنه، ويغيظها

تقريب سيف الدولة له، وإغداقه عليه، كأبي فراس، وفرقة ترى أنه جدير بذلك، وفي شعره في المقام الأول. وما زالت هذه الخصومة تتناحر حتى ظهر عبد العزيز الجرجاني، وكان قاضيًا عادلًا. فألف كتابه المشهور: «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، ووقف في كتابه كما قلنا موقفًا عادلًا. فيقول ما له وما عليه.

وكان من مزايا كتاب الوساطة التفاته إلى تأثير البيئة في الأدب، وهي نظرية أوضحها وقال بها قبل «تين» بمئات الأعوام.

نعم: إن الآمدي في الموازنة قال بها والتفت إليها، ولكن الجرجاني أوضحها وأبانها، وكان يقيس شعر المتنبي بشعر غيره في الموضوع الواحد، ويفضل أحدهما وهو في ذلك ذو ذوق لطيف في التفضيل، إذا استحسن فإنما يختار الحسن، وسار في الحكم له وعليه سير القاضي في القضية، ومن أجل ذلك يستعمل في بيان مزايا المتنبي وعيوبه عبارات فقهية، ويتعرض في قوة ودقة، للسرقات الشعرية، كما تعرض لها الآمدي من قبل، فيرى أن هناك معاني عامة مطروحة أمام الشعراء، لا عار على شاعر إذا أخذها واستعملها، فمن السخف أن تتهم شاعرًا بسرقة شيء من المعاني العامة المشتركة، وذلك مثل وصف الغيث بالعموم ووصف البرق بخطف الأبصار، ونحو ذلك: متى ألبسها الشاعر لفظًا جديدًا.

وكذلك هناك ألفاظ ومصطلحات مشتركة عامة، يباح للشاعر أن يستعملها كقولهم: «طوى الموت ما بيني وبين فلان» ويختم الجرجاني دفاعه عن المتنبي بقوله: وقد أتينا على ما حضرنا عنه في هذا الكتاب، ونُبْنا عنك في جمعه واستحضار لفظه، وتصفح الدواوين، ولقاء العلماء فيه، وبيضنا أوراقًا لما لعله شذ عنا من غريبه، وما عسانا نظفر على مرور الأوقات به، وما نأبى أن يكون عندك أو عند أحد من أصحابك فيه زيادات لم نعثر بها، أو لطائف لم نفطن إليها. وإذا كنت على ثقة من علمك، وبصيرة بما عندك، وعرفت من طرق السرق، ووجوه النقل، فلا بأس أن تلحق به ما أصبته، وأن تضيف إليه ما وجدته، بعد أن تتجنب الحيف، وتتجنب الجور، وتعلم أن وراءك من النقاد من يعتبر عليك نقدك، ومن لا يستسلم للعصبية استسلامك، ويناقش رمي المتنبي بالتعقيد والغموض، فيرى أن أبا تمام قد غمض في شعره أكثر مما غمض المتنبي في شعره، ومع ذلك فلم يسقط شعره، وعد من فحول الشعراء وهكذا سار في الكتاب سيرًا معتدلًا.

وأتى بعد ذلك الثعالبي صاحب اليتيمة وهو وإن كان كتاب تراجم بعبارة مسجوعة ثقيلة: فإنه لا يخلو من نظرات نقدية لطيفة. فيقول مثلًا: «وأنا مورد في هذا الباب، أي باب المتنبي ذكر محاسنه ومقابحه وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه، وتفصيل الكلام في نقد شعره والتنبيه على عيوبه وعيونه، والإشارة إلى غُرره وغُرره إلخ.

ويلاحظ أحيانًا ملاحظات لطيفة، كتكرير المتنبي لبعض المعاني مما يدل على أنها ملأت نفسه، وعمقت في صدره، كقوله:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فقد كرره كثيرًا في شعره، وكملاحظته أن المتنبي يخاطب ممدوحه بمثل مخاطبة المحبوب، فيقول لسيف الدولة مثلًا:

ما لي أكتم حبًا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وقوله في عضد الدولة:

أروح وقد ختم على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا

•••

وجاء بعد ذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، وله نتف قليلة في بعض الأحيان، ينقد بها الشاعر، أو يبين مزاياه، تدل على نظم بصير، وذوق دقيق.

•••

ثم جاء بعد ذلك أبو هلال العسكري مؤلف كتاب «الصناعتين» وكان كتابه هذا مؤسسًا على كتاب قدامة الذي ذكرناه، وما اقتبسه من البلاغة اليونانية، وزاد عليه تطبيقات عربية كثيرة، صبغته صبغة جديدة، وخففت هذه الأمثلة ونحوها من جفاف كتاب قدامة، وانتفع برأي السابقين ونقدهم.

وإذ كان كتاب قدامة أقرب للبلاغة منه للنقد، فكذلك كان العسكري في سر الصناعتين. وقد تعرض في كتابه للسرقات إذ يظهر أنها كانت مشكلة العصر، فيكتب فيها الآمدي والجرجاني. وها هو أبو هلال العسكري يكتب فيها مما يدل على أهميتها، وله في هذه السرقات رأي لا بأس به. إذ يقول: «إن المعاني مشتركة بين العقلاء، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ووصفها، وتأليفها ونظمها، وقد يقع متأخر على معنى لمتقدم فيخرجه إخراجًا جديدًا. وروى في ذلك قصة أنه قيل للشعبي: إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك، فقال: إني أجده عاريًا فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفًا. فإذا قلنا إن العسكري حول النقد إلى بلاغة وكان هو نفسه نقطة التحول، وجرى الناس بعد على أثره لم نبعد عن الصواب، ولذلك نرى من بعده كعبد القاهر الجرجاني يبحثون في البلاغة أكثر مما يبحثون في النقد.

وقد ألف الجرجاني كتابيه اللطيفين «دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة» وهما كتابان لطيفان دقيقان يمتازان بحسن التعبير، واكتشاف أبواب البلاغة، وما له من فلسفة لغوية عميقة، وسلامة في الذوق، فقد استنكر إغراق المعاني والألفاظ بالمحسنات البديعية، وذكر أن المثل الأعلى ليس أصحاب السجع، بل المثل الأعلى ما كتبه الجاحظ في صدور كتبه، فلا إمعان في التجنيس ولا إمعان في السجع.

وكان من أنصار المعاني، فعنده أن الألفاظ خدم للمعاني، واستطاع أن يدرك أن هناك ألفاظًا تحسن في النثر ولا تحسن في الشعر كلفظ أيضًا.

ومن مميزاته أنه ربط النحو بالمعاني فنفث في النحو روحًا لم تكن معروفة من قبل، ولا جرى الناس عليه فيما بعد، وعنده أن لتركيب الكلام أو كما نسميه نحن اليوم «الأسلوب» شأنًا كبيرًا في تقريب المعنى أو إبعاده، وحسن الوقع أو استهجانه.

•••

وجرى على أثر عبد القاهر جماعة سلكوا مسلكه في البلاغة، وحرروا مطالبه، كالسكاكي، وزادوا في الأمثلة، وفرعوا التفريعات، ولكن مع الأسف أفقدوا البلاغة روحها، كما أتلفوا النقد، ومن الأسف أن البلاغة وقعت في أيدي الأعاجم ممن لم يثقفوا ثقافة عربية جيدة، فنكبوا البلاغة بتعبيراتهم اللابلاغية، وهم يتكلمون في البلاغة أمثال سعد الدين التفتازاني في شرح التخليص، وعبد الحكيم السيلكوتي في المطول، ونحو ذلك، حتى وصلنا في تلخيص المفتاح إلى ضرب من الكلام أبعد ما يكون عن البلاغة. وصارت هذه الكتب هي التي تدرس إلى اليوم، بشروحها وحواشيها، وجهل ما قبلها من كتب الجرجاني وما قبلها من كتب النقد.

هذا أحد التيارين، وهو التيار الذي نقل النقد إلى البلاغة.

وهناك تيار آخر، وهو يعد امتدادًا لحركة النقد.

من هؤلاء أبو العلاء المعري؛ فقد كان في رسالة الغفران ناقدًا، وإن كان نقده خياليًا، وله كذلك رسائل نقدية كرسالة نقد امرئ القيس، ونقده لأبي تمام في رسالته «ذكرى حبيب» والبحتري في رسالته «عبث الوليد» وللمتنبي في «معجز أحمد» ونحو ذلك، فهو فيها كلها ناقد فلسفي ديني أدبي.

وجرى هذا المجرى نفسه ابن شهيد الأندلسي، في رسالته «التوابع والزوابع» وفيها يُنطِق الجن بنقد الشعراء والأدباء، بملاقاة شيطان ابن شهيد بشياطين الشعراء والكتاب.

وربما عد من كتب النقد أيضًا في مثل هذا التيار كتاب العمدة لابن رشيق، وكتابه أيضًا «قراضة الذهب».

فكتاب العمدة عنوانه «العمدة في صناعة الشعر ونقده».

وقد تعرض فيه لعناصر الشعر وفضله ودواعيه، وإن لم يتكلم عن العواطف التي تبعث الشعر، وإن لم يسمها عواطف، وذكر المشاهير من الشعراء والمقلين منهم والمولدين، والأوزان والقوافي، وآداب الشاعر، وأراجيف الشعراء والرواة، وذكر كل نوع من الشعر كالنسب والهجاء والوصف، وذكر شروط جودته، إلخ.

وجاء بعده ابن سنان الخفاجي، فألف كتابه «أسرار الفصاحة» فتكلم عن السجع، ونفى أن السجع عيب كما يقول الرومان، وأن من لم يسجع من كتاب القرن الثاني والثالث كانوا يحرصون على ألوان من الفن في كتاباتهم، وذكر نماذج من النماذج الأدبية، ووازن بينها.

ومن أهم الكتب النقدية كتاب «المثل السائر» لابن الأثير وهو كتاب قيم مملوء بالالتفاتات الأدبية الرائعة التي تدل على ذوق بارع، لولا أن صاحبه كثير الفخر بنفسه، والاعتداد بها.

وقد يقع على آراء قيمة ينسبها إلى نفسه، وهو مسبوق إليها، وذكر القصص في القرآن وأبان بلاغتها، وكان خيرًا من ذلك أن يتعرض لغير بلاغة القرآن، حتى يكون حرًّا في النقد.

وهناك كتب ليست كلها نقدًا، ولكن نُتَف نقدية أدبية، ككتاب زهر الآداب، وكتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشهي وغير ذلك.

وجرى الأدباء على هذا المنحى من غير تجديد كبير، والذي يلاحظ أن مؤلفي الأدب في العصور المختلفة لم يبتكروا كثيرًا، وأصيبوا بخمول التقليد، شأن الأدباء في ذلك، وشأن غيرهم من العلماء والفقهاء، فمنذ قضي على المعتزلة قضي على الابتكار، لسيادة منهج المحدثين من الاعتماد على النقل أكثر من الاعتماد على العقل، مع أن علماء الشرق وأدباءه، لا يقلون ذكاء عن علماء الغرب وأدبائه، وكل ما في الأمر أن الغربيين رزقوا بأدباء وعلماء مبتكرين، فتحوا الطريق أمام غيرهم، فجاراهم من بعدهم، ولم نرزق نحن هذه الفئة، فإذا عددنا ابن خلدون مبتكرًا لعلم الاجتماع، فقلما نجد له زميلًا، وربما كان من أسباب ضغط الكنيسة على المسيحيين في العصور الوسطى، أكثر من ضغط علماء المسلمين، فهذا الضغط الشديد ولد الانفجار، وربما كانت بيئة الأوربيين لها دخل أيضًا في نشاطهم وجدهم في مكافحة الحياة، وعدم احتمالهم للظلم الكثير، والقسوة الزائدة، وقد علل المهندس ولكوكس الإنجليزي عدم الابتكار عند الشرقيين بأن لهم لغتين منفصلتين عن بعضهما تمام الانفصال، اللغة الفصحى في الكتب والصحف والمجلات، واللغة العامية في البيوت والشوارع، وقال: «إن استعمال اللغة في الحياة اليومية يكسبها حياة، ويجعل للكلمات والتراكيب هالة غير المعاني التي في الأعاجم، بخلاف ما إذا قصرت اللغة على الكتب والمجلات، فلما فقدت اللغة الفصحى حياتها

بعدم استخدامها في البيوت والشوارع خمد الفكر معها.» وهو تعليل يصح أن ينطبق على الحياة الأدبية وحدها دون الحياة العملية والفكرية.

على كل حال ظلت حياة النقد خامدة في العصور الأخيرة، حتى حدث الاحتكاك في العصور الحديثة بين الشرق والغرب فحيي النقد من جديد، وكان لنا نقدان: نقد مؤسس على ما لنا من تراث قديم، كالأغاني والعقد الفريد، وزهر الآداب، ونقد مؤسس على نقد الإفرنج. وكلا النقدين تقليد لا ابتكار. واختلاف النقد تابع لاختلاف منهج الأدب، فهناك أدب يحتذي القديم في أسلوبه وموضوعاته، وله مدرسة قائمة بذاتها تستنكر الأدب الغربي، ولا تتذوقه؛ وهناك أدب يستوحي الأدب الغربي ويقلده، ولا يؤمن بالأدب العربي وله مدرسته الأخرى. وقد يكون هناك قوم من أهل الأعراف أخذوا من الغرب معانيه وموضوعاته، ومن الشرق جزالة أسلوبه وجميل تعبيراته ... ولكل وجهة هو موليها.

فلما جاء العصر الحديث كان أول ما رأينا رسالة مخطوطة في دار الكتب المصرية لشابين عمدا إلى أدباء عصرهما، فسميا كل أديب باسم خاص يرمز إلى أسلوبه وخاصيته، فسميا أديبًا كان رفيع الرقبة بديك الجن، وأديبًا آخر كان يصفر بالصاد، فقالا عليه: إنه خير من نطق بالصاد، وسميا أديبًا كان طويل اللحية بابن مكانس، وسمى أحدهما صاحبه بالشاب الظريف، وهكذا، وهو نوع من النقد خفيف لطيف.

وجاء بعدهما الشيخ حسين المرصفي في كتابه «الوسيلة الأدبية» وكان يتعصب للبارودي، فكان البارودي قد عارض بعض الشعراء كالشريف الرضي وأبي نواس، فوازن بين قصائدهم التي هي من باب واحد، ووزن واحد، وأشار إلى محاسن كل، فكان هذا أيضًا نوعًا من النقد. وجاء بعد ذلك المازني والعقاد وألَّفا كتابهما الديوان في نقد شعر شوقي فوضعا شوقيًّا في الميزان ونقداه من ناحية أنه يخاف من النقد ويرشو الصحف لمدحه وهاجماه مهاجمة عنيفة، فنقداه مثلًا في قصيدته في رثاء محمد بك فريد من مثل قوله:

كل حي على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حاد

ذهب الأولون قرنا فقرنا لم يدُم حاضرٌولم يبق باد

هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقي مآثر وأياد

فيقولان: إن هذه من الأقوال العديدة المألوفة، حتى لنسمعها من المكدين والشحاذين كقولهم: دنيا غرور، والذي عند الله باق، وما أكثر ما داست الدنيا على الجبابرة ووضعتهم تحت التراب.

ويقول:

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا وتُنحَّى لمنجل حصاد

تلك حمراء في السماء وهذا أعوج النصل من مراس الجلاد

فينقدانه من حيث إنه حدد زمن الوفاة بطلوع الشمس صبحًا وفي يوم أن يكون القمر منجلًا حصادًا فلا موت ظهرًا ولا عصرًا ... إلخ.

وفي قوله:

وعلى نائم وسهران منه قدر لا ينام بالمرصاد

وقد سرق هذا المعنى من قصيدة أبي العلاء التي عارضها بهذه القصيدة وهي:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

واستمرا على هذا المنوال في نقد شوقي والمنفلوطي وقد نظرا في نقدهما بعين الغرب ومقاييس نقده، وإن كان يؤخذ عليهما شيء فشدة النقد وقسوته والمبالغة فيه.

وجاء بعدهما الأستاذ مصطفى السحرتي فألف كتابا سماه «الشعر المعاصر».

على ضوء النقد الحديث) فتتبع بعض الشعراء بالنقد على النمط الأوربي الحديث وأوضح المذاهب المختلفة في النقد من مذهب فني ومذهب واقعي وتكلم في مقاييس النقد الأدبي والانفعالات الشعرية والفكر في الشعر والموسيقى الشعرية والشعر الرمزي. ثم نقد الشعر في مصر واستعراض من نقدوا كالعقاد والمازني في (الديوان) وكتاب (على السفود) للرافعي، وحديث (الأربعاء) للدكتور طه، وكتاب (في الميزان) للدكتور مندور، وهكذا ... فكان حلقة جديدة في النقد المعاصر.

والاتجاه السائد للآن في الأدب والنقد هو الاتجاه الغربي فيهما. ومحاولة تطبيق النظريات الغربية ومقاييس النقد الغربي على الأدب العربي، مع الفوارق الكبيرة بين الأدبين لاختلاف البيئتين ونتاجهما.

والذي نلاحظه أن الأدب في السنين الأخيرة ارتقى أكثر مما ارتقى النقد، فلا يزال النقد يتعثر من حكم بالهوى، ومدح من غير حساب، وذم من غير حساب، ونقد من غير دراسة عميقة للنتاج الذي ينقده، وعدم رجوع إلى مقاييس ثابتة، وعدم حرية في النقد، دعا إليه عدم سماحة المنقودين وضيق صدورهم بالنقد؛ وعدم احتمالهم أي تجريح ولو كان بسيطًا. فنحن أحوج ما نكون الآن إلى نقد يؤسس على قواعد ثابتة، وحكم عادل من الناقد، وسماحة صدر من المنقود، والله بالمستقبل عليم.

كالذي روي عن ابن الأعرابي، فإنه يروى عنه أن كان يحس البيت أو الأبيات فإذا قيل له إنه لمحدث رجع عن رأيه.

2- طه حسين : [13]

طه حسين: أديبٌ ومفكِّرٌ مِصريٌّ، يُعَدُّ عَلَمًا من أعلام التنوير والحركة الأدبية الحديثة، امتلَكَ بَصِيرةً نافذة وإنْ حُرِم البصر، وقاد مشروعًا فكريًّا شاملًا، استحقَّ به لقبَ «عميد الأدب العربي»، وتحمَّلَ في سبيله أشكالًا من النقد والمُصادَرة.

وُلِد «طه حسين علي سلامة» في نوفمبر ١٨٨٩م بقرية «الكيلو» بمحافظة المنيا. فَقَدَ بصرَه في الرابعة من عمره إثرَ إصابته بالرمد، لكنَّ ذلك لم يَثْنِ والِدَه عن إلحاقه بكُتَّاب القرية؛ حيث فاجأَ الصغيرُ شيخَه «محمد جاد الرب» بذاكرةٍ حافظة وذكاءٍ متوقِّد، مكَّنَاه من تعلُّم اللغة والحساب والقرآن الكريم في فترة وجيزة. وتابَعَ مسيرته الدراسية بخطوات واسعة؛ حيث التحَقَ بالتعليم الأزهري، ثم كان أول المنتسِبين إلى الجامعة المصرية عامَ ١٩٠٨م، وحصل على درجة الدكتوراه عامَ ١٩١٤م، لتبدأ أولى معاركه مع الفكر التقليدي؛ حيث أثارَتْ أطروحتُه «ذكرى أبي العلاء» مَوجةً عالية من الانتقاد. ثم أوفدَتْه الجامعة المصرية إلى فرنسا، وهناك أعَدَّ أُطروحةَ الدكتوراه الثانية: «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون»، واجتاز دبلوم الدراسات العليا في القانون الرُّوماني. وكان لزواجه بالسيدة الفرنسية «سوزان

[13] حنا الفاخوري . الجامع في تاريخ الأدب العربي : الأدب الحديث ، دار الجيل ،بيروت ، ط2 ، 1995 ص 335 وما بعدها .

بريسو» عظيم الأثر في مسيرته العلمية والأدبية؛ حيث قامَتْ له بدور القارئ، كما كانت الرفيقة المخلِصة التي دعمَتْه وشجَّعَتْه على العطاء والمُثابَرة، وقد رُزِقَا اثنين من الأبناء: «أمينة» و«مؤنس».

وبعد عودته من فرنسا، خاض غِمار الحياة العملية والعامة بقوة واقتدار؛ حيث عمل أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية، ثم أستاذًا لتاريخ الأدب العربي بكلية الآداب، ثم عميدًا للكلية. وفي ١٩٤٢م عُيِّن مستشارًا لوزير المعارف، ثم مديرًا لجامعة الإسكندرية. وفي ١٩٥٠م أصبح وزيرًا للمعارف، وقاد الدعوة لمجانية التعليم وإلزاميته، وكان له الفضل في تأسيس عددٍ من الجامعات المصرية. وفي ١٩٥٩م عاد إلى الجامعة بصفة «أستاذ غير متفرِّغ»، وتسلَّمَ رئاسة تحرير جريدة «الجمهورية.«

أثرى المكتبةَ العربية بالعديد من المؤلَّفات والترجمات، وكان يكرِّس أعمالَه للتحرُّر والانفتاح الثقافي، مع الاعتزاز بالموروثات الحضارية القيِّمة؛ عربيةً ومصريةً. وبطبيعة الحال، اصطدمت تجديديةُ أطروحاته وحداثيتُها ببعضِ الأفكار السائدة، فحصدت كبرى مُؤلَّفاته النصيبَ الأكبر من الهجوم الذي وصل إلى حدِّ رفع الدعاوى القضائية ضده. وعلى الرغم من ذلك، يبقى في الذاكرة: «في الأدب الجاهلي»، و«مستقبل الثقافة في مصر»، والعديد من عيون الكتب والروايات، فضلًا عن رائعته «الأيام» التي روى فيها سيرته الذاتية.

رحل طه حسين عن دُنيانا في أكتوبر ١٩٧٣م عن عمرٍ ناهَزَ ٨٤ عامًا، قضاها معلِّمًا ومؤلِّفًا وصانعًا من صنَّاع النور.

ألّف طه حسين نحو 60 كتابا بينها 6 روايات، ومن أبرز كتبه "الأيام" و"دعاء الكروان" و"المعذبون في الأرض" و"في الشعر الجاهلي". وكتب نحو 1300 مقالة، وتُرجم أكثر من 12 عملا له إلى لغات عدة على رأسها الفرنسية.

رُشّح طه حسين لجائزة نوبل في الأدب 14 مرة أولها عام 1949، لكنه لم يفزبها طوال حياته، وقدم له الرئيس الراحل جمال عبد الناصر جائزة الدولة العليا، التي تُقدم عادة إلى رؤساء الدول، وفي عام 1973 حصل طه حسين على جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان..

مؤلفاته وتوجهاته الفكرية :

في البداية تأثر طه حسين في الأساس بالثقافة اليونانية وأصدر كتابًا بعنوان "الصفحات المختارة" من الشعر اليوناني الدرامي عام 1920، ومجلدا آخر بعنوان "النظام الأثيني" في عام 1921، و"قادة الفكر" في عام 1925. في كتابه "طه حسين.. من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام" الصادر عام 2014، تناول المفكر الإسلامي الراحل الدكتور محمد عمارة مراحل التطور الفكري لطه حسين حيث قسمها إلى 4 مراحل:

المرحلة الأولى هي بدايات طه حسين الفكرية (1908-1914) حيث بدا مترددا في الهوية الحضارية لمصر، بين مذهب "حزب الأمة" ومفكره أحمد لطفي السيد الذي يدعو إلى الوطنية المصرية الرافضة للعروبة القومية والانتماء الحضاري الإسلامي، وبين اتجاه "الحزب الوطني" وزعيمه مصطفى كامل ذي الهوية الإسلامية والمدافع عن الجامعة الإسلامية والخلافة.

و المرحلة الثانية (1914-1932) تمثلت في الانبهار الشديد بالغرب، ومشاركته في تأليف كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ علي عبد الرازق، ثم كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي اتسم بتأثر مستفز بالأفكار والقيم الغربية عندما طبق غلو الشك العبثي على المقدسات الإسلامية، ثم كتابه "في الأدب الجاهلي."

والمرحلة الثالثة من تطور فكر طه حسين (1932-1952)، خلت فيها كتابات طه حسين من أي إساءة إلى الإسلام ومقدساته ورموزه، وتوجه إلى الكتابة في الإسلاميات، والدفاع عن الإسلام ضد التنصير، وتوالت تأكيداته بأن الإسلام شامل للدين والدولة وأنه منهاج شامل للحياة، كما تصاعدت نبرة نقده للسياسة الاستعمارية الغربية، مع صعود حركات التحرر الوطني. ورغم ذلك، ظل التأثر بالطابع الحضاري الغربي ملحوظا في عطائه الفكري، بخاصة في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" 1938، الذي مثل ذروة التأثر بالغرب في مشروعه الفكري .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة (1952-1960) فتجسد ت أهم ملامحها في تأكيد طه حسين لمسألة "حاكمية القرآن الكريم"، وانحيازه إلى العروبة التي صاغها الإسلام بعيدا عن الفرعونية التي تبنّاها من قبل.

في عام 1955 ذهب طه حسين إلى أراضي الحجاز لأداء فريضة الحج التي هزته من الأعماق، ومثلت قمة الإياب الروحي إلى أحضان الإسلام، وميلادا جديدا له بعد مخاض عسير، فألف آخر ما كتب "مرآة الإسلام" عام 1959، و"الشيخان" عام 1960، اللذان يعدان من أهم مراجعاته الفكرية.

"ملخص عن كتابه : " في الشعر الجاهلي" :

أثار كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926- عاصفة كبيرة في العالم العربي، حيث أعرب عن شكوكه في أصالة كثير من الشعر العربي القديم، قائلا إنه "تم تزويره في العصور القديمة بسبب الكبرياء القبلي والتنافس بين القبائل."

يقول طه حسين في كتابه: "للتوراة أن تُحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي" أغضب علماء الأزهر وأحيل الكاتب على التحقيق أمام النيابة العامة بتهمة "إهانة الإسلام"، وفقد منصبه في جامعة القاهرة، وحُظر كتابه، لكن القضاء حفظ القضية.

لم تكد تمضي 3 سنوات على صدور كتاب "في الشعر الجاهلي"، ثم صدور النسخة المعدلة له التي نشرت في العام التالي بعنوان "في الأدب الجاهلي" حتى انهالت مجموعة من المؤلفات تنتقد الكتاب وتهاجم صاحبه. انبرى وقتئذ عدد من الأدباء والمفكرين للرد على طه حسين، أبرزهم مصطفى صادق الرافعي في كتابه "تحت راية القرآن"، والشيخ محمد الخضر حسين في كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي"، ومحمد فريد وجدي في كتابه "نقد كتاب الشعر الجاهلي"، وعلي الجندي في كتابه "تاريخ الأدب الجـــاهلي"، وناصر الدين الأسد في كتابه "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية " .

يقول طه حسين : "لست أزعم أنى من العلماء، ولست أتمدح بأنى أحب أن أتعرض للأذى، وربما كان الحق أنى أحب الحياة الهادئة المطمئنة، وأريد أن أتذوق لذات العيش فى دعة ورضا، ولكنى مع ذلك أحب أن أفكر، وأحب أن أبحث، وأحب أن أعلن إلى الناس ما أنتهى إليه بعد البحث والتفكير، ولا أكره أن آخذ نصيبي من رضا الناس عنى أو سخطهم علىّ، حين أعلن لهم ما يحبون أو ما يكرهون".

تسعة وتسعون عاما مرت على النسخة الأولى من كتاب «فى الشعر الجاهلي» لـ«طه حسين»، وهو الكتاب الذى أثرى المكتبة العربية بالبحث والنقد والتجريح والتطاول على صاحبه، وتكفيره، والثناء والتكريم والشكر، والكثير جدا من المتناقضات، ومضى كل هذا، وبقى الكتاب .

«المنهج الديكارتى» هو ما استخدمه الكاتب فى الوصول إلى نتائج هذا البحث، وهو منهج «الشك سبيلا إلى اليقين» وهو المنهج الذى وضعه وأرساه الفيلسوف الفرنسى «ديكارت» فى القرن السابع عشر الميلادى، ويعتمد على تجرد الباحث من معلوماته قبل بدء عمله، وأن يبدأ بحثه خالي الذهن من الأقوال السابقة فى موضوع بحثه.

ما يخلص إليه الكتاب كما يقول صاحبه: «الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، وأكاد لا أشك فى أن ما بقي من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا، ولا يدل على شىء، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى».

جل ما وصل إليه «حسين» هو إنكار ما نسب إلى الحياة الجاهلية من شعر، وأثبت أن الشعر الجاهلى تم وضعه بعد الإسلام وتمت نسبته إلى الجاهليين لأسباب سياسية ودينية وعصبية قبلية، ولإثبات القبائل القصص والأساطير خاصتهم، واستدل بذلك من تاريخ اللغة العربية، فلغة عرب الجنوب الحميرية تختلف عن لغة عرب الشمال الفصحى فى ألفاظها وقواعد نحوها وصرفها، فكيف ينسب شعر لشعراء من الجنوب بلغة أهل الشمال؟! أما ما أثار حفيظة الكُتاب ضده بعد أن ألقى «حسين» ما ألقى، أنه استدل على ذلك بالقرآن، يقول: «مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى».

«إن الدين متين وليس الذى شك فيه زعيما ولا إماما حتى نخشى من شكه على العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟». كان هذا من أقسى الردود التى نالها طه حسين على كتابه، وبالأخص أن قائلها هو «سعد زغلول» وقالها على مسمع المتظاهرين الذين خرجوا ضد طه حسين وضد كتابه.
أقام النائب عبدالحميد البنان دعوى قضائية ضد طه حسين وحققت النيابة معه فى 19 أكتوبر عام 1926، ولم يكتف «البنان» بذلك بل قدم إلى مجلس النواب فى جلسته المنعقدة بتاريخ 13 ديسمبر من نفس العام باقتراح ينص على مصادرة كتاب «فى الشعر الجاهلى» وتكليف النيابة العامة برفع دعوى ضد «حسين» لطعنه فى الدين، وإلغاء وظيفته فى الجامعة، ليس هذا فقط، فالمطابع فى هذا الوقت ضجت بصنع الكتب التى تهاجم «حسين» وتنتقده، وتجرح فى شخصه، وما كان من «حسين» إلا أن التزم الصمت، وسافر إلى «أوروبا» للابتعاد عن هذه الأجواء الشاحنة، وهى النصيحة التى أسداها إليه «عبدالخالق ثروت باشا».خطآن وقع فيهما طه حسين فى هذا الكتاب، واعترف بهما، وحذفهما فى الطبعات الأخرى من كتابه، الأول عبارة عن فقرة جاء فيها «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى»، أما الثانى فهو مسألة «هل يجوز استخدام القرآن الكريم مرجعا علميا؟» وجوهر فكرة «حسين» هنا هو لا يجوز لنا استخدام القرآن مرجعا من المراجع العلمية، سواء فى التاريخ أو الفلسفة أو علم النفس، فالعلوم متغيرة، وتخضع لتغييرات، بينما القرآن قائم على أسس ثابتة.

حفظت القضية بعد أن حظى «حسين» برئيس نيابة يدعى «محمد نور» أقام التحقيق معه، وهو رجل واسع الثقافة والعلم، قرأ الكتاب جيداً، وفهم ما فيه، فدرأ عنه تهمة «الطعن فى القرآن»، وذكر فى نهاية تحقيقه «أن ما كتبه المؤلف هو بحث علمي لا تعارض بينه وبين الدين، ولا اعتراض لنا عليه».

لكن «حسين» الذى رموه بالإلحاد درأ عن القرآن شرا أكبر، فهناك بعض من الشعر المنسوب للجاهليين يتشابه نظمه مع نظم القرآن الكريم، مثل شعر أمية بن أبى الصلت الذى لم يذكره «حسين» ونذكره نحن مثل «وفى دينكم ومن رب مريم آية/ منبئة بالعبد عيسى ابن مريم/ أنابت لوجه الله ثم تبتلت/ فسبح عنها لومة المتلوم»، هذه القصيدة إلى

آخرها، استغلها المستشرقون مثل «كليمان هوار» والذى قارن بينها وبين القرآن وخلص «هوار» إلى أن النبى استعان بهذا الشعر فى نظم القرآن. يقول «حسين» مدافعا عن الإسلام ونبيه «ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذى يضاف إلى أمية بن أبى الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبى أو جاءوا قبله، إنما انتحل انتحالا».

«امرؤ القيس»، و«عمرو بن كلثوم»، و«طرفة بن العبد»، و«المهلهل بن ربيعة»، و«عمرو بن قميئة»، وغيرهم من الشعراء اتخذهم طه حسين فى نهاية كتابه أمثالا ومقارنا بينهم وبين الشعراء الذين وجدوا بعد الإسلام، وبيّن لغاتهم، وفنّد أشعارهم ليصل إلى تأكيد نتيجة بحثه فى أن هذا الشعر الجاهلى منتحل بعد الإسلام. «أما نحن فمطمئنون إلى مذهبنا، مقتنعون بأن الشعر الجاهلى أو كثرة هذا الشعر الجاهلى لا تمثل شيئا، ولا تدل على شىء إلا ما قدمنا من العبث والكذب والانتحال، وأن الوجه- إذا لم يكن بد من الاستدلال بنص على نص- إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر، لا بهذا الشعر على عربية القرآن».

كتابه : " في الشعر الجاهلي " وأثره في تطور البحث الأدبي بعده .

في عام 1926 ظهر أكثر مؤلفات التأريخ الأدبي ضجة في الوسطين الثقافي والديني، ذلك هو كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين الذي أصدر بعد مرور عام ، طبعته الثانية بعنوان مغاير ومضمون فيه بعض الاختلاف. أما العنوان فصار «في الأدب الجاهلي»، وأما اختلاف المضمون، فقد أوجزه الدكتور طه في مقدمته قائلًا: «هذا كتاب السَّنَة الماضية، حُذِفَ منه فصل، وأُثْبِتَ مكانه فصل، وأضيفت إليه فصول، وغُيِّرَ عُنوانُه بعض التغيير» .

وإذا كانت غاية هذا البحث الأولى هي بيان أثر هذا الكتاب على مسيرة البحث الأدبي خلال العصر الحديث؛ فإنَّه يتوجب علينا - بادي الرأي - تأكيد ريادة هذا الكتاب في أساسين لم نعهدهما في كُتب التأريخ للأدب الجاهلي قبل ذلك الكتاب، وهما: تقليص مجال البحث في تاريخ الأدب من خلال تعريف الأدب بأنَّه «مأثور الكلام نظمًا ونثرًا» . وهو ما لم نعهده قبل ذلك الكتاب، وقصر البحث على الأدب الجاهلي دون غيره، حيث أثبت الدكتور طه من خلال هذا الكتاب أن بالأدب الجاهلي مادة قادرة على أن تقيم دراسة تاريخية مكتفية بذاتها، فكان كتابه هو أول كتاب في العصر الحديث ينص عنوانه على مصطلح «الشعر الجاهلي»، ومن بعده «الأدب الجاهلي» بدلًا من «الأدب العربي».

الشك في صحة نسبة الشعر الجاهلي، وأثره في مسيرة التأليف:

أبرز القضايا التي أثارها هذا الكتاب وأشهرها هي قضية الشك في صحة نسبة الشعر الجاهلي، حيث وصل الدكتور طه من خلال تطبيقه منهج الشك الديكارتي إلى نتيجة عامة فيما يتعلق بالأدب الجاهلي كله - شعره ونثره - مفادها: «أنَّ الكثرة المطلقة ممَّا نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنَّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام» أمَّا الوثائق التاريخية التي تتناول سير الشعراء الجاهليين، فقد حكم عليها بالحكم نفسه الذي حكمه على أدبه من قبل، فقال: «ولن نستطيع أن نعترف بأنَّ ما يُروى من سيرة هؤلاء الشعراء الجاهليين وما يضاف إليهم من الشعر تاريخ يمكن الاطمئنان إليه أو الثقة به، وإنَّما كثرة هذا كله قصص وأساطير لا تفيد يقينًا، ولا ترجيحًا، وإنَّما تبعث في النفوس ظنونًا وأوهامًا»

وليس من هم هذا البحث أن يتعرض لآراء الدكتور طه حسين التي توصل من خلالها إلى هذه النتيجة وتفنيدها، ولا للضجة التي أحدثتها هذه القضية بذلك الكتاب، فقد كان من ثمراتها ظهور عدد وافر من المؤلفات التي تكفلت بعملية التفنيد هذه .وإنَّما يهمنا في المقام الأول تتبع أثر هذه القضية في مؤلفات تاريخ الأدب الجاهلي من بعده، حيث صارت قضية الشك في الأدب الجاهلي فصلًا أساسيًّا في معظم المؤلفات التي أرخت تأريخًا عامًّا للأدب الجاهلي من بعده. وكان من أثرها أن اتجهت الدراسات من بعده اتجاهين، طرديًّا وعكسيًّا.

أمَّا الاتجاه الطردي: فهو الذي تأثر برأي الدكتور طه، فأخذ يفحص الأدب الجاهلي معملًا عقله لتمحيص صحيحه من زائفه، موظفًا معايير محددة لتحقيق ذلك التمحيص، مع الحرص على عدم الوصول إلى النتيجة نفسها التي توصل إليها الدكتور طه نفيًا ورفضًا.

وقد كان من أبرز رواد هذا الاتجاه أحد أنبغ تلاميذ الدكتور طه، وهو الدكتور شوقي ضيف في كتابه «العصر الجاهلي» ، حيث ذهب مذهب أستاذه في عدم التسليم بصحة ما أجمع الرواة الثقات على صحته، فقال: «إنَّما نشكُّ حقًّا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أمَّا ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء، والمفضل الضبي، والأصمعي، وأبي زيد، فَحَرِيٌّ أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان، وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن» .

وبإمكاننا من خلال استقراء كتاب الدكتور ضيف أن نستنبط معايير واضحة تشكل ما نستطيع أن نطلق عليه «نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي»،وهي أنَّ (القصيدة الجاهلية الصحيحة هي كل قصيدة كانت سالمة من اتهام الرواة الثقات، موافقة للحقيقة التاريخية ومعتاد شعر الشاعر والعصر، خالية من أي صبغة إسلامية أو أي قصص أسطوري).

وتبعًا لتأثر الدكتور ضيف بأستاذه، واتخاذه هذه المعايير الصارمة، فقد وصل إلى نتيجة مقاربة للنتيجة التي وصل إليها الأستاذ، حيث لم يقبل من الشعر الجاهلي إلا أقله، ورفض أكثره واعيًا بذلك، فقال معلقًا على رفضه تشكيك بعض الباحثين المحدثين - وفي مقدمتهم أستاذه - في الشعر الجاهلي عامة: «وليس معنى ذلك أنَّنا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يروى عن الجاهليين، بل نحن نضيقها تضييقًا شديدًا» .

وإذا أردنا مصداقا لذلك القول، نظرنا إلى تعامل الدكتور ضيف مع ديوان امرئ القيس، فقد احتوت الطبعة المحققة التي ارتضاها الدكتور ضيف على مائة قصيدة ومقطعة منسوبة إلى الشاعر ، لكن الدكتور ضيف لم يوثق توثيقًا قاطعًا من هذه المائة سوى ثلاث قصائد ومقطعة واحدة، وقرر ذلك في ختام عرضه ديوان الشاعر قائلًا: «وكأنَّما الثابت الصحيح له إنَّما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه وتاليتها، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون» .

وأمَّا الاتجاه العكسي، فلم يتمثل فقط في أولئك الذين ذهبوا يتمسكون بأن قبولَ الرواة الثقات القدماء للقصيدة الجاهلية قبولٌ لا يحتمل الشكَّ، وإنَّما تجاوز الأمر ذلك إلى اعتماد منهج جديد في التحقيق التاريخي للوثائق الأدبية التاريخية، حيث قام الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه «امرؤ القيس... حياته وشعره» ، بالاتجاه نحو توثيق معظم الروايات التي أوردها الرواة في تأريخهم سيرة الشاعر الجاهلي؛ وذلك في محاولة للدفاع عن التراث الأدبي العربي في مواجهة ادعاء الدكتور طه حول صحة الشعر الجاهلي. فقد صدَّر الدكتور مكي مقدمة الطبعة الأولى بقوله قاصدًا طه حسين: «في العقد الثالث من هذا القرن تعرض الشعر الجاهلي في مصر لمن يجحده كُلًّا، دون أن يقدم لإنكاره أدلة معقولة ينهض عليها» ، ثم عرض الدكتور مكي لتاريخ دراسة قضية الانتحال بين أيدي المستشرقين، وانتقالها إلى الدكتور طه حسين - متهمًا إيَّاه بأنَّه كان طالب شهرة من خلال إثارته تلك القضية - ورد الباحثين العرب عليه، ثم قال موضحًا موضع كتابه هذا من قضية الشك في الشعر الجاهلي لدى الدكتور طه: «لقد بدا لي أن الطريقة المثلى ليست في مناقشة فروض واحتمالات ودعاوى مَلَّ الناس نقاشها، وإنما في العودة إلى الأصول نفسها، وبناء تاريخ متكامل على إيجازه يسبق دراسة امرئ القيس، أقدم شاعر وأول مجحود، فنضع الشاعر في مكانه من القبيلة، ونعود بالقبيلة إلى موضعها من الشعب، ويأخذ الشعب مكانه في أمة سكنت قديمًا ذلك المستطيل من الأرض تطوقه مياه المحيط والبحار من جهات ثلاث، وعُرِف عبر التاريخ باسم شبه الجزيرة العربية» .

فالدكتور الطاهر مكي يميل إلى توثيق الروايات وقبولها أكثر من تجريحها، حتى لو كانت هذه الروايات مختلفة حول حدث واحد؛ وذلك تبعًا لقاعدة ارتضاها، وهي «أنَّ الاختلاف بين الناقلين أدعى إلى اليقين. فحيث يقتضي الواقع أن تختلف الرواية، وأن يتعذر الإجماع بين الرواة، تكون هذه أقرب إلى العقل والصدق من أقوال يتفرق رواتها في الأمصار، ويبعد بهم العهد، ويكون اعتمادهم على الذاكرة» .

ويصل الأمر بالدكتور الطاهر مكي في تعديله الروايات التاريخية وتوثيقها حدًّا بعيدًا، حيث يذهب إلى توثيق الرواية بما جاء عنها من أشعار منحولة، فحينما أثبت قصة حفظ السموأل لما استأمنه عليه امرؤ القيس قبل رحيله إلى أرض الروم؛ فإنَّه اتهم ما يُنْسَب إلى الأعشى من شعر يَعْرض هذه القصة بأنه منحول مُتَّهما أحد أبناء السموأل بنحله، لكن هذا الاتهام لم يدفع الدكتور مكي إلى اتهام القصة أيضا، بل إنَّه أثبتها من خلال اتهام شاهدها الشعري، فقال: «ولا يتأتى أن ينحل شعر في مجال التفاخر والتباهي، يعتمد على قصة موضوعة، ليس لها سند من جوهر أحداثها» .

ولم يكن توجه بعض الباحثين إلى محاولة توثيق أخبار شعراء الجاهلية هو الوحيد الذي نشأ نشوءًا عكسيًّا لقضية الشك في الشعر الجاهلي التي أثارها الدكتور طه حسين، وإنَّما نشأ توجه بحثي آخر نتج عن خروج الدكتور طه بنتيجة هي أن: «مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن لا في الأدب الجاهلي» ، حيث قام من بعده جل الباحثين في مجال التأريخ العام للأدب الجاهلي باعتماد الشعر الجاهلي مصدرًا أساسيًّا للإحاطة بحياة الجاهليين، كما قام بعضهم الآخر بتخصيص دراسات تقدم حياة الجاهليين من خلال أشعارهم.

ولعل أبرز هذه الدراسات هي دراسة الدكتور أحمد الحوفي المسماة «الحياة العربية من الشعر الجاهلي» ، حيث اعتمد منهج هذا الكتاب بصورة رئيسية - كما يشير عنوانه الرئيسي وعناوين فصوله - على وثيقة الشعر الجاهلي. وذلك راجع في المقام الأول إلى عقيدة الدكتور الحوفي في كون «الشعر أصدق تصويرًا للحياة؛ لأنَّه يتناول ما يهمله التاريخ» . لكن هذا مشروط - من وجهة نظر المؤلف - بوفاء الشاعر الجاهلي بتغطية الموضوع محل الدراسة، فإذا قصر الشعر عن بلوغ ذاك الهدف؛ فإنَّه لا بُدَّ من استدعاء بقية الوثائق التاريخية بوصفها عوامل مساعدة، حيث قال الدكتور الحوفي في مقدمة كتابه مبينًا مقاصده من الكتاب: «وقصدت إلى شيء آخر: أن أجلو الحياة العربية في شتى صورها جلاء لا يعتمد على التاريخ وحده، وإنَّما يستند أولًا إلى الشعر الذي صور هذه الحياة، فأحسن تصويرها» . وهي عبارة تدل على أنَّ ثمة وثائق أخرى شاركت الشعر في أداء هذه المهمة، لكن الشعر مقدم عليها حال وفائه بالغرض المنشود.

ومن الواضح أنَّ الدافع الأول للدكتور الحوفي لسلوك هذا المنهج عبر الشعر الجاهلي هو ما سبق أن قرره الدكتور طه حسين من كون الشعر الجاهلي لا يمثل حياة الجاهليين تمثيلًا صادقًا. ودليل ذلك تصدر الدكتور الحوفي للرد على ما سبق أن قرره الدكتور طه حسين - تصريحًا أو تلميحًا - أثناء تناول عدة ظواهر .

فإذا تجاوزنا نطاق الدراسات التي تأثرت تأثرا طرديا أو عكسيا بقضية الانتحال التي أثارها الدكتور طه، ألفينا أن هذه القضية قد فتحت أعين الباحثين لبابين بحثيين جديدين، أحدهما باب دراسة العلاقة بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها قبل الإسلام، وآخرهما باب دراسة مصادر الأدب الجاهلي.

وقد جاء الباب الأول نتاج إنكار الدكتور طه شعر شعراء اليمن جميعا بدعوى أن لغتهم لم تكن العربية، ثم أنكر معظم ما تبقى من الشعر بحجة عدم احتوائه شيئا من اختلاف لهجات القبائل، حيث إنَّ اللغة الموحدة - في رأيه - لم تُعْرَفْ إلا بعد ظهور الإسلام بفضل القرآن الكريم.

ولعل أبرز كتب هذا الباب هو كتاب «الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة» ، للدكتور هاشم الطعان . وقد أشار المؤلف نفسه إلى علاقة كتابه بكتاب الدكتور طه، فقال: «إن فضل الدكتور طه حسين على منهج البحث عندنا ممَّا لا يمكن أن ينسى، بيد أنَّ نتائجه يمكن أن تتغير لأنَّ نصوصًا كثيرة نشرت بعد تأليف (في الشعر الجاهلي). وإني لا أطمح إلى نقض الكتاب الذي كان من بشائر نهضتنا في مطالع هذا القرن، ولكنني أفعل ما كان الدكتور طه حسين نفسه يفعله لو أتيح له الاطلاع على ما ينقض هذا الجانب أو ذاك من تأليفه. فأنا على ثقة من أنه كان سيبادر إلى التصحيح لنفسه» .

وقد تمثل منهج الدكتور الطعان في خطوتين أساسيتين، هما: التأصيل التاريخي للغة العربية القائم على دراسة اللغة العربية في مرحلتها المشتبكة باللغات السامية ومرحلتها التالية التي تمثل تشكل اللغة العربية منفصلة قبل الجاهلية الثانية التي وصلنا أدبها، وتوصيف (اللغة العربية الفصحى) الهادف إلى «القول بأنَّ (الفصحى) سليلة (القديمة) أي: إنَّها تطور لها صحبه حدثان هامان في حياة العربية، أولهما خروج اللغة من مكمنها القديم، وثانيهما تواصلها باللهجات واللغات المجاورة» .

وقد خرج الكتاب يقرر أنَّ «الفصحى هي لغة كل العرب مع احتفاظ كل مجموعة منهم بخصائص لهجية لا تخرجهم عن الفصاحة كثيرًا» . ويَفْتَرِض تطور لغة القصيدة من اللهجة القبلية إلى الفصحى العامة حيث تخرج القصيدة خارج نطاق القبيلة، وتتعرض لغتها في هذه الحالة لأمر من اثنين، إما أن تتحول إلى لهجة قبيلة أخرى، وذلك إذا خرجت القصيدة إلى قبيلة أخرى عن طريق راو من هذه القبيلة تبنى هو عملية التحويل، وإما أن تتحول إلى اللغة الفصحى، وذلك إذا خرج بها الشاعر نفسه أو أحد الرواة إلى محافل العرب العامة، حيث يحول الشاعر أو الراوي ما تسمح به الأوزان والقوافي من سمات لهجية إلى اللغة الفصحى.

أمَّا الباب البحثي الثاني الخاص بدراسة مصادر الأدب الجاهلي، فقد جاء نتاجًا مباشرًا لتشكيك الدكتور طه حسين في صحة الشعر الجاهلي، فجاءت هذه الدراسات على أساس تتبع التطور الزمني لمصادر الشعر الجاهلي وتوثيق كل مرحلة مرت بها هذه المصادر لبيان مصداقية هذه المصادر ومدى الثقة فيما حملته من أشعار.

ولعل أبرز دراسات هذا الباب دراسة الدكتور ناصر الدين الأسد «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» وقد عنى المؤلف بكلمة (مصادر) الواردة بعنوان الكتاب ، وعرض كل الوسائل والمراحل التي انتقل عبرها الشعر الجاهلي منذ أن أُبْدِع حتى استقر في مدونات وصل عدد منها إلينا في العصر الحديث، حيث استقرأت هذه الدراسة - خلال أبوابها الخمسة - المراحل والطرق التي انتهت باستقرار الشعر الجاهلي مجموعا أو مفرقا في عدد من الدواوين والمؤلفات، وما أحاط بهذه المراحل من شبهات، ثم أتبع ذلك بدراسة عدد من مدونات الشعر الجاهلي التي صارت بين أيدينا الآن.

ففيما يتعلق بدراسة المراحل والطرق، هدف المؤلف إلتعضيد الوسائل التي انتقل عبرها الشعر الجاهلي منذ أن أُبْدِع حتى استقر في المدونات، وذلك من خلال إثبات انتقاله عبر وسيلتين لا وسيلة واحدة، هما وسيلتا الرواية الشفوية والكتابة، ثم إثبات ترابط مراحل انتقال الشعر الجاهلي عبر هاتين الوسيلتين دون أي انقطاع يفصل بين مرحلة وأخرى، إضافة إلى توثيق كبار رواة الشعر الجاهلي الذين أخذ عنهم معظم جامعي الدواوين والمختارات. وهو ما يعني أن محور المنهج الذي قامت عليه دراسة هذه المراحل هو دفع الشبهات والأغاليط التي قررها بعض قدامى العلماء والرواة، وسلم بها معظم الباحثين المحدثين، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين.

وأما ما يتعلق بدراسة عدد من مدونات الشعر الجاهلي المتمثلة في الدواوين والمجموعات الشعرية والمؤلفات الأدبية واللغوية والتاريخية التي تحمل في طياتها مادة شعرية، فقد قام محور هذا القسم على إثبات صحة هذه المدونات من

جهتين، أولاهما السند، والأخرى المتن، فوثق المؤلف من خلال ذلك معظم الدواوين والمجموعات الشعرية ، في حين رأى أن مؤلفي كتب النحو واللغة والسيرة والتاريخ والأدب العام وقعوا في أمر من اثنين أثبتوا من خلالهما أن الشعر لم يكن همهم الأول، وهما:عدم الاعتناء بنسبة الشعر إلى شاعر بعينه، وعدم الاهتمام بالتثبت من صحة الشعر نفسه.

2 - قضايا أخرى، وأثرها في مسيرة التأليف:

إذا ولينا قضية الشك في الشعر الجاهلي أدبارنا، وولينا وجوهنا شطر القضايا الأخرى: فإنَّنا نجد أن الدكتور طه حسين قد فتح مجالًا رحبًا لعدد من القضايا التي أثرت تأثيرا كبيرا في حركة التأليف الأدبي.

ويأتي على رأس هذه القضايا نفي الدكتور طه ما أُثِرَعن القدماء بشأن النابغة، وإثبات أنه ما كان يعتذر لملوك الحيرة وغسان تذللا، وإنما كان يعتذر تحقيقا لمصلحة القبيلة. وقد وضح هذا في تقريره أن «مكانة النابغة كانت عظيمة عند ملوك غسان وعند قومه من أهل البادية. ولعل عظم مكانته في البادية هو الذي رغب فيه ملوك الحيرة وغسان وأغراهم باصطناعه وتملقه واتخاذه موضوعا للنزاع بينهم. ونحن نرى في شعر النابغة أنه كان وسيلة قومه: يشفع لهم عند أولئك وهؤلاء، وأنه كان يقوم من هذه القبائل البدوية النجدية لا مقام السفير الشفيع ليس غير، بل مقام الزعيم المرشد».

وقد كان من أثر رأيه ذلك أن تلقف بعض الباحثين هذه الفكرة، وطبقوها خلال دراستهم سيرة النابغة وأشعاره من خلال دراستين بعنوان «النابغة الذبياني»، أولاهما للأستاذ عمر الدسوقي، وأخراهما للدكتور محمد زكي العشماوي. حيث تناولت الدراستان قضية الالتزام القبلي عند هذا الشاعر خاصة.

أما دراسة (النابغة الذبياني) ، للأستاذ عمر الدسوقي، فتعد أولى تراجم شعراء الجاهلية في القرن العشرين - حسب ما طالعناه - التي يظهر فيها لون من التجديد، وهو التجديد المتمثل في تتبع مجالات مناصرة الشاعر لقبيلته، وبيان مدى التزامه بهذا الأمر. والظاهر أن ما دفع الأستاذ الدسوقي إلى معالجة هذه القضية هو عين ما لاحظه الدكتور طه من قبل، حيث لاحظ - دون إشارة إلى أسبقية الدكتور طه - أن النابغة «أدى رسالته خير الأداء، وعلى أحسن ما ينتظر من شاعر قبيلة في محنة» ، فأخذ يبين سياسة النابغة تجاه تحقيق مصلحة القبيلة وأحلافها، وذلك من خلال تتبعه عددا من أنشطة الشاعر معتمدا على استقراء أشعاره.

وأما دراسة (النابغة الذبياني) ، للدكتور محمد زكي العشماوي، فقد صَرَّح مؤلفها بتأثره المباشر بفكرة الدكتور طه حسين التي أشرنا إليها [40]. كما أنَّ هذه الدراسة حققت خطوة متقدمة عن الدراسة السابقة للأستاذ الدسوقي؛ وذلك لأنَّ الدراسة السابقة أشارت إلى هذه القضية باعتبارها أحد ملامح شخصية النابغة، أما هذا الكتاب فقد اختص هذه القضية بالدراسة دون غيرها، فجعل من دراستها هدف البحث الأساسي .

وقد اعتمد الدكتور العشماوي خلال دراسة هذه القضية شعر النابغة وثيقة أولى ووحيدة، فقال: «ولما كان فن النابغة هو الأداة التي تأدى بها معنى القبلية إلى نفوسنا، فقد وجب علينا أن نترسم قبلية النابغة من خلال شعره، وأن يكون لنا في تحليل بعض قصائده ما يساعد على كشف هذه القبلية، ومن أجل هذا تعرضنا لتحليل بعض قصائده» . وعلى هذا الأساس عرض الدكتور العشماوي قصائد النابغة في ثلاثة فصول، أثبت فيها جميعا أن قصائد الشاعر الموجهة إلى الغساسنة والنعمان بن المنذر ملك الحيرة إضافة إلى قصائده المتناولة شئون قبيلته وصلاتها بالقبائل الأخرى كان هدفها الأول والأوحد تحقيق مصلحة القبيلة والمحافظة على حياة السلم بينها وبين غيرها.

أما القضية الثانية التي أثارها الدكتور طه، وقامت بعدها دراسات وأبحاث، فهي تتبع بعض ظواهر التطور اللغوي والفني بين أجيال الشعر الجاهلي، وذلك مثل ما لاحظه من تطور لغتي النابغة وزهير عن لغة أوس ، وتطور لغة الحطيئة عنهم جميعا ، إضافة إلى ملاحظة التطور الفني بين شعري أوس وزهير .

وقد صارت هذه الفكرة فيما بعد محلا للبحث من خلال محاولات تقسيم العصر الجاهلي إلى عدة مراحل زمنية، لكل مرحلة منها خصائصها اللغوية والفنية. وعلى رأس هذه الدراسات كتاب "الشعر الجاهلي.. مراحله واتجاهاته الفنية - دراسة نصية" للدكتور سيد حنفي حسنين.فكما هو ظاهر من عنوان الكتاب، فإنه يقوم على أساس تقسيم العصر الجاهلي تقسيما زمنيا، حيث يرى المؤلف أن العصر الجاهلي انقسم إلى ثلاث مراحل متتالية، لكل مرحلة طابع أساسي تنبثق عنه عدة ظواهر فنية تميز شعر هذه المرحلة، فقرر أن المرحلة الأولى هي مرحلة الطبع والتلقائية، وأن المرحلة الثانية هي مرحلة الصنعة والاحتراف، وأن المرحلة الثالثة هي مرحلة الجمود. وقد توصل إلى هذا التقسيم من خلال تطبيق ثلاثة مناهج، هي: المنهج الاجتماعي، والمنهج النفسي، والمنهج النصي.

وقد تلت هذه الدراسةَ دراسةٌ أكثر إحكاما، هي دراسة الدكتور يوسف خليف «الشعر الجاهلي: نشأته وتطوره»، التي نشرها بمجلة «عالم الفكر» الكويتية عام (1974 م) ، ثم أعاد نشرها بكتابه «دراسات في الشعر الجاهلي» عام (1981 م)، حيث دعا خلال هذه الدراسة إلى تقسيم الشعر الجاهلي إلى ثلاث مراحل، هي:

المرحلة الأولى: وتبدأ من حرب البسوس، وتنتهي عند بداية حرب داحس والغبراء. وتشمل هذه المرحلة جيلين أولهما من شهد حرب البسوس، وعلى رأسهم المهلهل وجليلة والحارث بن عباد والفند الزماني، أما آخرهما فهو الجيل التالي الذي يمثل قمته امرؤ القيس وطرفة وعبيد وعلقمة والمرقشان الأكبر والأصغر. ويطلق الدكتور خليف على هذه المرحلة عصر البسوس أو مرحلة الطبع؛ وذلك تبعا لما رآه من أن شاعر هذه المرحلة بصورة عامة «يمارس عمله الفني في غير تكلف أو تصنع، وفي غير عناء أو جهد. فهو يعبر عن نفسه تعبيرًا مباشرًا ينقل فيه إحساسه كما يحس به، ويصور مشاعره كما يشعر بها، ويرسل العبارات كما تخطر على ذهنه، دون أن يبذل في سبيل ذلك جهدًا أو مشقة» .

وتبعًا لطبيعة هذه المرحلة، فقد لاحظ الدكتور خليف أن أبرز ملامحها الفنية تتمثل في بقاء رواسب من «مرحلة الأولية المبكرة التي مربها الشعر الجاهلي قبل أن يتم له نضجه وتكتمل صورته التي نعرفها له في أواخر القرن الخامس الميلادي» التشبيه وسيلة فنية دون غيره من أساليب البيان التي تحتاج إلى شيء من الصنعة ، وعدم الاعتناء بتركيب الجملة أو إحكام صياغة العبارة .

المرحلة الثانية: وتبدأ من حرب داحس والغبراء وتنتهي بيوم ذي قار. ويطلق الدكتور خليف على هذه المرحلة عصر داحس والغبراء أو مرحلة الصنعة؛ وذلك لأنه لاحظ من خلال تحليل بعض نماذج أشعار هذه المرحلة أن «أهم ما يلفت النظر في العمل الفني عند شعراء هذه المدرسة أنه كان عملا تظهر عليه آثار العناية والجهد والتعب ونضج الجبين التي يبذلها الشاعر في سبيله. فالشاعر من هذه المدرسة ينظم قصيدته ثم يعيد النظر فيها لهذبها ويجودها ويحذف ما لا يرضى عنه ذوقه، وما لا يستقيم مع مذهبه الفني. وهو - من أجل ذلك - لا يتسرع ولا يتعجل، وإنما يلتزم الأناة الشديدة التي تحقق له كل مقومات مذهبه الفني وعناصره» .

وتتجلى آثار هذه الصنعة عند الدكتور خليف في ثلاث ظواهر، هي:غلبة الاستعارة على بقية الصور البيانية . والحرص في رسم الصور الجزئية والكلية «على التفاصيل، والعناية بالجزئيات، والإلحاح على أن تكتمل لصورهم خطوطها المعبرة وألوانها المميزة» . والجنوح إلى التشبيه التمثيلي حال استخدامهم التشبيه «حتى لتبدو قطع كثيرة من شعرهم لوحات فنية متكاملة الألوان والخطوط» .

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة تمتد من يوم ذي قار إلى نهاية العصر الجاهلي، دون إنكار تغلغلها في العصر الإسلامي. ويطلق الدكتور خليف على هذه المرحلة عصر ذي قار أو مرحلة التقليد، حيث ظهرت فيها مدرسة شعرية «استطاعت أن تتمثل تمثلا واضحا تقاليد المدرستين السابقتين، وأن تستوعب التراث الخصب الذي خلفه شعراؤهما، وأن تستغل الرصيد الثري الذي احتفظت به خزائن الرواة والشعراء - رصيد المدرستين - استغلالا حققت به موازنة بارعة بينهما» .

وربما كان أوسع الأبواب التي فتحها الدكتور طه حسين في كتابه «في الأدب الجاهلي» ما يتعلق بفكرة تقسيم شعراء العصر الجاهلي إلى مدارس شعرية وفق علاقة التأثير والتأثر التي قامت بين مجموعات من الشعراء بسبب رواية المتأخر منهم عن المتقدم مثل مدرسة أوس بن حجر الذي أخذ عنه زهيرُبن أبي سلمى، ثم أخذ عن زهير ابنُه كعب والحطيئة، أو لاجتماعهم بمكان واحد أو قبيلة واحدة مثل شعراء المدينة أو شعراء مكة (قريش)، حيث رأى أنَّ كل مدرسة من هذه المدارس يتفق شعراؤها في عدد من الخصائص الفنية.

وقد كان الدكتور طه سابقا إلى فكرة تقسيم الشعر الجاهلي إلى مدارس، حتى إنَّه ظن سخرية القارئ من هذه الفكرة، ومن ثم فإنه ذهب يؤكدها ويدعو القارئ إلى أن يتتبعها .

وقد كانت أولى الدراسات التي تقوم على فكرة التقسيم المدرسي للشعر الجاهلي هي دراسة شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، للدكتور/ أحمد كمال زكي ، حيث تعد هذه الدراسة أولى دراسات العصر الحديث في الوطن العربي التي تتكفل بمهمة دراسة شعر مجموعة شعراء بوصفهم مدرسة ذات سمات وخصائص مشتركة، حيث قامت بدراسة شعر قبيلة هذيل في عصري الجاهلية والإسلام.

وقد حدد المؤلف هدفه من تلك الدراسة خلال سطورها الأولى، فقال: «نعم، من الممكن أن نعثر على سمات تجمع بين شعراء القبيلة الواحدة، بل إن وجودهم في بيئة خاصة، وخضوعهم لجو واحد، وسيرهم على تقاليد بعينها، كل ذلك لا بد يوجد فيهم نوعا من الاستقلال الفكري والعاطفي، ولا بد أن يكون لهذا أثره في إنتاجهم الأدبي! ومن هنا نشعر بما لديوان الهذليين من تفرد، ونرى فيه السمات التي تجمع شعراءه في مذهب خاص. فدراسته إذن على أنَّه أثر لمدرسة شعرية أمر ضروري ليكون فهمنا للأدب العربي أعمق وأقوى» .

ولعل في إثبات الدكتور أحمد كمال زكي قيام الدراسة على أساس البحث عن السمات الفنية المشتركة بين شعراء قبيلة هذيل، والاتكاء في ذلك على أثر البيئة والمجتمع، واستخدام مصطلح «مدرسة شعرية»، فضلًا عن تتلمذه على يد الدكتور طه حسين نفسه ما يؤكد تأثره في أصل فكرة هذه الدراسة بكتاب أستاذه.

وبالفعل استطاع الدكتور أحمد كمال زكي أن يخرج لنا من خلال هذه الدراسة بسمات شعر مدرسة قبيلة هذيل، حيث قسم هذه السمات ثلاث فئات: سمات شعراء هذيل الوادعين ، وسمات شعراء هذيل الذؤبان (الصعاليك) ، والسمات المشتركة بين شعراء القبيلة عامة .

أما كتاب الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة للدكتور عمر شرف الدين ، فيعد من أبرز وأول الدراسات التي قامت على أساس تقسيم الشعر الجاهلي تقسيما مكانيا . فخلال هذا الكتاب عمل المؤلف على إثبات خصائص الشعر في ظلال إمارتي المناذرة والغساسنة، كل على حدة. فلدراسة الشعر في ظلال المناذرة الباب الأول. ولدراسة الشعر في ظلال الغساسنة الباب الثاني: حيث انتقى القصائد الموجهة من الشعراء إلى أمراء الإمارتين على وجه الخصوص فلم تخرج الأشعار محل الدراسة عن قصائد أحد عشر شاعرا في ظلال المناذرة، وأربعة شعراء في ظلال الغساسنة، علما بأن هناك شاعرين مشتركين كانت لهما أشعار في ظلال كلتا الإمارتين، وهما المرقش الأكبر والنابغة.

وقد استطاع المؤلف خلال هذه الدراسة بلوغ مأربه؛ حيث خرج البحث بنتائج محددة دقيقة تمثلت في: إثبات خاصية (الشخصية المشتركة) في مدائح الشعراء لأمراء الحيرة ووضوح (ظاهرة التمرد) عند الشعراء الخارجين على الأمير الحيري، وظهور بعض القوالب التعبيرية الجديدة عند شعراء المناذرة مثل صيغة (أبيت اللعن)، والفداء بالأهل والقوم، والدعاء بالخلود، وطلب تبليغ الرسالة، وجمع شعراء الغساسنة بين فخرهم بقبيلتهم ومدح الأمير الغساني مدحًا عربيًّا، واكتفاؤهم بالمقدمة الطللية دون سواها من بقية المقدمات التقليدية، وبلوغهم في مدحهم الأمير الغساني حد الغلو والمستحيل.

ولعل عرض هذه الإشارات وما مثلته من أهمية في إثراء حركة التأليف الأدبي يثبت قيمة هذا الكتاب في حركة التأريخ للأدب الجاهلي وعدم دقة بعض الباحثين في حكمهم عليه بكونه لا يقدم شيئا مهمًّا باستثناء الشك.

خلاصة :

تبين لنا من خلال هذا البحث أنَّ أثر كتاب «في الأدب الجاهلي» للدكتور طه حسين الصادر في مشارف الربع الثاني من القرن العشرين لم يقتصر أثره في حركة التأليف على ما صدر من أبحاث ومؤلفات تفند آراءه فيما يتعلق بتشكيكه في الشعر الجاهلي. وإنما تجاوز ذلك ليكون ذا أثر في الأبحاث التي عالجت قضية صحة نسبة الشعر الجاهلي لعصره وشعرائه، وقضية صحة الوثائق التاريخية التي تناولت حياة هؤلاء الشعراء وحوت بعضا من أشعارهم، إضافة إلى فتح باب جديد لتصنيف مصادر هذا الشعر على أساس تقويم مدى صحة نسبة ما أوردته من أشعار، ومعالجة إحدى القضايا الخطيرة التي اعتمد عليها الدكتور طه في تشكيكه، وهي قضية العلاقة بين الفصحى واللهجات، وعلاقة الشعر بكل منهما.

كما ألفينا - على صعيد آخر - أن ثمة قضايا أخرى أثارها الدكتور طه في كتابه، وكان لها بالغ الأثر على حركة التأليف الأدبي، مثل ما أثاره حول طبيعة شخصية النابغة الذبياني، وهو ما انعكس على فهمنا لديوانه الشعري، وملاحظته التطور اللغوي والفني عبر العصر الجاهلي، إضافة لدعوته لتقسيم شعراء العصر الجاهلي إلى مدارس وفق بيئاتهم أو مدنهم أو قبائلهم.

وقد عكس ذلك كله قيمة الكتاب في مسيرة التأليف الأدبي في العصر الحديث، وأبان عن عدد وافر من مؤلفات التأريخ للأدب الجاهلي التي أثرت المكتبة العربية في العصر الحديث؛ بفضل تأثرها بذلك الكتاب الرائد.

3 – جرجي زيدان .[14]

جُرجي زيدان: مفكّرٌ لبناني، يُعَدُّ رائدًا من روَّادِ تجديدِ عِلمِ التاريخِ واللِّسانيَّات، وأحدَ روَّادِ الروايةِ التاريخيةِ العربية، وعَلَمًا من أعلامِ النهضةِ الصحفيةِ والأدبيةِ والعلميةِ الحديثةِ في العالَمِ العربي، وهو من أخصبِ مؤلِّفي العصرِ الحديثِ إنتاجًا.

وُلِدَ في بيروتَ عامَ ١٨٦١ م لأسرةٍ مسيحيةٍ فقيرة، وبالرغمِ من شغفِه بالمعرفةِ والقراءة، فإنه لم يُكمِلْ تعليمَه بسببِ الظروفِ المعيشيةِ الصعبة، إلا أنه أتقنَ اللغتَينِ الفرنسيةَ والإنجليزية، وقد عاوَدَ الدراسةَ بعدَ ذلك، وانضمَّ إلى كليةِ الطب، لكنَّه عدَلَ عن إكمالِ دراستِه فيها، وانتقلَ إلى كليةِ الصيدلة، وما لبِثَ أن عدَلَ عن الدراسةِ فيها هي الأخرى، ولكنْ بعدَ أن نالَ شهادةَ نجاحٍ في كلٍّ مِنَ اللغةِ اللاتينيةِ والطبيعياتِ والحيوانِ والنباتِ والكيمياءِ والتحليل.

[14] حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب الحديث ، دار الجيل ،بيروت ، ط2 ، 1995 ، ص 167 .

سافرَ إلى القاهرة، وعمِلَ محرّرًا بجريدةِ «الزمان» اليوميّة، ثُم انتقلَ بعدَها للعملِ مترجمًا في مكتبِ المُخابراتِ البريطانيةِ بالقاهرةِ عامَ ١٨٨٤م، ورافَقَ الحملةَ الإنجليزيةَ المتوجّهةَ إلى السودانِ لفكِّ الحصارِ الذي أقامَته جيوشُ المَهدي على القائدِ الإنجليزيّ «غوردون .«عادَ بعدَها إلى وطنِه لبنان، ثم سافرَ إلى لندن، واجتمعَ بكثيرٍ من المُستشرقينَ الذين كانَ لهم أثرٌ كبيرٌ في تكوينِه الفِكري، ثم عادَ إلى القاهرةِ ليُصدِرَ مجلةَ «الهلال» التي كانَ يقومُ على تحريرِها بنفسِه، وقد أصبحَتْ من أوسعِ المَجلاتِ انتشارًا، وأكثرِها شُهرةً في مِصرَوالعالَمِ العربي.

بالإضافةِ إلى غزارةِ إنتاجِه كانَ متنوّعًا في مَوْضوعاتِه: حيثُ ألّفَ في العديدِ من الحُقولِ المَعْرفية: كالتاريخِ والجُغرافيا والأدبِ واللغةِ والرّوايات. وعلى الرغمِ من أن كتاباتِ «زيدان» في التاريخِ والحضارةِ جاءَت لتَتجاوزَ الطرحَ التقليديَّ السائدَ في المنطقةِ العربيةِ والإسلاميةِ آنَذاك، والذي كانَ قائمًا على اجترارِ مَناهجِ القُدامى ورِواياتِهم في التاريخِ دونَ تجديدٍ وإعمالٍ للعقلِ والنَّقد؛ فإنَّ طَرْحَه لم يتجاوزْ فكرةَ التمركُزِ حولَ الغربِ الحداثيّ (الإمبرياليّ آنَذاك)؛ حيث قرأَ التاريخَ العربيَّ والإسلاميَّ من منظورٍ استعماريّ)كولونيالي) فتأثَّرَتْ كتاباتُه بمَناهجِ المُستشرقين، بما تَحملُه من نزعةٍ عنصريةٍ في رؤيتِها للشرق، تلك النزعةِ التي أوضَحَها بعدَ ذلك جليًّا المُفكّرُ الأمريكيُّ الفَلسطينيُّ المُولَّدُ «إدوارد سعيد» في كِتابِه «الاستشراق.«

رحَلَ عن عالَمِنا عامَ ١٩١٤م، ورثَاه حينَذاك كثيرٌ مِنَ الشُّعراءِ أمثال: أحمد شوقي، وخليل مطران، وحافِظ إبراهيم.

مولده ونشأته :

ولد جرجي زيدان في بيروت في 14 ديسمبر 1861لأسرة مسيحية فقيرة من قرية عين عنب في جبل لبنان ويعتقد أن أصلها يعود إلى حوران في سوريا، وكان أبوه حبيب زيدان رجلا أُمّيا يملك مطعماً في ساحة البرج في بيروت يتردّد عليه رجال الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية.أرسله أبوه لمدرسة متواضعة لتعلّم القراءة والكتابة والحساب ليستطيع مساعدته في إدارة المطعم وضبط الحسابات، ثم التحق بمدرسة الشوام فتعلم اللغة الفرنسية، ثم التحق بمدرسة مسائية لتعلم اللغة الإنجليزية بعدها عمل في مطعم والده إلا أن والدته مريم مطرلم تكن راضية عن ذلك وطلبت من أبيه أن يعلّمه صنعة أخرى، فاتّجه لتعلم صناعة الأحذية وهو في سن الثانية عشرة ولمدة عامين لكنه تركها لعدم رغبته في ذلك العمل. بدأ يميل إلى المعرفة والاطّلاع وشغف بالأدب واحتك بالمتخرجين من الكلية الأمريكية ورجال الصحافة وأهل الفكر والأدب مثل يعقوب صروف وفارس نمر وإبراهيم اليازجي وسليم الستاني وغيرهم، وكانوا يدعونه لحضور احتفالات الكلية. التحق بالكلية السورية البروتستانتية) الجامعة الأمريكية (حيث نجح في امتحان القبول لتعلم الطب ولكن درس لمدة عام حيث ترك دراسة الطب واتجه لدراسة الصيدلة إلا أنه قرّر أن يرحل لمصر لدراسة الطب فاقترض مبلغ ستة جنيهات من جارله في بيروت .

هجرته إلى القاهرة:

هاجر إلى مصر والتحق بكلية الطب إلا أن ظروفه المادية وطول الدراسة جعلته يبحث عن عمل. فعمل في تحرير جريدة الزمان التي كان يملكها رجل أرمني الأصل وكانت هذه الجريدة هي الوحيدة في القاهرة بعد أن أوقف الاستعمار الإنجليزي صحافة ذلك العهد. ثم عمل مترجما في مكتب المخابرات البريطانية بالقاهرة ورافق الحملة الإنجليزية التي توجّهت للسودان لإنقاذ القائد الإنجليزي «غوردن» من حصار جيش المهدي، ودامت رحلته في السودان عشرة أشهر عاد بعدها لبيروت عام 1885وانضم للمجمع العلمي الشرقي الذي أُنشئ عام 1882وتعلّم اللغة العبرية واللغة السريانية وهو ما مكّنه من تأليف أول كتاب في فلسفة اللغة العربية عام 1886ثم أصدر منه طبعة جديدة منقحة في عام 1904بعنوان تاريخ اللغة العربية. ثم زار إنجلترا وعاد إلى مصر منقطعاً إلى التأليف والصحافة

استقر في القاهرة وعمل في التأليف والترجمة. وأدار مجلة المقتطف واستقال منها بعد أن عمل بها 18 شهرا واشتغل بتدريس اللغة العربية بالمدرسة العبيدية الكبرى لمدة عامين ثم تركها واشترك مع نجيب متري في إنشاء مطبعة إلا أن الشراكة بينهما انفضّت بعد عام واحتفظ جورجي زيدان بالمطبعة وأسماها مطبعة الهلال بينما نجيب متري أنشأ مطبعة مستقلة أسماها مطبعة المعارف .

مجلة الهلال :

أصدر جرجي زيدان مجلة الهلال في عام 1892وكان يقوم بتحريرها بنفسه ثم ساعده إبنه إميل. وقد صدر العدد الأول من مجلة الهلال عام 1892ثم أصبحت بعد خمس سنوات من أوسع المجلات انتشارا وكان يكتب بها عمالقة الفكر والأدب في مصر والعالم العربي. ورأس تحريرها كبار الأدباء والكتاب مثل أحمد زكي وحسين مؤنس وعلي الراعي والشاعر صالح جودت وغيرهم .

وفاته :

توفي جرجي زيدان فجأة وهو بين كتبه وأوراقه في 27شعبان 1332 هـ 21 / يوليو .1914 وقد رثاه كبار الشعراء من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران .

مؤلفاته

في التاريخ

- العرب قبل الإسلام –الجزء الأول، طُبع في مصر سنة 1908.
- تاريخ التمدّن الإسلامي- خمسة أجزاء –طبع في مصر 1902-1906.
- تاريخ مصر الحديث –جزآن- طُبع في مصر 1889.
- تاريخ الماسونية العام. مطبعة الهلال.
- تراجم مشاهير الشرق.

في اللغة وآدابها :

- الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية –بيروت 1889 .
- تاريخ آداب اللغة العربية –أربعة أجزاء- مصر 1911.

- اللغة العربية كائن حي -بيروت 1988 -طبعة ثانية

في أدب الرحلة:

- رحلة إلى أوروبا 1912
- الرحلات الثلاث الآستانة - أوروبا - فلسطين

في العلوم الطبيعية

- علم الفراسة الحديث - عام 1901

جامعة باجي مختار - عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات

- فتاة غسان
- أرمانوسة المصرية :قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص
- عذراء قريش :مقتل عثمان وواقعتي الجمل وصفين .نقلها إلى الفارسية خسروي الكرمانشاهي.
- 17رمضان: أحداث الفتنة الكبرى ومقتل الإمام علي بن أبي طالب
- غادة كربلاء :مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب
- الحجاج بن يوسف :الأحوال السياسية في العصر الأموي
- فتح الأندلس :قصة فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد
- شارل وعبد الرحمن :الفتوح الإسلامية في أوروبا
- أبو مسلم الخراساني :سقوط الخلافة الأموية
- العباسة أخت الرشيد :أحوال البلاط العباسي في عهد هارون الرشيد
- الأمين والمأمون :العصر الذهبي للدولة العباسية
- عروس فرغانة :الدولة في عهد المعتصم بالله وعاصمة الخلافة الجديدة سامراء
- أحمد بن طولون :مصر في القرن الثالث للهجرة
- عبد الرحمن الناصر :العصر الذهبي في الأندلس
- فتاة القيروان
- صلاح الدين الأيوبي :الحروب الصليبية
- شجرة الدر:
- الانقلاب العثماني :الأحوال السياسية في عهد عبد الحميد الثاني
- أسير المتمهدي :وتحكي قصة الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابي ثم ثورة المهدي في السودان؛ وذلك من خلال أبطال القصة (شفيق) و (فدوى).(
- المملوك الشارد
- استبداد المماليك
- بيت القصيد
- جهاد المحبين

ترجمت رواياته إلى الفارسية والتركية والأذربيجانية ومع ذلك لم تسلم هذه الروايات من النقد في الشكل والمضمون. ومن ذلك أيضا أن جرجي زيدان لم يلجأ إلى الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي وإبراز أمجاده ولكن اتجه إلى الفترات التي تمثّل صراعاً على السلطة والنفوذ. وكان متأثراً بنظرة الغربيين للعالم الإسلامي .

المحاضرة رقم 12- مصنفات محمد بن أبي شنب في اللغة والأدب والنقد : [15]

يزخر تاريخ الجزائر بعدة شخصيات ممن عرفوا بتمسكهم بالوطنية واللغة العربية، وتحديهم للمستعمر الفرنسي للوصول إلى أرقى المراتب العلمية ومن بين هذه الشخصيات المرموقة "محمد بن أبي شنب" الذي يعد عمود اللغة العربية في الجزائر، بذل جهدا في نشر العلم وتبديد ظلام الجهل والظلالة، ويعتبر أول طالب تحصل على شهادة الدكتوراه في الجزائر.

محمد بن العربي بن محمد بن أبي شنب ابن مدينة المدية وبالتحديد من ضواحي تاكبو أو عين الذهب ولد في يوم 26 أكتوبر 1869، نشأ في أسرة تعود جذورها الى بلدة بورسة التركية بعد انتقال أبيه من تركيا في أوائل القرن 18 م، وقد عنيت هذه الأسرة بتربية ابنها وتعليمه فحفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، واستطاع بفضل مواهبه وتفانيه من أجل العلم أن ينال منه حظا وافرا مكنه من إحراز عده شهادات علمية.

التحق "محمد بن أبي شنب" بالمدارس المدنية التي أنشأتها فرنسا، فتعلم الفرنسية وقرأ آدابها وبعد أن أنهى تعليمه الثانوي، أصبح مدرسا في عدة مدارس ففي سنة 1898م عينته الأكاديمية أستاذا بالمدرسة الكتابية في مدينة قسنطينة خلفا عن شيخها الأستاذ "عبد القادر المجاري"، واستمر هناك إلى غاية1901م حيث عين مدرسا بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة في مقام الشيخ "عبد الرزاق الأشرف" حيث درس بها اللغة والنحو والصرف والمنطق والعروض والبيان وغيرها،

تزوج في سن 34 سنة ورزق بخمسة ذكور وأربع إناث من بينهم الدكتور "سعد الدين ابن شنب" الذي أكمل مسيرة والده في العلم، ارتقى محمد بن أبي شنب سنة 1908 إلى رتبة أستاذ محاضر بالجامعة الجزائر ية . فذاع صيته في الآفاق وشهدت بفضله الأعلام وتقاطرت عليه المكتبات وكبار العلماء والرؤساء ومشاهير الكتاب والأدباء وهم في كتاباتهم ما بين شاكر ومادح ومعجب ومسترشد . واستعان به الكثير من عشاق العلم والتأليف، وكان بارعا في الرسم والتصوير وعلى الخصوص في رسم الآلات والأدوات الصناعية،

أخذ محمد بن أبي شنب نصيبه من الشهرة في الشرق والغرب وعرف أهل العلم قدره ليصبح من أهم الشخصيات العلمية الجزائرية التي لها علاقة وطيدة بالاستشراق والتي بدأت بعد دخوله الجامعة سنة 1894 مدرسا للغة العربية، حيث دخل الأستاذ ميدان الاستشراق من بابه الواسع، وانتخب سنة 1920م بالمجمع العلمي العربي بدمشق عضوا وكتب في المجلة العلمية بحوثه اللغوية والتاريخية والأدبية، وفي العام نفسه تقدم لنيل شهادة الدكتوراه بتأليف كتابين الأول تمثل في دراسة لغوية عن الشاعر العباسي أبي دلامة ، أما الثاني فهو دراسة بحث فيها عن الألفاظ التركية والفارسية المستعملة في لغة أهل الجزائر. فنال درجة الدكتوراه في الآداب بدرجة ممتاز . وكان ملما بعلوم اللغة والآداب لكثرة ما قرأ ودرس من هذه العلوم، وهو أول من تحصل عليها في الجزائر والوطن العربي ككل، مما أهله أن يكون أستاذا رسميا بكلية الآداب الكبرى بالجزائر العاصمة سنة 1924 عوضا عن الأستاذ كولان الذي توفي في نفس السنة، وقد منحته في العام نفسه الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف .(chevalier)

شغل رئيسا للجنة امتحانات البكالوريا التي أقيمت بتونس ، وشارك في مؤتمر المباحث العليا المغربية الذي عقد بالرباط في 1928م، فذهب بصحبة عميد كلية الآداب آنذاك الأستاذ "مارتينو martino"، فالتقى هناك عددا من علماء أهل المغرب والوافدين إليها، وقدم في هذا المؤتمر بحثا كتبه بالفرنسية عن العلامة "ابن القنفد القسنطيني"

[15] الطّيّب ولد العروسي ، أعلام من الأدب الجزائري الحديث ، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ط2 ، 2012 ، ص59-66 .

وكتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" فازدادوا إعجابا به، كما دعي لإلقاء محاضرة ثانية باللغة العربية والتي كانت تحت عنوان "رأي غريب في القرآن منسوب للجاحظ".

وفي المؤتمر السابع عشر للمستشرقين شارك في مدينة أكسفورد oxford، فالتقى عددا من أساتذة السوربون وقدم بحثا رائعا وممتعا في الأدب الأندلسي وتاريخه

عرف محمد بن أبي شنب بتواضعه وسعة اطلاعه وحسن معاملاته للناس، ومما امتاز به محافظته على الزي الوطني والأخلاق والعادات والتقاليد الجزائرية ، والتزامه التكلم باللغة العربية، ويقول عنه الاستاذ "مارتينو" عميد كلية الاداب في جامعة الجزائر " إن السيد ابن أبي شنب كان صوت الأديب المسلم الذي عرف كيف يطلع على الأساليب الأوروبية في العمل من دون أن يفقد شيئا من صفاته وعاداته، (...)و عرف لوازم النقد العلمي ، وقد حظي بالاعتراف بقدره (...) وكان يمتاز بصفات تجعل كل من يعرفه يكن له المحبة والتقدير" ()، واقتصر نشاطه على الدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية . قال ابن أبي شنب عندما سئل عن جمال الأسلوب وبلاغة العبارة "خذ العلم وماذا يعنيك أكان بأسلوب طلي أم كان بأسلوب غير طلي، وحسبك أنك فهمت عني ما أريد ولا تغرنكم زخارف الألفاظ وتزويقاتها وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهيم ؟".

أهم مؤلفاته :

ألف محمد بن أبي شنب ما يزيد على 50 كتابا في سائر العلوم المتداولة عند العرب . وقد أسهم في خدمة اللغة العربية وتراثها بالتأليف والنشر والتحقيق و الشرح والتعليق . فمن مؤلفاته :

1- تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب ، الجزائر ، 1906 .

2- عنوان الدراية في علماء بجاية ، الجزائر ، 1911 .

3- شرح ديوان عروة بن الورد العبسي ، الجزائر ، 1926 .

أبو دلامة : حياته وشعره . وهو أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه التي حصل عليها سنة 1924م

وغيرها من المؤلفات . وقد حقق وصحح العديد من كتب التراث العربي ، منها :

1 - البتسان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمساني الجزائر ، 1908.

2 - الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الجزائر ، 1920.

3 – كتاب الجمل للزجاجي ، الجزائر ، 1927

نشر أيضا 64 بحثا في دائرة المعارف الإسلامية و75 دراسة أغلبها باللغة الفرنسية ، صدر معظمها في دوريات فرنسية مختلفة . عيّن عضوا في مجلة الجمعية الآسيوية سنة 1906 ، ونشر فيها عدة بحوث . وكتب في المجلة الإفريقية الكثير من الدراسات . واشتغل أيضا بالترجمة من العربية إلى الفرنسية ، وفي هذا المجال ترجم ديوان الحطيئة ، ومجموعة أخرى من الدواوين والكتب ، لكنها لم تطبع وبقيت مخطوطة .

له شعر متواضع من حيث البناء الفني ، شأنه في ذلك شأن جل العلماء . وخاض في الكثير من فنونه ، من ذلك قوله مبتهلا إلى الله عز وجل :

دعوت جليلا عظيما قديرا سميعا عليما حليما خبير

وحيدا وليس كمثــله شئ رحيـما للمذنبين غفــورا

ببـــــابك ربي وقفت ذليلا فـكن لي إلهي معينا نصيرا

تراني وحيدا فريـدا غريبا ترى السقم أضواني كيثرا

وفاته :

عكف الشيخ في آخر حياته على دراسة شعر أبي العلاء المعري وتحليل أفكاره مع المقارنة بينه وبين مزاحميه من شعراء العرب والفرس ، إلى أن أصيب بمرض أعيا الأطباء علاجه فأشاروا عليه بالدخول إلى مستشفى "مصطفى باشا" بالعاصمة ولكن لم يغن عنه شيئا فلازمه المرض مدة شهر كامل ، ثم وافاه الأجل يوم الثلاثاء 5 فيفري 1929م . ودفن في الغد الموافق ل 27 شعبان 1347هـ عن عمر يناهز الستين سنة وكان يوم جنازته يوما مشهودا حضر فيه رئيس الجامعة ونائب الوالي العام وأساتذة الكليات الأربع بملابسهم الرسمية وعميد كلية الآداب وأعلام البلد وأعيانه، فقال عنه الشيخ عبد الحميد بن باديس "لما عرفناه فقدناه".

قسم اللغة العربية وآدابها

كتاب : تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطّمّار أنموذجا .

يقع كتاب "تاريخ الأدب الجزائري"[16] للكاتب محمد الطمار في 537 صفحة حاول فيها المؤلف التأريخ للأدب الجزائري، من خلال التركيز على أبرز النصوص الأدبية التي أبدعها ألمع الأدباء الجزائريين قديماً وحديثاً . بدأ الطمار كتابه بفترة ما قبل دخول الإسلام إلى الجزائر وخصَّص لها فصلاً تمهيدياً تحدَّث فيه عن استيطان الأمازيغ للجزائر منذ 3 آلاف سنة وهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، ولم يسجِّل هؤلاء قصائدهم وأغانيهم وفنونهم مما جعلها تندثر، كما لم يتعلموا لغة الرومان والمستعمرين الذين جاؤوا بعدهم كالوندال والبيزنطيين ليبدعوا بها، ولذلك كان تأريخ الكاتب لهذه المرحلة سيَّاسياً بالدرجة الأولى· ومع قدوم الفتح الإسلامي للجزائر ابتداءً من أواخر القرن السابع، تغيَّرت حياة الأمازيغ رأساً على عقب سواء على المستوى الديني أو الأدبي والفكري، فأقبلوا على الإسلام وتعلم العربية لكنهم كانوا حديثي عهدٍ بها فلم يبدعوا بها شعراً أو نثراً في تلك المرحلة· والغريب أن الحركية الأدبية والثقافية لم تبدأ فعلياً إلا في عهد الدولة الرستمية التي قامت سنة 776م على يد الخوارج الذين جاؤوا من المشرق إلى المغرب العربي لإقامة دولتهم وأيدهم البربر لتذمرهم من جور الحكم المركزي فأقام عبدالرحمن بن رستم أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة عن حكم العباسيين وعاصمتها "تاهرت" غرب الجزائر وقرَّب إليه رجال العلم والشعراء والأدباء فأصبح هؤلاء يؤمونها من كل الأرجاء فأضحت مركزاً ثقافياً يضاهي قرطبة وبغداد، وظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين الذين عالجوا الشعر وأحسنوه، ومنهم الإمام أفلح، وأحمد بن فتح، وبكر بن حماد، وغيرهم من الذين خلفوا دواوين عديدة نشر الكاتب نماذج من أفضل قصائدها· كما ذكر الكاتبُ أسماء عدة أدباء نبغوا في الإنشاء والنثر والنحو واللغة· كما تناول المؤلف مآثر شعراء وأدباء كثيرين في الفترات العبيدية والصنهاجية والفاطمية، ثم الحمادية التي اشتهر أمراؤها بتقريب أهل الأدب والعلم وجليهم من مختلف الأقطار الإسلامية إليهم فازدهرت الحركة الفكرية والأدبية كماً وكيفاً، واشتهر "ابن رشيق" بنقده وشعره ومساجلاته للكتاب والشعراء وخلّف ثلاثين كتاباً في نقد الشعر أشهرها "أنموذج الزمان في شعراء القيروان . بعدها تطرق المؤلف إلى أهم الشعراء والأدباء في العهود اللاحقة كالمرابطين والموحدين والحفصيين الذين ظهرت في عهدهم "الموشحات" التي انتقلت إليها من الأندلس في القرن الخامس كفنٍّ جديد من فنون الشعر العربي كلف بالغناء· وخصص المؤلف للأدب الجزائري الحديث حيّزاً معتبراً بداية بالعهد العثماني (1518-1830)، حيث تراجع دور الثقافة والأدب لانشغال العثمانيين بالجهاد البحري ضد الغزاة الأوربيين ولهذا غلب على عهدهم الجفاف الفكري، ومع ذلك برز بعضُ الأدباء كعبدالرحمن الثعالبي والأخضري والمقري· وفي عهد الاستعمار الفرنسي، برز الأمير عبدالقادر كشاعر كبير خلف دواوينَ وأشعاراً كثيرة بالرغم من اشتغاله بقيادة المقاومة ضد الفرنسيين طيلة 17 سنة، وخصص المؤلف مساحة لأفضل قصائده في الفخر والحماسة بتمجيد معاركه ضد الفرنسيين وتغزله بزوجته "أم البنين" وقصائد في الشوق والحنين قالها في سجنه الفرنسي· وبعد نهاية ثورة الأمير حمل شعراءٌ آخرون راية الدفاع عن هوية الجزائر، فبرز الأمين العمودي بعد الحرب العالمية الأولى وكذا حمود رمضان، ثم برز محمد العيد آل خليفة بقصائده "الثورية" التي يستنهض بها الهمم لتحرير الجزائر، وانتقد الفرنسيين على سياسة الفرنسة والتغريب والتجويع التي مارسوها ضد الجزائريين، وبعده مفدي زكريا الذي كتب قصائد كثيرة حاول فيها إثارة الجزائريين ضد المستعمر وهو صاحب النشيد الوطني الجزائري "قسماً"، كما خلد الشعراءُ ثورة 1 نوفمبر 1954 ودعوا الشعب إلى الالتفاف حولها، وخصص المؤلف حيزاً كبيراً لأجمل قصائدهم الثورية ومنهم صالح خباشة والأخضر السائحي ومفدي زكريا، وتطرق لكتابات عبدالحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية ونائبه البشير

[16] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ، تقديم عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2 ،2010 ، ص 3 وما بعدها من المقدمة

الإبراهيمي صاحب المقالات الأدبية الرفيعة التي يقول المؤلف إنها أثرت الأدب العربي وطوَّرته، كما ساهمت في النهضة الجزائرية الحديثة.

1-كتاب نظرية القراءة لعبد المالك مرتاض [17]

عبد المالك مرتاض أحد أبرز النقاد المعاصرين الذين اهتموا بالبحث في نظرية القراءة والتلقي . وهو ما نجده جليا في كتابه نظرية القراءة الذي حاول من خلاله أن يؤسس للنظرية العامة للقراءة الأدبية .

قدم الدكتور هذا الكتاب تلبية لدعوة مؤسسة (جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري) للمشاركة في ندوة حول أبي القاسم الشابي كموضوع للندوة، وقد كان في البداية مجرد بحث لا يتجاوز الخمسين صفحة، ونظرا لشساعة الموضوع وعمق الإشكالية التي طرحها، فقد توسع فيه ليصبح كتابا في موضوع القراءة والتلقي والتأويل، لأنه قام بقراءة أكثر من مائة مقال ودراسة تناولت الشابي،كما قرأ ما كتبه النقاد الحداثيون الذين عالجوا هذا الموضوع بأدوات وإجراءات حديثة . فكل هذه الأعمال حاول الناقد جمع ما فيها من أفكار وآراء لينتج لنا هذا الكتاب الذي قسمه إلى اثني عشر فصلا، جعله في قسمين كبيرين: تناول في الأول تأسيس النظرية العامة للقراءة، أما الثاني فكان عرضا لتجارب تطبيقية في قراءة النص الأدبي، وفيه تناول ثلاثة أنواع من القراءات لنصوص الشابي .

2-كتاب القراءة وتوليد الدلالة لحميد لحمداني [18]

يعد حميد لحمداني أحد أهم النقاد المغاربة المهتمين بالنقد ومناهجة بالبحث والتأصيل، أنتج عديدا من الدراسات والأبحاث النقدية، أبرزها كتابه النقدي الموسوم: القراءة وتوليد الدلالة، هذا الكتاب الذي يهتم بتسليط الضوء على "المشاكل النظرية لقراءة الأدب وتأويله، كما يفسح المجال إلى تغيير عاداتنا المألوفة في قراءة النصوص الأدبية شعرية كانت أم سردية".

إن قراء كتاب حميد لحميداني القراءة وتوليد الدلالة يجده "مقسما إلى ثلاثة فصول ومدخل تناول فيه الإبداع العربي الحديث وعلاقته مع القارئ، أما الفصل الأول فتناول فيه النص والخطاب وتوليد المعاني، وفي الفصل الثاني: التأويل الحلمي وتأويل الدلائل، لينتهي في الفصل الثالث بدراسات مستويات القراءة".

إن حميد لحميداني من خلال كتابه هذا "انطلق من مبادئ نظرية القراء وجمالية التلقي الغربية، إلا أنه ربطها بالتراث العربي، إذ بحث في جذور هذه النظرية عند عبد القاهر الجرجاني، ثم مارس ما توصل إلي في الشق النظري على نصوص عربية حديثة، فاستطاع بذلك بناء جسر بين النقد العربي القديم والنقد الجديد بطريقة مميزة تبين إدراكه ووعيه، الذي يتمثل في التأسيس لنظرية قراءة عربية ضاربة في جذور التراث العربي، ولكن فروعها تلامس النقد والنصوص الإبداعية الحديثة والمعاصرة".

[17] بن شعلال سهام، لخضر العرابي، التأسيس لنظرية القراءة عند عبد المالك مرتاض وحميد لحمداني، مجلة الموروث، مج: 9، ع: 2، ديسمبر 2021، ص: 466.

[18] المرجع السابق ، ص 466 .

المحاضرة رقم 15 : مدوّنات الأدب المقارن . محمد غنيمي هلال أنموذجا .[19]

يقومُ الأدب المقارن بدراسة الآداب بعيدًا عن حدود بلد ما، وبمعنى آخر فهو يجري مقارنة أدب بلد معين مع أدب بلد آخر يختلف عنه ،أو مع مجموعة آداب أخرى مختلفة. كما يقوم أيضًا بمقارنة الأدب مع أي مجال من مجالات التعبير الإنسانية ويدرس العلاقة بينهما، كعلاقة الأدب بالفنون والرسم والعمارة والموسيقى والديانات والنحت والاقتصاد والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وغيرها. ويتناول العلاقات التي تحمل تشابهًا أو تباينًا أو تقاربًا بين مختلف الأمم والحضارات، ويعمل على التقريب بين الأدب والمجالات التعبيرية والمعرفية الأخرى. وهذا المقال سيتحدث عن مجالات الأدب المقارن وعن تلخيص كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال. قبل الانتقال بدفَّة الحديث إلى تلخيص كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال سيُشار بطرف البنان إلى ميادين الأدب المقارن التي يدور حولها هذا الأدب، والتي أعطت له مكانة سامية وأهمية كبيرة في العصرالحديث بشكل خاص. وفيما يلي سنذكر أهم الميادين التي يتناولها الأدب المقارن وهي : التركيز على البعد الإنساني في الأدب: حيثُ يعمل الأدب المقارن على التقريب قدر المستطاع بين الآداب المختلفة لجميع الشعوب والأمم، كما يركز على النقاط المشتركة، فيمكن أن تكون الآداب مختلفة في اللغة والشكل ولكنَّ غاياتها واحدة ومشتركة. الحوار: يعتمد الأدب المقارن على الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة، فهو صلة وصل بينها حيث يجمع شتات تلك الآداب في بوتقته الواسعة، ويبحث عن نقاط التأثيروالتأثر بين الآداب في كل مجتمع وبلد، ويحدد النقاط المشتركة والمتباينة بين ثقافات الحضارات والأمم المختلفة. تكافؤ الثقافات: يعتمد الأدب المقارن على فكرة تكافؤ الثقافات من خلال ردم الفجوات بين الآداب والثقافات المختلفة، ويقوم بالتخلص من التشوهات التي تعرضت لها الثقافات القديمة السابقة . الترجمة: تعدُّ الترجمة من أهم الميادين التي ازدهرت بسبب الأدب المقارن وانتشاره، لأن دراسة الترجمة هي أحد فروع الأدب المقارن، حيثُ يبدأ بالترجمة ثمَّ ينطلق في دراساته المتشعبة. تلخيص كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال : ولدَ محمد غنيمي هلال -وهو الكاتب والأديب المصري- في عام 1916م ونال الشهادة الثانوية من الأزهر عام 1937م، وفي عام 1964م عمل بتدريس الأدب المقارن في كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر. وتعدُّ بداية الدراسات العلمية الأدبية في الأدب المقارن في اللغة العربية في خمسينيات القرن الماضي بعد عودة محمد غنيمي هلال من بعثة خاضها في فرنسا وحصل فيها على شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن هناك في عام 1952م. وكتب مؤلفه الشهير كتاب الأدب المقارن، وفي تلخيص كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال يشار إلى أنَّ عنوان الكتاب هو كل ما يدور حوله هذا المؤلَف، ففيه دراسة تفصيلية وتعريفية بالأدب المقارن وتاريخه في الغرب وعند العرب .

خاتمة :

لم يكن البرنامج المقرر في مقياس المصادر يهدف إلى دراسة تراجم العلماء ، لأن السير العلمية لهؤلاء تتطلب عملا جماعيا يقدم في سلسلة من المؤلفات . لأن كل عالم يشكل مدرسة قائمة بذاتها .وإنما كان المقرر يهدف إلى تعريف طلبتنا بمادة كل مصدر ومنهجه ، حتى ينتقلوا إلى المراحل التالية وفي أذهانهم فكرة عامة عن كل كتاب .

وبالرغم من أن الكثير من مصادر تراثنا العربي اللغوي والأدبي قد طبع محققا ، إلا أن الكثير منه أيضا مازال مغمورا، ويحاجة إلى جهد أكبر لإخراجه من خزائن المخطوطات إلى دور النشر الورقية والرقمية . ونأمل أن يحمل طلبتنا على عاتقهم هذه المهمة الشاقة ، وأن يأخذوها على محمل الجد ، من أجل الحفاظ على لغتنا وتراثنا وثقافتنا . في عصر صار كل شيء فيه يسيرا بفضل التكنولوجيا والرقمنة والذكاء الاصطناعي .

[19] محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت ، 1987.

قائمة المصادر والمراجع

1- أحمد امين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، (د.ت).

2- أحمد شلبي، كيف تكتب بحثا أو رسالة، مطبعة (النهضة المصرية) القاهرة ,1966, ط5.

3 - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت.

4- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب ، القاهرة 1971 .

5 - الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1963.

6 - بدر العبد القادر: الفكر اللغوي عند أحمد أمين ، الدار المتوسطية للنشر ،أربانة ط1 ، 2019 .

7- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2001.

8 - عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

9 - أبو تمام، الحماسة، شرح المرزوقي، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003.

10 –التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق أحمد حسن لسيج ،دار الكتب العلمية ، بيروت.

11 - الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

12 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة ،بيروت،1998 .

13- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، دراسة طه أحمد ابراهيم ، دار الكتب العلمية، بيروت،1998.

14- ابن جني ، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب 2006.

15 - محمود فهمي حجازي ' علم اللغة العربية ،مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث و اللغات السامية ، دار الثقافة للنشر و للتوزيع ' الفجالة ، 1991 .

16 - حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي : الأدب الحديث ، دار الجيل ،بيروت ، ط2 ، 1995 .

17- محمد عبد المنعم خفاجي، البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980 .

18 - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، دار الجيل بيروت.

19 –ابن دريد، جمهرة اللغة ،تحقيق رمزي منير بعلبكي دار العلم للملايين ،بيروت،ط1،.1987.

20- محمد الدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، دار الأوزاعي، بيروت، ط1 ,1984 .

21- عمر الدقاق ، مصادر التراث العربي في اللغة و المعاجم والأدب والتراجم ، بيروت، ط3، 1972 .

22- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ضبط وتخريج و تعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة : الجزائر، ط 4 ، 1990.

23 -رجب عبد الجواد إبراهيم دراسات في الدلالة و المعجم مكتبة الآداب، القاهرة ص 159 ، ط1 ، 2001.

24 -أبو بكر الزبيدى ، طبقات اللغويين والنحويين، تحقيق أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة.

25 - السيرافي ،أخبار النحويين البصريين ،تحقيق طه محمد الزيني و محمد عبد المنعم خفاجي ،الناشر مصطفى البابي الحلبي و اولاده،1966 .

26 – السيوطى ، بغية الوعاة، تحقيق أبي الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

27- بن شعلال سهام، لخضر العرابي، التأسيس لنظرية القراءة عند عبد المالك مرتاض وحميد لحمداني، مجلة الموروث، مج: 9، ع: 2، ديسمبر.2021

28 - عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة، دار المعارف، القاهرة، (د، ت) .

29 - الطاهر أحمد مكّي، دراسة في مصادر الأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1999.

30 - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ، تقديم عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2 ،2010 .

31 - أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ،تحقيق أبي الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

فهرس الموضوعات :

1 - المحاضرة رقم 01 : مفهوم المصدر والفرق بينه وبين المرجع .

2 - المحاضرة رقم 02: بيبليوغرافيا المصنفات اللغوية .

3 - المحاضرة رقم 03 : معجم العين للخليل بن أحمد (175 هـ).

4 - المحاضرة رقم 04 : كتاب الخصائص لابن جني (392 هـ) .

5 - المحاضرة رقم 05 : معجم مقاييس اللغة لابن فارس (395 هـ).

6 - المحاضرة رقم 06 : معجم لسان العرب لابن المنظور(711 هـ) .

7 - المحاضرة رقم 07 : ببليوغرافيا المصنفات الأدبية .

8 - المحاضرة رقم 08 : المجامع الشعرية القديمة . (المفضليات – الأصمعيات – المعلقات- جمهرة أشعار العرب – حماسة أبي تمام – ديوان الهذليين) .

9 - المحاضرة رقم 09 : المجامع الأدبية القديمة : البيان والتبيين للجاحظ (255هـ) - الكامل في اللغة والأدب للمبرد (285 هـ)- العقد الفريد لابن عبد ربه (328 هـ).

10 - المحاضرة رقم 10 : المجامع النقدية القديمة : الشعر والشعراء لابن قتيبة (276هـ)- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (471 هـ) .

11 - المحاضرة رقم 11 : المدونات الحديثة والمعاصرة : مؤلفات أحمد أمين – طه حسين – جرجي زيدان .

12 - المحاضرة رقم 12: مصنفات محمد بن أبي شنب في اللغة والأدب .

13 - المحاضرة رقم 13: مصنفات في تاريخ الأدب الجزائري.

14 - المحاضرة رقم 14: مصنفات في النقد المغاربي المعاصر.

15 - المحاضرة رقم 15: مدوّنات الأدب المقارن . محمد غنيمي هلال أنموذجا .